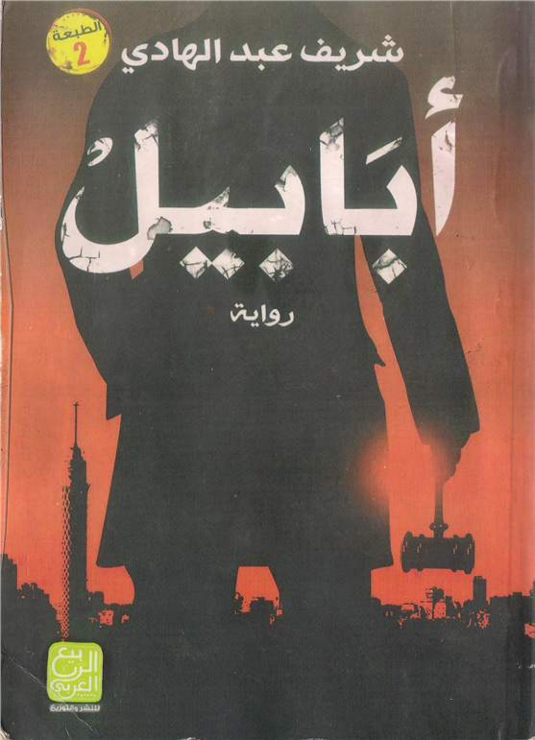
الطبعة 2
شريف عبد الهادي
أبابيل
رواية
الربيع العربي
للنشر والتوزيع

«لا يمنع انهيار السماء على الأرض سوى أعمدةٍ خفيَّة
اسمها العدالة،
فإذا ما ضاع العدل... انهار كل شيء»

شريف عبد الهادي

إلى

فارس العدالة الأول، محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، ورفاقه من النبيِّين، والصدِّيقين، والشهداء، الذين عاشوا وماتوا من أجل إعلاء كلمة الحق، وسيادة العدل.

أول من قال: «ياما في الحبس مظاليم»!

كل قاضٍ شريف، وأي بريء ذاق مرارة السجن.

الشهداء الذين أفلت قاتلوهم بسبب ثغرات القانون!

مقدمة

بفضل الله تعالى حقق عملى الأول «كوابيس سعيدة» نجاحا مُرضِيا، كأول فيلم مقروء بطولة نفس نجوم السينما المفضلين.

واستكمالًا لهذا النجاح أقدم إلى حضراتكم عملى الثانى «أبابيل»، كرواية سينمائية لن أحدد لكم فيها النجوم الذين يصلحون لأداء شخصياتها، حتى أعطي لعقولكم جرعة أكبر من الخيال.

أتمنى لكم قراءة سعيدة، رغم أن الأحداث ليست كذلك.. على الإطلاق!

قبل البداية

اسأليني يا حبيبتي ع اللي داير في البلاد
اللي فيها صادروا حلمي وباعوا صوتي في المزاد
اسأليني عن ولاد شُفتهم بعنيًا دُول
جرِّبوا كل الحلول، وبيفشلوا بالاجتهاد
أحكي ليكي ألف قصة من حكاوي التعبانين
اللي عايش نص ميِّت، واللي ميِّت من سنين
اللي نُص كلامه كُحَّة، واللي شاف خمَّارة راحها
واللي أكل العيش دبحها، دايرة دور ع السكرانين
زحمة زحمة زحمة زحمة، زحمة زحمة زحمة زحمة
اللي نامية وفيها ثروة م الفلوس تعمل جبال
اسأليني عن كباري نايمة تحتيها العيال
اسأليني ع الغلابة، واسأليني ع التّقال
اسأليني ع الديابة، واسأليني ع الفساد
زحمة زحمة زحمة زحمة، زحمة زحمة زحمة زحمة
اسأليني اشمعنى صابر ع المآسي الملهية
أقولك إني كنت واحد م الغلابة الأغبيا
اللي صبروا ف انتظار المعجزات والأنبيا
واللي فاق من وهمه فجأة لاقى كُفر قوم عاد
لسه برضه قلبه طاير، كعب داير في البلاد
زحمة زحمة زحمة زحمة، زحمة زحمة زحمة زحمة

فريق: بلاك تيما
كلمات: ميدو زهير

الفصل الأول

سبتمبر 1983

لم يكن الطقس في تلك الحقبة الزمنية كالمدفأة الكهربائية التي نحيا بها اليوم...

يكفي أن تُلقي نظرةً عابرةً على أحدهم وهو يسير في ليالي سبتمبر، مرتديًا معطفًا سميكًا، وفي يده شمسية، لتعلم كيف كان البشر يتّقون وقتها أي هزار «بوابين» مُحتمل من جرعة مطر تسكبها السماء عليهم، على حين غِرّة، أثناء السير في الشوارع.

في تلك الليلة قرر استديو السماء أن يُعطي الطبيعة صورة تذكارية بفلاش من البرق، وجاملته السحب بغسلة مجانية للأرض، قضت على مخزونها الاستراتيجي من السيول التي أفرغتها بسخاء شديد، غير أن فيلا شامخة تُطل من جدرانها العراقة والأصالة لم تعبأ بكل هذه التفاصيل، بينما طردت سخونةُ الحديث المُشتعل في الردهة الخاصة بها أيَّ أثر للبرودة، في لقاء عائليٍّ أدار دفته المستشار "سيف العزازي" صاحب الفيلا، الذي يعيش معه ابنه الرائد "مهران العزازي"، وزوجته "منى" وطفلهما الجميل "مجد الدين"، في حين حلّت شقيقتُها "هيام" وزوجها وكيل النيابة "حسام البسطاويسي" وطفلهما "أُبَيّ"، ضيوفًا على حفل بسيط أقامه سيادة المستشار بلا مناسبة إلا ليُدلي بنصائحه القانونية، ويرى في أعين من حوله الاهتمام بحديثه والإنصات لكلامه، ككبير للعائلة، بينما في غرفة جانبية نرى الطفلين "مجد الدين" ذا الوجه الأبيض المُستدير، والشعر الناعم كستنائيّ اللون، وابن خالته القصير السَّمين "أُبَيّ"، ذا الوجه المُمتلئ، والشعر الأسود متوسط النعومة، وقد انشغل كلاهما بمنافسة شرسة في لعبة «حرب الطائرات» على جهاز «الأتاري»، بعد أن وصل كلاهما إلى مرحلة «بيت النمل».

وفي غمار اندماج المستشار "سيف العزازي" في الحديث عن وضع القضاء المصري في ظل حكم الرئيس الجديد محمد حسني مبارك، بالغ الرجل في الدفاع عن النظام، بشكل يوحي إليك أن الطين الذي خُلِق منه قد أُخذ خصيصا من حديقة القصر الجمهورى! بينما ظهر السمو على ملامحه الوسيمة ذات الشعر الفضيّ، الذي زاده الشيب تألُّقًا وجمالًا، وكست الحُمرة بشرته البيضاء التي تكللها لحية خفيفة، في حين ارتدى «روب» فخمًا، وأمسكت أصابعه بسيجار فاخر كوبي، أخذ منه نفسًا عميقًا، قبل أن يتكلم بثقة وخُيلاء كدوق إنجليزي يجلس في ضيعته مترامية الأطراف، قائلًا:

– أنا شخصيًّا متفائل جدًّا بالراجل ده.. ما تنساش إنه مسك الحكم في مرحلة حرجة، مصر فيها كانت واقفة بطولها والعالم كله مستنّي لها غلطة، كأنها فريسة وسط أسود ما بترحمش. الدول العربية مقاطعاك وبتعتبرك خاين وعميل، والتيارات السياسية والأحزاب من أقصى اليمين لأقصى اليسار كلها بتنطح في النظام وبتعارضه معارضة شرسة، لمجرد الانتقام من اللي عمله فيهم السادات في اعتقالات سبتمبر. ورغم كده له مجهودات عظيمة عشان يرجّع العلاقات مع الدول العربية، واسترداد باقي «سينا» من إسرائيل من غير نقطة دم واحدة. ده غير إنه عمل مصالحة وطنية مع كل تيارات وأحزاب المعارضة، وحاكم عصمت السادات وولاده وشريكهم رشاد عثمان، وصادر منهم فوق الـ100 مليون جنيه بعد ما نهبوا خير البلد وفرضوا إتاوات على رجال الأعمال ودخلوا معاهم شراكة بالعافية من غير ما يدفعوا ولا مليم. ده غير قضية أطنان الفراخ الفاسدة بتاعة توفيق عبد الحي، وغيرها من القضايا، عشان ينقّي عصر السادات من الفساد اللي حصل فيه، ويصحح أخطاءه السياسية.

مع آخر حروف كلماته، رد عليه "حسام البسطاويسي" بنظرة ثعلبية ماكرة سرعان ما تحوّلت إلى كلمات مدروسة خرجت من فمه بهدوء ودبلوماسية، بينما نطقت عيناه بنظرات تمنّى المستشار لو أن هناك نصًا قانونيًا يحاسب عليها حتى يعدمه بسببها، وهو يستمع لكلمات ولكمات وكيل النيابة الشاب الذي يقول بثقة:

— سيادتك لو عايز تدافع عنه أنا ممكن أزيدك من الشعر بيت.. وأفكرك لو نسيت إنه قال السنة اللي فاتت إن الكفن مالوش جيوب.. وإنه هيقف مع أصحاب الأيادي الطاهرة.. ده غير إنه قال من سنتين في بداية عهده إنه مش هيرحم أي حد يمد إيده على المال العام.. حتى لو كان أقرب قريب ليه.. وإنه بيكره الظلم والواسطة.. ومش هيسمح باستغلال علاقات النسب.. لكن...

أوقف "حسام" كلماته وألقى نظرة عابرة على عديله الرائد "مهران"، قبل أن يتأمل ملامح المستشار بالمزيد من المكر وهو يباغته بسؤال:

— تقدر حضرتك تقول لي ليه قال في أول شهر من حكمه لجورنال الـ "نيويورك تايمز" إنه مش عايز قانون الطوارئ.. ومع ذلك عدى سنتين وإحنا لسه شغالين بنفس القانون اللي العالم كله بيعتبره استثنائي وكأن الطوارئ عندنا هي الأصل؟! وإيه اللي يضمن إن مبارك هيسمح بتداول السلطة زيّ ما وعد وما يكملش فترات رئاسية تانية؟ وإيه اللي يضمن إنه ما يحولش مصر لعزبة وشلليّة طالما أول القصيدة كفر ووعود بتتقال في الهوا من غير ما يكون لها أي أساس على أرض الواقع؟ متهيأ لي يا سيادة المستشار لو مش من حقنا نهاجمه، فعلى الأقل واجبنا ناخد حذرنا منه

بهدوء أعصاب اكتسبه من ساحات المحاكم، دفن المستشار غضبه في ابتسامة غامضة رسمها على شفتيه اللتين ركن عليهما السيجار

لثوان لم يتذوق فيها تبغه، قبل أن يتدخل ابنه الرائد "مهران" قائلًا:

— انت عارف قانون الطوارئ اللي مش عاجبك ده يا حسام ساهم في القبض على كام خلية إرهابية؟ عندك فكرة كام واحد متطرف أصولي كان عايز يشارك في قلب نظام الحكم ويمشّي البلد على حسب فهمه الضيق للدين؟ إحنا في مرحلة حرجة، والبلد كانت ولا زالت على كف عفريت، وطول ما النوعيات الغلط دي من البشر موجودة، الراجل معذور في أي خطوة هياخدها عشان يحافظ على الأمن والأمان، وإلا هتبقى ميغة.

كضربة اسكواش مقابلة، ارتدت إليه إجابة "حسام" الغاضبة السريعة لتقول كلماتها:

— وانت عارف قانون الطوارئ ده جالنا بسببه كام واحد مظلوم واتأكدنا في النيابة إنهم ضحايا لقضايا متلفقة؟ وزي ما انت عارف بعد ما بنفرج عن أي متهم بريء إجراءات الإفراج لازم تكمل من القسم، وعدد كبير من اللي أفرجنا عنهم ما رجعوش بيوتهم وتم اعتقالهم في أماكن مجهولة. يمكن أنا واثق فيك بحكم عملك في قوات مكافحة الإرهاب إنك مش بتستغل قانون الطوارئ غلط. لكن لو بصيت على زمايلك في الأمن العام هتلاقيهم اتحولوا لآلهة بتلعب بالبشر، تدخل فلان الجنة وترمي علان في النار.. ومحدش يقدر يعترض إلا اللي له ضهر وبس.. وخد عندك بقى أمناء الشرطة اللي بقوا ياخدوا شهريات من أي بياع سريح على فرشة.. والظباط اللي رُتبهم أعلى شوية وشغالين مع تجار السلاح والمخدرات.. ده غير المخبرين وصفّ الظباط اللي يفتشوا الناس في الشوارع ويعملوا عليهم مصالح.. واللي يفتح بقه.. في ثانية تتحط له حتة مخدرات ويتقال إنه اتمسك بيها.. وطبعًا مش محتاج أفكرك بكل من له قريب ظابط أو حتى مخبر إزاي بقى ممكن يستغله في إنه يخليه

يحبس له جاره اللي متخانق معاه.. أو زميله في الشغل اللي مش نازل له من زور ويلبّس لهم أي قضية.. ولا حتى يرميهم في الحجز بدون تهمة لحد ما يقولوا حقي برقبتي!

جاء الدور على سيادة المستشار ليرد اعتباره قائلًا:

— كلام سليم.. بس انت والشباب الصغير اللي زيك محتاج يقرا ويفهم كويس اللي بيحصل جوًا وبرًا البلد بدل ما تتكلموا بمثالية ماحدّش هيدفع تمنها غيرنا لو العيار فلت.. يا ترى قريت اللي بيحصل دلوقت في الشرق الأوسط وشفت اللي بيحصل في "بيروت" والحرب الأهلية اللي دمرت "لبنان"؟ خدت فكرة عن منظمة "التحرير الفلسطينية" اللي خطفت سفن وطيارات؟ الدنيا حوالينا والعة والراجل رغم كل ده قال مش هندخل في صراع مع حد وهنمدّ إيدينا للكل.. وأفرج عن المعتقلين.. وسمح للصحافة تنتقد الحكومة رغم إنه قبل ما ييجي بكام شهر هيكل بجلالة قدره اترمى في السجن.. ولو هتخيّرني بين كام بريء ممكن يترمي في السجن شوية، ووكيل نيابة زيك يطلّعه في الآخر.. وبين أمن وأمان البلد اللي ممكن تولع في لحظة أو يسيطر عليها شوية إرهابيين، أكيد هختار مصلحة البلد حتى لو هيعتقلوني أنا شخصيًّا.. لكل معركة ضحاياها وخسايرها.

"حسام البسطاويسي":

— في الحقيقة يا سيادة المستشار أنا مش شايف غير إن مبارك راجل نمطي تقليدي بيتصرّف زي أي موظف روتيني ماشي اليوم بيومه من غير رؤية واسعة ولا خطة واضحة للمستقبل.. في عيد ثورة يوليو يحيي عبد الناصر.. وفي مناسبة ثورة التصحيح يترحّم على السادات.. لكن هو نفسه مالوش خط واضح بيحمل بصمته المستقلّة.. ماحدش فينا عارف هو رايح ناحية المعسكر الشرقي، والا المعسكر الغربي.. ولا هيفضل يطبطب على الكل في حين إن السياسة يعني تحالفات وشراكة وخطط استراتيجية مع كيان على حساب كيان عشان يحصل توازنات دولية.. ماحدش يقدر يراضي الكل زي ما سيادتك عارف.. واللي يفكر يراضي الكل بيتركب ويبقى مجرد قطعة شطرنج، الكيانات الكبيرة بتحركه زي ما هي عايزة.. ده غير إنه ماحطش أيّ تصوُّر لتحقيق الديموقراطية وتداول السلطة أو تغيير النخب.. واحتفظ بطواقم الوزراء ورؤساء مجالس التشريع والحكومة زي ما كانت.. وكمان مالوش دور في منع محاولة الدولة إنها تسيطر على القضاء وتضمه تحت عبايتها من عهد عبد الناصر. وده بطبيعة الحال هيأثر على استقلاليته.

نجحت كلمات النائب "حسام" أن تنسف كل جسور الصلة بين المستشار وهدوء الأعصاب والحكمة التي ميزت بداية حديثه، لينفجر غاضبًا:

— قضاء إيه اللي يستقل؟ لو بتشكّك في نزاهته قدّم استقالتك وروح اشتغل محامي واترافع ضدّنا واثبت كلامك.. الكرسي اللي انت قاعد عليه فيه مليون واحد في البلد يتمنى بس يقرّب منه.. مش يقعد عليه.

"حسام البسطاويسي":

— يظهر إن سيادتك ناسي إن والدي كان من ضمن الـ 200 قاضي اللي استبعدهم عبد الناصر في مذبحة القضاء سنة 69 عشان رفضوا ينضموا للاتحاد الاشتراكي وأصروا على مبدأ الفصل بين السلطات وعارضوا قراراته.. بعد ما كان عايز يخليهم يشتغلوا في السياسة وياخدوا أوامر من السلطة التنفيذية بشكل غير مباشر في القضايا اللي بيحكموا فيها.. ومن ساعتها الجو خِلي له، وقدر يسيِّس عدد من القضاة.. والدولة بقت تنتدبهم عشان هم اللي يحكموا في

قضايا بعينها ويصدروا أحكام تتناسب مع سياسة الحاكم.. وتقريبًا كمان سيادتك غاب عن ذهنك إن عبد الناصر طلب من المستشار عصام حسونة وزير العدل إنه يشكّل تنظيم سرّي من القضاة عشان يضمن إن القضاء يفضل تحت سيطرته وينفذ سياساته بدل ما يفاجئه بحكم ممكن يكون ضد اللي في دماغه.. ولما الوزير رفض عبد الناصر كلّف شعراوي جمعة وزير الداخلية بالمهمة دي.. ولحد النهارده فيه عدد من القضاة لهم مصالح مشتركة مع النظام وبياخدوا أوامر منه بدل ما يحكّموا ضمايرهم.

رأت "منى" الغضب والضيق على ملامح زوجها الرائد "مهران" الذي لم يعجبه أن يشاهد والده المستشار ذا القامة المرفوعة وقد تحول لعصفور مبلول أمام وكيل نيابة شاب في عمر ابنه، فتوسلت بعينيها لشقيقتها "هيام" أن تنقذ الموقف، وتوقف زوجها الذي ألقى كرسيًا في الكلوب، إلا أن المستشار "سيف" رد سريعًا:

– ده كلام فارغ، انت حفظته من غير ما تعيشه بنفسك وتشوف المهازل اللي كانت بتحصل.. القضاة والمستشارين اللي انت بتقول إن عبد الناصر استبعدهم في مذبحة القضاة بسبب إنهم رفضوا العمل السياسي هما أكتر ناس اشتغلت سياسة.. وصدر منهم بيان 30 مارس اللي تدخل في سياسات البلد ونسيوا دورهم الأساسي إنهم مجرد قضاة مش سياسيين.. ويا ريت المرحوم والدك كان حكى لك بحياد وإنصاف إن عدد كبير منهم حاول يعمل زعامات في نادي القضاة اللي حوّلوه لجلسات سياسة ووصلات ردح ضد عبد الناصر وثورته اللي قام بيها.. ووصل بيهم الأمر إن منهم اللي شاف نفسه زعيم وطني من واجبه إنه يقود الأمة زي سعد زغلول بالظبط، باعتبار إن سعد زغلول كان قاضي.. ولو راجعت أسماء القضاة اللي استبعدهم عبد الناصر هتلاقي جزء منهم تم استبعاده بسبب

انضمامه لجماعة الإخوان المسلمين بعد الجرايم اللي قامت بيها.. وجزء تاني كان متقدّم لمجالس تأديب.. وشوية فاضل لهم شهر ولا شهرين ويخرجوا كده كده من الخدمة!

عندها جاهدت "هيام" لاصطناع ضحكة مُفتعلة جعلتها جديرة بلقب أسوأ ممثلة، وهي تقول بلهجة حاولت أن تبدو مرحة لامتصاص جرعة التوتر، وتشتيت شحنة التحفز التي ملأت الأجواء:

– يادي الكلام في السياسة اللي مابقاش ورانا غيره من ساعة ما قتلوا السادات.. والله يا سيادة المستشار أنا نفسي تيجي لحسام إعارة في الخليج زي زمايله ونروح نقعد هناك كام سنة، لحد ما الأمور تستقر في مصر.. بدل الصراعات اللي مالهاش أول من آخر.. ولو إني مش مصدقة لغاية دلوقت إن الخليج اللي كان فقير وحالته تصعب على الكافر بقى هو اللي فاتح دراعاته للي عايز يشتغل ويحوّش قرشين.

وما إن فرغت من حروفها حتى التقطت شقيقتها طرف الكلام سريعًا لمواصلة تهدئة الموقف:

– سيبكم بقى من كل ده وكل واحد يقول عايز يتعشى إيه.. إحنا بقينا في سبتمبر.. يعني آخر الأجازة القضائية لسيادة المستشار.. ومش هنعرف نكرر نفس القعدة تاني غير السنة الجاية وعليكم خير.

غير أن "حسام" أطلق "فيتو" على هذه التهدئة الأنثوية، وقرر العودة للسِّجال الذي أفرغ كل طاقة الاعتراض الكامنة داخله، دون أن ينسى أن يغلف اعتراضه بابتسامةٍ جاهد أن تكون صافيةً هادئةً وهو يقول:

– أهو حتى الأجازة القضائية دي المفروض يتعاد فيها النظر.. يعني إيه القضاة والمستشارين ياخدوا أجازة الصيف من يوليو

لسبتمبر ويسيبوا مصالح الناس تضرب تقلب؟ طب واللي مستنّي الحكم في قضية ذنبه إيه يستنى؟ ومين يقف جنبه أو يحس بيه إذا كان المسئولين عن العدل واخدين أجازة عشان يبلبطوا في المصيف؟

في تلك الأثناء زاد هطول الأمطار في الخارج إلى حد مُفزع دفع غفير الفيلا للاختباء في غرفته الموجودة في الجنينة، قبل أن يقوم النوم بعملية سطو مُسلَّح على جفونه الثقيلة ويسلُبه يقظته، في حين خرجت بصمة صوتية من أنفه تُشعرك أنه مُقبل على نومة أهل الكهف..

عندها.. كان هذا الموعد المثالي لاقتراب شبح تلك المرأة المتشحة بالسواد قبل أن تقف على باب الفيلا بتحفز وترقب، متأملةً تلك اللوحة المكتوب عليها بخط مميز "**فيلا المستشار سيف العزازي**"، قبل أن تعبر بوابة الفيلا دون أن تهتم سوى بهدف واحد جعلها تدخل بقلب ميِّت، وهي تربت على حقيبة يدها الجلدية الفاخرة بقوة أكدتها عروقها البارزة من تحت يديها..

وكلما تقدمت خطوة للداخل، كلما شعرت أنها تقترب من تحقيق ذلك الهدف الذي أتت لأجله...

ها هي تصل إلى باب الفيلا الداخلي المُطلّ على الجنينة، وفي ظل إضاءة خافتة للغاية تُظهر يدها الأنثوية الرقيقة -رغم عروقها النافرة- لتطرق باب المنزل وهي تنظر إلى الأرض، بينما نلمح من ظهرها ذلك المعطف الأسود الطويل الذي ترتديه وقد انسدل عليه جزء بسيط من شعرها الأسود الفاحم المبلول، فيما انسدلت باقي خصلاته المبتلة إلى الأمام لتغطي وجهها وتجعلها أشبه بمصاص دماء، لتفتح الباب خادمة تساءلت وهي تمسح ملامح المرأة المخيفة بتوجس ورهبة:

- مين حضرتك؟

فإذا بالمرأة ترفع وجهها ببطء، قبل أن تُخرج من حقيبتها مسدسًا تصوِّبه نحو الخادمة بكلتا يديها، لتُطلق الخادمة شهقة فزع.

مع صرخة الخادمة هب الجمع واقفًا، لنرى الخادمة ترجع بظهرها أمام ذلك المسدس المصوَّب إلى رأسها، في حين تتقدم تلك السيدة إلى الداخل، لنرى مع إضاءة الردهة ملامح وجهها الذابل، حاملًا بقايا قديمة من جمال كانت تبدو عليه حتى فترة قريبة، قبل أن يعتصره الحزن، ويُطلق هالاته السوداء تحت عينيها اللتين احمرتا وكأنهما كرتين من الدم من شدة البكاء، لينطلق من عينيها خطان من الدموع الساخنة وهي تتقدم أكثر، بينما تتراجع أمامها الخادمة بتوتر وخوف وهي ترفع كلتا يديها في استسلام، دون أن يحتاج الباقون إلى جرعة ذكاء إضافية ليفهموا أن المسدس يستهدفهم جميعًا وقادر على إصابة أول أحمق تبدو منه أي بادرة في التحرك أو التصدي للسيدة التي تحمله.
في حين كشف الموقف قوة شكيمة الرائد "مهران" بوقفته الواثقة رغم دقة ما يحدث، ورباطة جأشه التي أطلّت من عينيه العسليتين اللتين يميل لونهما إلى الخضار، وملامح وجهه الخمرية وشعره الأسود الناعم القصير، قبل أن يسأل المرأة وهو يمسحها بعينيه:

- انتي مين، وعايزة إيه؟

لكنها لم تُعره أي اهتمام وهي تلتفت إلى والده ليُطل من عينيها الغضب والكراهية التي لا يستوعبها "الأطلسيّ"، لترجمه بعينيها اللتين اندلع منهما الدَّمع أكثر وأكثر وهي تحدجه بالمزيد من الحمم الجهنمية التي تلمع في مُقلتيها، قبل أن تقول موجهةً كلامها للمستشار:

— أنا أرملة متهم اتحكم عليه ظلم بالإعدام.. والحكم اتنفذ فيه النهارده الصبح.

في تلك اللحظات العصيبة لم تدرك المرأة أن هناك طفلين في غرفة

جانبية ذات باب نصف مفتوح، وأن الطفل الوسيم "مجد الدين" هو وابن خالته البدين "أُبيّ" يتابعان ذلك الموقف الحرج بأنفاس مكتومة، بينما تتابع السيدة المتشحة بالسواد حديثها:

— كل الدفوع اللي دفع بيها المحامي وسيادتك قلت عليها حجج فاضية طلعت في محلها.. والمتهم اللي انت حكمت عليه بالإعدام طلع بريء بعد ما مِسكت الشرطة المجرم الحقيقي.

ينظر المستشار لها بصدمة شديدة وقد اتسعت عيناه، بينما حارت عيون الجميع، غير أن سحنة السيدة المتشحة بالسواد انقلبت فجأة لتتحول من قمة الضعف إلى قمة العنفوان بشكل أعدم بقايا الجمال المتبقي في ملامحها، وقد ضغطت على أسنانها وشفتيها بغِلّ، بينما انكمش أنفها لتُحاكي ساحرات ديزني وهي تقول بصوت أجش أقسى من الصخر وهي تصوِّب مسدسها نحو المستشار وعينها ترمي بشرر:

— **فين جوزي يا سيادة المستشار؟!**

ومن مكانه عقد الطفل "مجد الدين" حاجبيه، وامتدت يده إلى فازة ورد رفيعة تزين مكتب حجرته، قبل أن ينقض عليه ابن خالته "أُبيّ" الذي ارتسم الهول على ملامحه وهو يهمس بنبرات مرتعشة بكل ما أوتي من قدرة على التوسُّل:

- لا يا مجد.. بلاش والنبي.. الست دي ممكن تموِّتنا كلنا.

ليجيبه "مجد" بهمس مماثل لم ينجح في إخفاء قوة شخصيته وثباته:

— فاكر لما كنا بندخل على بعض ضرب ونقلد أميتاب باتشان؟ مش كنا بنقول لو جه أي حرامي هنموّته؟

"ما كناش بنخش على بعض بمسدس"... قالها "أُبيّ" مذعورًا.

"أنا هضربها من وراها من غير ما تحس.. وبابا هيدخل معايا".

رد بها "مجد" وهو يغادر الحجرة بحسم يفوق سنوات عمره البريئة، دون أن يترك مجالًا للنقاش، ليسمع صراخ السيدة المتشحة بالسواد وهي تتابع:

- **أنا عايزة جوزي دلوقتي حالًا.. زي ما ضيّعته منّي، انت مُلزم ترجعه لي.**

ومع صرختها قفز الطفل من مكانه وبكل ما أوتي من قوة ألقى فازة الورد ذات السن المدبب نحو رأس السيدة وهو يصيح:

- **باباااااا!!**

لتلتفت السيدة إليه في لمح البصر وتصوِّب مسدسها نحوه قبل أن ترتطم الفازة بجبهتها في عنف، فتصرخ بألم شديد وهي تسقط مع عنف الضربة، في حين قبضت يديها بحركة لا إرادية على زناد المسدس، ليغمض الطفل عينيه بألم، بينما تتسع عينا المستشار برعب، وتتنافس الخادمة والخالة على جائزة أقوى شهقة، وقد وضعت كل منهما يدها على فمها، في حين يصرخ الرائد "مهران" ملتاعًا على ابنه مع زوجته التي شاركته الصرخة في آن واحد، وكلاهما يردد اسم ابنه بصرخة ملتاعة:

- **مجـــد...**

إلا أن المسدس أصدر تكّة معدنية بلا أي رصاص، ليدرك المستشار أن السيدة كانت تحرق أعصابه فقط، ولم تنو على الشر من البداية، فيتجمد مع هول الموقف، في حين يندفع "حسام البسطاويسي" نحو السيدة التي غطت الدماء وجهها، قائلًا بصدمة بالغة:

- **لا حول ولا قوة إلا بالله... لا حول ولا قوة إلا بالله.**

بينما تجري والدة "مجد" نحوه وتحتضنه وهي تبكي بشدة، قائلةً:

- مجد حبيبي... ابني.

في حين تابع "مجد" الموقف بوجوم يفوق إدراكه، وهو ينظر للسيدة بصدمة شديدة دون أن يشعر بعناق والدته وقبلاتها، قبل أن ينتفض كالممسوس حين ابتسمت له السيدة بوهن رغم الدماء التي تسيل من رأسها بتدفق يليق بنبع نهر، ليصطبغ في عينيه الكون كله باللون الأحمر، وهي تهمس بصعوبة أثناء احتضارها:

- ده البديل اللي كنت بدوّر عليه.. ما دام مش هتقـدروا ترجّعوه لي... كفاية إني أروح له.

لتتسع ابتسامتها، قبل أن تخلو عيناها من بريق الحياة، ولا زال "مجد" ينظر إليها بوجوم شديد وقد فقـد إحساسه بالعالم المحيط به!

* * *

أيام طويلة مضت على الطفل "مجد"، دون أن يعي عددها أو الفارق بينها، وقد تحول الزمن بالنسبة له إلى صحراء شاسعة لا حدود لها أو فواصل.

صحراء تطارده فيها كوابيس مرعبة تفوق طفولته التي لم تعد بريئة، بعد أن هتك عرضها الدم، وظهر فيها ملك الموت.

أصبح ضميره هو عدوه الذي يطارده كسبعٍ جائعٍ وجد غزالة عرجاء، أو خادمة تنفرد بسجادة لتنفيضها ليلة وقفةِ العيد!

ومع إدراكه لفداحة إزهاق روح لم تقترف ما يستحق القتل، ومعرفته - رغم صِغر سنّه - بعقوبة قتل نفس بريئة دون حق، كربـيب في بيت العدالة الذي يسكنه مستشار ورائد طالما تحدثا عن حُرمة الدم، أصبح النوم لا يعني له سوى تجسيد المخاوف، والأوهام، والصور المفزعة التي لا وجود لها إلا في خياله، لتنهار

نفسيته تمامًا مع تكرار الكوابيس التي تفصل بينها شهقة فزع، ويقظة مباغتة يلتف فيها أهل البيت حوله ليقرأوا عليه ما تيسر من القرآن الكريم، قبل أن تغفو عيناه ويصبح وحيدًا من جديد مع ضميره الشرس، في حين لم تكف ابتسامة السيدة المظلومة عن اغتصاب سكينته وسلامه النفسي مع كل شهيق وزفير، بعد أن أدرك - متأخرًا- الفارق بين البطولة والاندفاع.

توقفت أمطار سبتمبر الذي رحل، وحل أكتوبر الذي تحول لأهل هذا البيت من شهر العبور والانتصار إلى شهر النكسة!

وفي ذهن الفتى الصغير، راح ضميره يعزف موسيقى حزينة تتردد وتعزف أبشع مقطوعاتها التعيسة التي تمزق نياط القلب بصوت الكمان، وتطارد سكينة الروح بصوت بيانو في وصلة موسيقية من العذاب الذي لا ينتهي، وسيمفونية تذبح الأعصاب دون أن تُسكتها العقاقير والمسكنات...

لم يعرف مصدر ولا سر تلك الموسيقى التي تعزف في عقله.. هل سمع تلك المقطوعة المتكررة ذات مرة لتنطلق من عقال ذاكرته وتفرض نفسها تماشيًا مع الظرف الذي يمر به، أم هي من نسج خياله الذي صار يجسد آلامه وأحزانه في صورة موسيقى تصويرية بشعة يعزفها صوت الضمير الكامن داخله. كانت موسيقى شديدة الشبه بمقطوعة Secret Garden-Adagio ...

ورغم كل ذلك لم تكن آلام "مجد" هي السبب الوحيد الذي حوّل فيلا المستشار إلى جحيم، فقد خارت قوى الجد "سيف العزازي" الذي تقدم باستقالته، وأصبح قليل الكلام، كثير الاختلاء بنفسه في غرفته كمراهق يحبس نفسه بالساعات لمشاهدة فيلم جنسي في أولى مراحل اكتشاف الرجولة ولذة الجسد، بينما وقع الرائد "مهران" وزوجته "منى" في أشد أنواع الحيرة بين مداوة ابن

ومواساة أب، أما وكيل النيابة "حسام البسطاويسي" فلم يكف عن مدّ يد العون لشد أزر سيادة المستشار، خصمه السياسي الذي سقط من على صهوة جواده، ليقف معه في محنته النفسية كلاعبين ينتمي أحدهما للأهلي والآخر للزمالك، لكنهما على الأقل زملاء في المنتخب، في حين انقطعت زوجته "هيام" عن الحضور، لترعى طفلهما "أُبيّ" الذي ظل واجمًا صامتًا منذ أن شاهد الحادث، غير أن هذا لم يؤثر على بدانته المفرطة؛ لكنه أثر كثيرًا على علاقته بابن خالته "مجد" الذي أصبح في نظره سفاحًا بلا رحمة، قد لا يجد مانعًا في قتله شخصيًا في أي وقت.

بينما لم تيأس "هيام" من شرح الأمر وتبسيطه لـ "أُبيّ" ليدرك الفارق بين القتل الخطأ والقتل مع سبق الإصرار.. بين العمد والسهو.. بين القانون والعدالة، وفي تصادف غير مقصود كان هذا بالضبط ما يفعله "حسام البسطاويسي" مع الطفل "مجد" في لحظات تطوع منه لمداواة طفل قريب إلى قلبه وله نفس منزلة إبنه، ليساعد عديله الرائد "مهران" في انتشال ابنه من تلك الفجوة النفسية التي سقط فيها.

وفي إحدى الليالي، عندما سرق الطفل "مجد" حصة إضافية من النوم فوق سريره الوثير في قلب ظلام الليل، هب من نومه على صوت جدار الغرفة وهو يتشقق لتُبرز من خلف الشقوق طاقةَ نور أبيض متعدد الأشعة، ليفتح عينيه في رعب، ويضع يديه أمام وجهه ليحمي عينيه من الأضواء القوية، بينما عاد صوت الموسيقى يتردد في عقله.

وخلف تلك الإضاءة الباهرة المتسللة عبر شقوق الجدار، ظهرت خلفية عميقة أشبه بالصحراء مترامية الأطراف، قبل أن تظهر فجأةً السيدة التي كانت متشحة بالسواد، بعد أن نزل على عُمرها التخفيض وصارت فاتنةً في نهاية العشرينات من عُمرها، ترتدي فستانًا رقيقًا ناصع البياض عاري الكتفين، يجسّد عودها الفرنسي الجميل، وتُظهر من تحت حمّالته ذراعيها البيضاوين كالقشدة، بينما ينسدل شعرها الذي أصبح ذهبيًا على كتفيها، وتبرق عينها الخضراء ببريق ملائكي أخّاذ، وكأنها حورية هبطت من الجنة، بينما استطال ذيل الفستان ليكون طويلًا، بينما تتقدم السيدة في مظهرها الجميل وكأنها ملكة تسير بكبرياء في موكبها الملكي، غير أن خطواتها التي تقرِّبها من "مجد" كانت بلا حركة من قدميها، إذ تتحرك وكأنها عروس بحر فوق صفحة الماء، لتتسع عينا الطفل "مجد" رعبًا رغم ابتسامتها الودودة العزباء، ويحاول أن يصرخ، لكن صرخته تخرج بلا صوت، قبل أن تصبح هذه السيدة أمامه مباشرة، فيتراجع في خوف حتى يلتصق بظهر السرير ولا يجد قيد أنملة تكفي للمزيد من التراجع، بينما تواصل السيدة الاقتراب ليصبح وجهها ملاصقًا لوجهه، وتمتزج أنفاسهما وهي تتطلّع إلى عينيه، قائلةً بهدوء:

- ماتخافش... أنا جاية أشكرك مش أأذيك.

ثم تزحف يدها اليسرى كحيّة ناعمة، قبل أن تصل ليده اليُمنى فتُمسكها وهي تنظر لعينيه نظرة غامضة، فيغمض عينيه ويغوص برأسه بين كتفيه في رعب، إلا أنها تبتسم وتقبّل كفّه قائلةً بصوت حنون:

- إيدك اللي بعتتني لعالم السعادة... هتكون سيف الحق اللي هتحقق بيه مشيئة السما...

تباغته كلماتها التي حملت مشاعر حقيقية لا تتناقض مع نبرتها الدافئة، فيفتح عينيه ببطء، وقد بدأ حنانها وطيبتها في التهدئة من روعه قبل أن يسألها بتوجُّس وترقُّب:

- مش زعلانة إني قتلتك؟

فجأةً تنقلب سحنتها وتهرم ملامحها ويغطيها السواد وهي تقول بصوت مرعب:

- اللي قتلني هياخد جزاءه دلوقتي حالًا... الموت مالوش عقاب غير الموت.

فيصرخ بهول الدنيا وهو يسترد قدرته على النطق والحركة:

- ماماااااا...

لتتردد الكلمة على شفتيه وهو يفتح عينيه من نومته، وقد اكتشف أنه كان يسبح في كابوس جديد لا قاع له، فيكرر نفس الصرخة وذات النداء المذعور على والدته قبل أن يرفع البطانية المتدثر بها، ويغادر حجرته مسرعًا، باحثًا عن أهله، فيجد والده يقف مع طبيب العائلة الذي يحمل حقيبته ويقول في أسى:

- للأسف يا مهران بيه.. إحساس سيادة المستشار بالذنب من اللي حصل.. خلى مخه يصدر أوامر للجسم بإيقاف الوظايف العضوية.. وطول ما هو مصمم على اللي هو فيه اعتبر المسألة مسألة وقت حتى لو حجزناه في أحسن مستشفى في العالم.

ورغم دقة الموقف والهول الذي يحيط بنفسيته، لم يصدق "مجد" تلك الدموع التي تلمع في عيني والده الذي لم يبك أو يدمع أمامه قط، بينما ترتسم الصدمة المروعة على وجه الأم، قبل أن تتداعى ذكريات "مجد" لتجسد أمام عينيه مواقف جده التي لا تُنسى.

حنانه الزائد عليه حين يضربه والده أو تزجره أمه، حكاياته التي فاقت في جمالها وحكمتها متعة اللعب بجهاز الأتاري الذي أحضره له من الخارج خصيصا في أول إجازة دراسية، احتفالًا بنجاحه، موافقته على طلبه حين تمنى أن يذهب معه إلى المحكمة ليشاهده وهو يحكم على المتهمين، احتضانه له في بحر العجمي حين ابتعدت الأرض عن قدميه وكاد أن يغرق، وتدريبه على السباحة برشاقة ومهارة عالية رغم سنوات عمره التي شارفت على الستين، قراءته للفاتحة وهو يصلي بالعائلة صلاة العشاء بصوت جميل حبّب إليه القرآن الكريم، وترديد الجميع خلفه «آمين»، إصراره على شرح معاني آيات قصار السور له، وحرصه على حفظها بالشرح والتفسير مقابل ركوب مركب في النيل، ولا مانع من شراء دراجة أحيانًا، السبحة والطاقية والجلباب الذين أحضرهم له من الحجاز، ليصلي بهم صلاة العيد، لقد أحبه أكثر من والده ووالدته، وها هو الآن يشعر أنه يتم اختطافه دون أن يملك من الأمر شيئًا.

يهرول "مجد" نحو غرفة الجد ويفتح بابها، فيجد جده يرقد فوق سريره في حالة إعياء شديدة، وجسده مصاب برعشة قوية.

- «جدو».

بعيون دامعة يقترب "مجد" من جانب السرير ويلكز جده محاولًا إفاقته بلا جدوى، قبل أن تلمح عينه شبح السيدة من جديد بشكلها المقيت المتشح بالسواد لتظهر على الجانب المقابل لسرير جده بحيث تواجه "مجد" وتقول بلهجة زوجة أب السندريلا التي لم تسمعها بأذنيك، لكنك على الأقل تشعر بمرارتها وتتخيل قسوتها:

- مالوش لزوم إنك تهرب، القاتل الحقيقي اللي قتلني مش انت.

قبل أن تحدج الجد بنظرة قاسية يزداد معها بريق عينيها ويتضاعف انتفاض جسد الجد مع كل نفس عميق يحاول فيه أن يسحب أكبر قدر من الأوكسجين، في حين يفرد إصبع السبابة بحثًا عن العفو الإلهي، ثم تتسع عينه وهو ينظر لسقف الغرفة نظرة هلع وقد انكشف عنه الحجاب والتفّت الساق بالساق، ليرتفع صدره أثناء انسياب روحه من جسده كآخر قطرة تفيض من صنبور

قطعت عنه المياه، ليتهاوى بعدها صدره المرتفع وقد شحب وجهه وغزاه الزرقان.

«هي دي العدالة اللي ما حققهاش القانون يا مجد، لو مقدرناش نتساوى في الحياة، يبقى على الأقل نتساوى في الموت»

* * *

لم يدر "مجد" كم مرَّ على وفاة جده من وقت حتى يخرج من تلك الحالة النفسية المقيتة، لم يدر حتى أكان ذلك المشهد الذي شاهده فيه وهو يحتضر مجرد كابوس تحقق بالصدفة، أم واقعًا يستحق أن تسجله قائمة حوادث ما وراء الطبيعة، لكن ما يدركه حقًّا أنه لم يحكه لأحد، لا سيما "أُبي" ابن خالته البدين الذي بدأ بالكاد يسلِّم عليه من جديد بعد أن ظل شهورًا طويلة يتعفف عن مصافحته، وهو ينظر بقرف ليده التي سفكت الدم ويتخيل أنها «مطرح الست الميتة».

كان الشيء الوحيد الذي هوّن عليه مرار تلك التجربة البغيضة، هو ذلك التقرب المفاجئ الذي بدر من والده تجاهه بعد رحيل جده، حيث اعتاد من قبل أن يعامله معاملة «ميري» رغم سنوات عمره الصغيرة، لكنه الآن صار ضابطًا بدرجة أب، بل أخ أكبر يتودد دومًا لشقيقه الصغير ذي الوسامة والخفة والرقة التي تسرق الفؤاد.

صارا يجلسان سويةً على السرير في نهاية كل ليلة، ليزيح الأب حكايات عقلة الإصبع وجنيّ علاء الدين، ويستبدلها بحكايات أخرى واقعية خشنة، من ملفات بطولاته في مكافحة الإرهاب، وعملياته الفذة التي تتحدث عنها الداخلية، حتى صار واحدًا من ألمع ضباطها رغم سنوات عمره الشابة، بعد أن يأخذ من صغيره في كل مرة وعدًا ألا يسرِّب منها حرفًا لوالدته ذات القلب الضعيف، ومع الوقت لم يعد في حاجة لأي وعد أو قسم من طفله الأمين،

وبعد أكثر من اختبار تيقن الأب أن "مجد" صار رجلًا في شكل طفل.

لقد تعلم كيف يتحمل المسئولية، وبات لديه إجابة لكل التساؤلات التي تشغل عقل والده حول كيفية استمرار الحياة من بعده إذا خرج ولم يعد يومًا في إحدى مهماته.

وبعد مرور عام على وفاة المستشار "سيف العزازي" أسقط الرائد "مهران" كل ذكرياته المؤلمة، ولم يبق إلا على تلك اللحظة الحاسمة التي قفز فيها "مجد" ليلقي بفازة الورد تجاه السيدة لإنقاذ أهله دون أن يهاب الموت.

ورغم قسم الأب بينه وبين نفسه أن يبعد ابنه عن البدلة الميري ووزارة الداخلية بأقصى ما يملك من قوة، بعد كل ما ذاقه وواجهه من أهوال طالما ابتسم فيها الموت، وهمَّت يد عزرائيل لتقبض روحه قبل أن ينجو بمعجزة في آخر لحظة، إلا أن شجاعة "مجد" وجرأته التي فاقت الخيال دغدغت قناعة نسر الداخلية الرابض على كتفه، لينتصر حسه الأمنى على عاطفة الأبوة، ويحلم بذلك اليوم الذي يراه فيه خليفته!

قرر الأب أن يدفع "مجد" للتفكير في الالتحاق بالشرطة عندما يكبر، وصار يعطيه سلاحه الميري ويدرِّبه على حمله وفكِّه وتركيبه!

وفي صحراء الأهرامات عرفت سيارة الرائد المرسيدس طريقها كل أسبوع، ليهبط منها الطفل "مجد الدين" قبل أن تتوقف حتى، وفي يده حقيبة أثقل بكثير من أن يحملها من هُم في سنوات عمر الزهور، لكنه كان يفض محتوياتها وينصب العدة سريعًا ليتدرب على الرماية تحت رعاية وتوجيه والده، قبل أن يدربه الأب على فنون القتال التي كان ماهرًا فيها لأقصى حد، واضعًا آلاف الحواجز بينه وبين عاطفة الأبوة وهو يقسو على ولده ويطرحه أرضًا مرات

ومرات، حتى صار الطفل يتقن الحركات الصعبة بمهارة شديدة، ويتمتع بلياقة وانسيابية بهلوان محترف يقدم عروضًا عالمية.

ووقف الأب حائرًا بين مشاعر السعادة والغضب ذات يوم، حين رفض "مجد" الانصياع لكلامه حين أمره أن يصوب سلاحه على ذلك العصفور الأصفر الجميل الذي ظهر في الأفق، ودار حولهما دورة كاملة قبل أن يهبط على قرب أمتار قليلة منهما ليقبّل الأرض بمنقاره قُبلة البحث عن الرزق.

لم يدر الصغير "مجد" هل هو طائر زينة فرّ من أصحابه في غفلة منهم، أم أنه خُلق حرًا ولم تطله بعد يد السجان، لكن على كل الأحوال رفض أن يكون هذا المخلوق ذو الأجنحة الخفاقة هدفًا لسلاحه، وهو الذي طالما حلم أن يطير ذات يوم ويرى تلك الدنيا الكريهة من أعلى برؤية أشمل وأعم من ضيق أفق البشر.

كرر الأب أمره بصوت أغلظ، ونبرة أحد، «أضرب»، فلم تزد أوامره الصغير "مجد" إلا نفورًا، قبل أن يلقي سلاحه ويقترب من الطائر في حذر، ومع اقترابه الشديد لاحظ الطائر ذلك ليستدير ناظرًا إلى "مجد" دون أن يهرب!

لم يصدق الصغير "مجد" نفسه وهو يواصل الاقتراب وقد تلاقت عينه بعيني العصفور وكل منهما يتطلع للآخر بترقُّب، قبل أن يخفض العصفور جناحه وينكمش في موضعه بضعف واستسلام بعد أن عجز عن العثور على غذاء، وبات مستعدًا أن يدفع الثمن من حريته كأم تبيع شرفها لتطعم أطفالها اليتامى، قبل أن تمتد إليه يد "مجد" ويشعر بارتعاد فرائصه ورعشته التي تمزق نياط القلب، فما كان منه إلا أن أخذ يمسح جناحيه، ويملس أصابعه على ريشه الناعم الجميل، بينما أغمض العصفور عينيه ودفن رأسه بين جناحيه في استسلام، وبعد أن طبع الطفل الصغير قبلة حانية على رأسه، اتجه به نحو السيارة، ليضعه على الكنبة الخلفية، قبل أن يسحب حقيبة الساندوتشات ليخرج منها ساندوتش أخذ يقطّعه إلى قطع صغيرة للغاية ويلقيها عند قدمي العصفور الذي بدأ في نقر الفتات، بينما لا زال الأب يتابع الموقف من بعيد، سعيدًا بإنسانية ابنه المفرطة، متذمرًا من رفضه للأمر، غير أنه شعر برجفة تدب في أوصاله حين أمسك الصغير "مجد" العصفور وألقاه في الهواء ليطير العصفور من جديد محلقًا في السماء، في حين أطلق "مجد" أجمل ضحكاته الطفولية وهو يشب برأسه لأعلى متمنيًا أن ينطح السماء وقد فرد ذراعيه مثل الطيور وأخذ يلف حول نفسه.

وفي حمام سباحة نادي الشرطة، تفوق "مجد الدين" على أقرانه في العوم تحت المطر في مياه أشبه بالثلج، ليجوب الحمام ذهابًا وإيابًا كدولفين صغير، ويغوص في حمام الغطس لإحضار عملة معدنية من الأعماق كسمكة قرش تنقض على فريستها.

لكن كل هذا المجهود البدني، والعنف الجسدي، لم يُنس الطفل الصغير أن يلح على والده في طلب أمنية جديدة، ومتعة مختلفة لم يجدها في تدريبات القتال والسباحة والرماية.

- «نفسي في بيانو يا بابا».
- هتعمل بيه إيه؟
- «فيه أصوات موسيقى بسمعها جوايا، أوقات كتير ببقى نفسي أطلّعها لكل الناس بس ما بعرفش، ساعات بتبقى حزينة، وساعات بتبقى مضحكة، وساعات تانية ما بعرفش هي إيه بس بترعش من جوايَ وأنا بسمعها».

وفي صباح اليوم التالي استيقظ الصغير على قُبلة حانية من والدته، التي أيقظته وهي تشير لطرف الغرفة قائلة بابتسامة عذبة رقيقة:

— مجد حبيبي، شوفت بابا جاب لك إيه؟

ليفتح "مجد" عينيه بلهفة وفضول، قبل أن تتسع العينان وقد غمرتهما سعادة الكون وهو يرى ذلك البيانو الضخم وبجواره يقف والده فاردًا ذراعيه في انتظار حضن مكافأة من صغيره، لكنه لم يتوقع أن يقفز الطفل من على سريره ويعدو نحوه بهذه الحميمية قبل أن يغمره بقبلات فياضة، ويمسح وجهه في صدره كقط عاشق لصاحبه، قبل أن يمسك يديه ويقبلها لأول مرة، وسط دموع الأم التي تأثرت بالموقف، بينما فجرت مشاعر الطفل كل مشاعر الأبوة لدى والده الرائد الذي جاء دوره ليغمر صغيره بقبلات وأحضان أقوى وأكثر، وكأنه يعوض اشتياقه لوالده المستشار في طفله الصغير، قبل أن تنهمر من عينيه الدموع رغمًا عنه قائلًا لـ"مجد":

– من بكرة إن شاء الله ميس رضوى هتيجي تعلمك الموسيقى عشان تعرف تطلّع الموسيقى اللي جواك، وتسمّعنا أنا وماما موهبتك.

في حين منحه طفله الصغير نظرة امتنان وحب، اختصرت جمال الكون كله وبهاءه في نفس الأب الذي شعر أنه يكاد يملس النجوم، موقنًا أن طفله طفل غير عادي، جاء من السماء حاملًا توقيعًا كُتِبَ عليه "هدية من الله"!

وفي ذكرى رحيل الجد، لم ينس الصغير "مجد" أن يدخل غرفة مكتبه التي تحوى مكتبةً ثريةً بكل صنوف المراجع والكتب القانونية، إلى جانب روائع الأدب والفكر، سواء كتب مصطفى محمود، والمنفلوطي، والعقاد، وتوفيق الحكيم، ويوسف إدريس، وروائع الأدب العالمي، وأرشيف صحفي لقصاصات الصحف والمجلات التي كتبت عن المستشار الشهير، ليشعل "مجد" تلك الأخشاب الموجودة في مدفأة مدفونة في قلب جدار الغرفة، ثم ينظر إلى ضوء البرق الذي عاد ليسطع قبل أن تهطل الأمطار من جديد

في ذات الليلة، وكأن التاريخ يعيد نفسه، قبل أن يجلس "مجد" على كرسي المكتب الهزاز، ويرتدي نظارة جده الطبية التي لا زالت تنادي عليه خارج الجراب، بينما تمتد يده إلى جهاز الجرامافون، واضعًا أسطوانة موسيقية ضخمة الحجم، ثم يضع فوقها الذراع التي تقرأها لتدبّ الروح في الجهاز الذي غطاه التراب وينبعث صوت أم كلثوم القوي...

فات الميعاد، وبقينا بعاد، بعاد، بعااد، والنار، النار، النار بقت، النااار، دخان، ورماد، رماد، فات الميعاد...

تفيد بإيه، إيه يا ندم، يا ندم، يا ندم، وتعمل إيه، إيه يا عذاب، طالت، ليالي، ليالي، ليالي الألم، واتفرقوا الأحباب

وكفاية بقى، تعذيب وشقا، ودموع في فراق، ودموع في لُقا.

تطلع الصغير إلى صورة جدّه الباسمة، غير مصدّق أن خلف تلك الابتسامة الحانية، والملامح السعيدة رجلًا رحل عن عالمنا ولم يتبق منه سوى لمحة ثابتة ثم حبسها خلف برواز، بعد أن تجمّد عندها الزمن ليوقف حركة وروح الجد الذي أصبح مجرد ذكرى وصورة معلقة على الجدار.

حاول الصغير أن يخدع نفسه بأن جده باق، فأوهم خياله أن المستشار الراحل يطل من صورته المعلقة، وأن تلك الابتسامة التي تشع من وجهه هي خير دليل على أنه سعيد بحفيده، وفخور بأفعاله، بينما راح صوت أم كلثوم بألحان بليغ حمدي يدغدغان كيان الطفل الذي يفهم – لسوء حظه – كلمات الأغنية ويتذوق فن الست بعد أن نشأ على سماعه وهو في المهد، لتلتقي عين "مجد" الحزينة بعين جده لفترة طويلة، حتى داعب الدمع مقلتيه، ونجح في الإفلات من بين رموشه كما يتسلل الماء من بين الأصابع، لينزل حارًا على بشرته البيضاء فيسلخها سلخًا ويغزوها اللون الأحمر، في

حين دار ذلك الحديث الصامت بين الطفل والجد وقد تخاطبت الروحان بعد أن ذابت المسافة بين الأرض والسماء، بين الواقع والخيال، بين الأحياء والأموات، دون أن يشعر كلاهما بكتف الأب الذي يقف عليه النسر في ملابسه الميري، وقد ظهر الرائد خارج الغرفة وهو يقترب بخفة متأملًا طفله الذي بدا صورة مصغرة من جده، قبل أن يلمح "مجد" انعكاس صورة والده في زجاج برواز صورة الجد، فيلتفت له ببطء قبل أن ينزل من على الكرسي الهزاز ويتقدم بخطوات ثقيلة نحو والده قائلًا بعينين دامعتين، حل فيهما اللون الأحمر مكان الأبيض:

- جدو وحشني أوي يا بابا.

فلا يسع الأب سوى أن يركع ليحتضن طفله سريعًا حتى لا يلحظ "مجد" عيني سيادة الرائد اللتين تسلل إليهما الدمع، قبل أن يتحسس بيده الحنونة شعر ابنه الذي دفن وجهه في صدره، لينظر الرائد "مهران" بدوره لصورة والده المستشار ثم يطوح بصره نحو الشُرفة ويعبرها إلى الأفق البعيد غير عابئ بصوت الرعد وهطول الأمطار، وهو يسترجع صوت والده المرح حين قال له ذات مرة:

- تفتكر لما مجد يكبر ويبقى قاضي زي جده، هكون لسه عايش ولا هكون بقيت شوية تراب؟

بينما لا زال صوت الموسيقى الحزينة يتردد على مسامع الطفل "مجد" بكل قسوة.

الفصل الثاني

24 يونيو 2012

على شاشات التلفاز بمختلف القنوات الفضائية والأرضية، يلقي الرئيس أول خطاب رسمي له بعد إعلان نتيجة الانتخابات الرئاسية قائلًا:

شعب مصر العظيم، أيها الفرحون اليوم، المحتفلون بعيد الديمقراطية في مصر، أيها الواقفون في الميادين، في ميدان التحرير وفي كل ميادين مصر، أحبائي، أهلي وعشيرتي، إخواني وأبنائي، يا من تنظرون إلى المستقبل، يا من تريدون لوطننا مصر الخير والنهضة، والتنمية والاستقرار، والأمن والأمان.

أحبائي جميعًا، أتوجه إليكم بحمد الله سبحانه وتعالى، نحمد الله جميعًا على بلوغنا هذه اللحظة التاريخية، هذه اللحظة التي تشكّل ملمحًا مُضيئًا، مسطرة بيد المصريين، بإرادتهم، بدمائهم، ودموعهم، وتضحياتهم، هذه اللحظة، التي نسطرها جميعًا بهذه التضحيات، وما كُنت لأقف بين أيديكم اليوم كأول رئيس مُنتخب بإرادة المصريين الحرة في أول انتخابات رئاسية بعد ثورة الخامس والعشرين من يناير، ما كُنت لأقف هذا الموقف معكم الآن بهذه الفرحة العارمة التي تعم كل ربوع الوطن المصري الحبيب، ما كُنت لأقف هذه الوقفة لولا توفيق الله سبحانه وتعالى، ثم هذه التضحيات وتلك الدماء الزكية لشهدائنا الأبرار، ولمصابينا العظام، الشكر والتحية للشهداء، لأمهات الشهداء، لأباء الشهداء، لمن فقدوا العزيز عليهم وضحّوا به من أجل مصر، مع خالص الدعاء لهؤلاء الشهداء والمصابين الذين رووا بدمائهم شجرة الحرية، والذين فتحوا لنا الطريق لنصل لهذه اللحظة.

قبل أن يتوقف الخطاب وينطفئ التلفاز بضغطة زر عصبية على

جهاز الريموت كنترول في منزل المستشار "أحمد العبد" الذي قال بعصبية شديدة في عدد من القضاة والمستشارين الذين يجلسون حوله في ردهة منزله:

– ما بقاش ناقص إلا ردّ السجون ده عشان يحكمنا على آخر الزمن، منه لله المشير، سلِّم البلد للإخوان تسليم أهالي عشان ينفد بجلده، أقطع دراعي لو ما كانش فيه صفقة تمت بينهم.

المستشار "عزيز شاكر" يتوقف عن رشف القهوة، ليضع الفنجان على غطائه الصيني الذي تمسكه يده اليسرى، قائلًا:

– أراهنك يا سيادة المستشار إن المشير واللي معاه أول ناس هتاخد الصابونة من الإخوان، واللي عاملين فيها ثوار وعصروا على نفسهم لمونة وانتخبوا مرسي بالعند في شفيق بكرة يندموا ويلعنوا اليوم اللي عملوا فيه كده. بس ده مش هيحصل غير لما حبّة حلوين منهم يتسجن ويُعتقل وينضرب من الحرس الثوري اللي الإخوان بيشكلوه دلوقت، وساعتها هتاف يسقط حكم العسكر هيتحول ليسقط حكم المرشد، ومش بعيد الناس ترجع تهتف من تاني الجيش والشعب إيد واحدة!

لترد عليه المستشارة "أماني التهامي" القاضية بالمحكمة الدستورية العُليا قائلةً:

– فاكرين لما طلِعت مع هالة سرحان وقلت إن فيه مؤامرة خارجية على الشعب المصري، ولازم المشير يصارح الناس باللي بيحصل وهيحصل في البلد قبل ما تقع الفاس في الراس؟ أمريكا عايزة تقضي على الإسلاميين بإيديهم منهم فيهم من غير ما تورط نفسها في صراع معاهم، وفي نفس الوقت تضرب بيهم إيران اللي بقت قوة ماحدش يقدر يدوس لها على طرف، فقالت لك هات الإسلاميين يمسكوا البلاد العربية عشان يخربوها أكتر ما هي خربانة، فالناس تكره الإسلام والغرب يضحك على الحكم الإسلامي، وممكن واحد مجنون من اللي بيحكموا يلطش مع إيران ونقف كلنا نتفرج!

هنا صاح المستشار "العبد" بعصبية:

– تتحرق أمريكا على إيران على الإخوان في يوم واحد، أنا اللي يهمني إن ماحدش من الرعاع دول يتدخل في شغلنا ويفرض سيطرته علينا، أديكوا شوفتوا تنظيم "قضاة من أجل مصر" اللي طلع خلية إخوانية نايمة وإحنا مش دريانين، وفجأة صحيت الخلية دي وساندت العياط في الانتخابات، ويا عالم كام قاضي ومستشار إخوان هيعلنوا عن انتماءاتهم الفترة الجاية، إحنا لو ما وقفناش وخدنا حذرنا هيأخونوا القضاء الفترة اللي جاية وهيخطفوا البلد.

وقبل أن يغادر آخر حرف لسانه ردّت المستشارة "أماني" بتحفُّز:

– ومين هيسمح بكده إن شاء الله؟ انت ناسي إن شعبيتهم في النازل، وبعد ما خدوا 10 مليون صوت في مجلس الشعب جابوا 5 مليون صوت بالعافية في الجولة الأولى من انتخابات الرئاسة؟ يمكن عرفوا يضحكوا على الشعب وشوية العبط بتوع النخبة الثورية اللي عصروا على نفسهم لمون واتضامنوا معاهم بالعند في شفيق، لكن صدقني زي ما اتكشفوا في مجلس الشعب هيتكشفوا أكتر اليومين اللي جايين والناس هتجيب آخرها منهم بدري بدري، ويوم ما ناخد ضدهم أي إجراء قانوني هتلاقي الشعب وراك واقف بيساندك، وأول اللي هيؤيد أحكامك وقراراتك القانونية هم كل القوى الثورية والمعارضة اللي بيكرهوا الإخوان من الأول وعندهم أحلام وتوقعات أكبر بكتير من قدرات شخشيخة المرشد ده.

ثم ترتسم ابتسامة شامتة على ملامحها قبل أن تتابع:

– هو مش وعد إنه هيحل في أول 100 يوم من حكمه مشاكل العيش والبنزين والأمن والنضافة؟ بكرة نغمض عنينا ونفتحها نلاقي

الـ 100 يوم عدوا، وهو واقف محلك سر وكل الشعب هيطبق في زمارة رقبته، النوعية اللي زي دي أحسن حاجة تسيب لها الحبل وهي اللي هتخنق نفسها بيه، وهفكرك قريب

فيما مطَّ المستشار شفتيه بحنق، وفي عينيه غل وحقد يكفيان لحرق الكون بأكلمه.

* * *

الآن أصبح "مجد" قاضيا شابا في الثلاثينيات من عمره، يجلس في المقعد الخلفى لسيارته التي يقودها سائق خاص، بينما يذيع جهاز الكاسيت بها مقطوعة "انت عُمري" الموسيقية بعزف عُمر خيرت، قبل أن تصل السيارة أمام محكمة الجلاء، ليُغمض "مجد" عينيه ويزفر زفرة حارَّة يحاول فيها وبها أن يطرد ذكرياته الأليمة التي لم تفارقه يومًا منذ طفولته البائسة، ولم ينقذه من استرجاعها سوى صوت السائق الذي قال باحترام:

- وصلنا يا فندم، لا مؤاخذة هتنزل هنا عشان الدنيا واقفة قدَّام المحكمة.

ليلتفت له "مجد" بحزن، قبل أن يقول:

–.طيب خلاص مش مشكلة، بس الساعة 5 بالدقيقة تكون قدّامي.

– تحت أمرك يا فندم.

يغادر "مجد" السيارة، وهو يرتدي نظارة شمسية فاخرة، لينظر حوله متأمِّلًا التفاصيل التي تحدث أمام المحكمة، شهود الزور الذين يتـفق معهم البعض ويلقِّنهم الكلام الذي سيقولونه بالداخل للقاضي، حيث يظهر رجل أنيق يرتدي نظارة شمسية ثمينة، يتـفق مع مجموعة رجال ضخام الجثة:

– دول 500 جنيه، وبعد ما تقولوا اللي اتـفـقـنا عليه قدام القاضي هتاخدوا زيهم.

فيرد أحدهم، يحتل شاربه الضخم نصف وجهه، بصوت غبي:

– بس إحنا مالناش دعوة باللي هيحكم بيه يا برنس، إحنا هندخل جوًا نطرش الكلمتين ونطلع نلاقيك واقف لنا بعرقنا، عشان اللي أوله شرط آخره نور.

العرضحالجي الذي ينادي في الناس بالدمغات اللازمة والأوراق المطلوبة، وقد جلس على مائدة صغيرة بالية عليها دمغات وأوراق، وفي يده دباسة، وأمامه مجموعة من الناس:

- أيوة آهه، دمغة البراءة...

رجل يمسك في يده أكثر من جهاز محمول، ويرتدي طاقية أشبه بطواقي الصيادين لتقيه حر الشمس دون أن تمنع تصبُّب العرق على جبينه وهو ينادي على الناس:

- أيوة محمول محمول محمول، بجنيه دقيقة المحمول...

يسير "مجد" على الرصيف ببذلته الأنيقة وجسده الممشوق، وقد بدا بوسامته وأناقته أقرب لنجم سينمائيٍّ منه لقاضٍ، وما إن يلمحه أحد أمناء الشرطة وهو يقترب من باب المحكمة، حتى يتكهرب الجو، ويبدأ في فض الزحام ليخلي الطريق للقاضي:

"وسَّع يا عم انت وهو، حاسب يا بني آدم»

بينما يسير "مجد" بوقار وهيبة شديدة ضاعفها جسده القوي وعضلاته التي برزت من تحت بدلته، ونظارته الشمسية التي تلاءمت كثيراً مع ملامح وجهه المستدير وتـقـسيمتها الصارمة، وفي اللحظة نفسها تأتي عربة ترحيلات وتستقر أمام المحكمة، ليقوم أحد أمناء الشرطة بفتح بابها الخلفي لإخراج المساجين بعنف

وقسوة، فتنهض إحدى السيدات، متشحةً بالسواد، من على رصيف المحكمة، وتهب واقفةً ثم تجري بلهفة شديدة لاحتضان ابنها الذي ينزل من عربة الترحيلات مكلبشًا في يد مسجون آخر، وتبكي بشدة، في حين يهبط الابن الشاب من العربة وينظر لها بانكسار وهي تحاول الاقتراب منه فيمنعها أحد العساكر:

- ممنوع يا ست.

الزحام يفرِّق بين الابن والأم، فتجري وراءه في نفس لحظة دخول "مجد" باب المحكمة، لتصطدم بـه دون قصد فيدفعها الأمين بقوة، وهو يصيح فيها بملامح قاسية:

- ما قلنا ممنوع يا مرة!

تسقط السيدة على سلالم المحكمة وتتدحرج، وهي تبكي بحُرقة ووجع مؤثر، قبل أن يلتفت "مجد" لها ويجرى نحوها مسرعًا ليساعدها على النهوض، وهو يصيح في الأمين بغضب هادر:

- إيه اللي انت عملته ده يا أعمى القلب؟

- لا مؤاخذة يا باشا، حبيت أوسع لك الطريق.

- باشا دي تقولها للظابط بتاعك يا حتة نمرة، انت في محكمة مش في قسم، حركة زي دي لو اتكررت تاني هحبسك، فاهم؟

الأمين يومئ برأسه خوفًا، بينما يلتفت "مجد" لمجموعة المساجين المكلبشة أيديهم في بعضها، ويتجهون لداخل المحكمة، وينادي على أمين الشرطة الذي يقودهم بنبرة صارمة قوية، في حين أمسكت يده بالمرأة العجوز لتساعدها على الوقوف:

— استنى يا ابني.

ليتوقف مع صيحته مسير صف المساجين، بينما يلتفت أمين الشرطة لـ "مجد" بقلق:

- أؤمر يا فندم.

دون أن يجيبه "مجد" بحرف، وهو يأخذ بيد المرأة العجوز، ويجعلها تقترب من ابنها، قائلًا:

- سلِّمي على ابنك يا أمي.

فتحتضن المرأة العجوز ابنها، مُنهارةً، ويُقبِّل كلٌّ منهما يد الآخر، لينكسر تماسُك الابن ويبكي بنحيب، بينما يشيح "مجد" بعينيه بعيدًا قبل أن يتسلل إليهما الدمع، ثم يتجه إلى داخل المحكمة.

بعد كل هذه السنوات في العمل القانوني، لا يزال داخله قلب طفل، ولسوء حظه فإن سجَّان الدمع الواقف على جفنيه لا يقوم بدوره على أكمل وجه، لتهرب منه كثيرًا دموع حبيسة تُلقي بنفسها على وجنتيه في أقرب موقف إنساني!

داخل المحكمة تقع عينه من جديد على نفس الجدران المتهالكة بفعل ذلك الحريق الذي طال المحكمة يوم جمعة الغضب في الثامن والعشرين من يناير، بعد أن شبَّ الحريق في قسم الأزبكية الكائن بجوارها ليمتد إليها دون أن يطفئها أحد، في ظل الانسحاب الأمني التام.

الفوضى المقززة، والزحام الخانق، الأرضية ذات البلاط القذر، ورائحة البول المتسللة من الحبسخانة الموجودة في الطابق الأرضي لوضع المساجين فيها، المحامين الأرزقية الذين جاءوا لتلقيط أكل عيشهم والبحث عن متهم أخذته الشرطة من الدار للنار دون أن يجد الوقت الكافي لانتداب محام يدخل معه إلى وكيل النيابة.

وفي ظل نظرات عينيه التي لم تعتد بعد على هذا المشهد المقزز رغم مرور تلك السنوات من عمله في هذا المكان، عاد "مجد" ليسأل نفسه مجددًا سؤالًا يعلم مسبقًا أنه سيظل بلا إجابة.

«كيف تقول العدالة كلمتها في هذه الأجواء؟»

وفي غمار حالة السرحان التي تنتابه كلما دخل المحكمة، عاد طابور المساجين ليتقدم مرة أخرى إلى داخل المحكمة، والمرأة العجوز تجري خلف ابنها، بينما يسير "مجد" نحو السلم قبل أن يعترض طريقه "أُبيّ"!

الآن أصبح ابن خالته وصديق عمره وكيلًا للنائب العام، بنفس الملامح، ونفس البدانة، غير أنه أصبح يرتدي نظارة طبية أضافت لهيئته الوقار الذي أكدته بدلته الفاخرة ذات المقاس الـ XXX LARGE، لكنها السُّمنة التي تُضفي في الوقت نفسه مهابة يؤكدها بريق عينيه خلف نظارته الطبية، حتى إن ابتسامته لـ"مجد" كانت ذات طلة مميزة تجمع بين البشاشة والشخصية القوية، وهو يقول بنبرة صوت هادئة لا تخلو من المرح:

- مش ناوي بقى تبطل تعقدني وتركب الأسانسير معايا؟ ده انت بقيت قاضي قد الدنيا!

ينظر له "مجد" بابتسامة طفل، ويُجيبه:

— لما أتخن وأتختخ زيك ساعتها ممكن أفكر، وبعدين عمري ما هاحِسّ بالعدل وإحنا بنركب أسانسير خاص بينا لوحدنا، وبقيت الناس بتطلع على السلم، يا إما بيتحشروا في أسانسير تاني مبهدل.

بابتسامة شابها الغرور والكبرياء ردَّ "أُبيّ":

— ما تنساش إن أي واحد من الناس العادية لما ييجي يتكلم بيقول أنا، لكن الواحد مننا لما ييجي ينطق بيقول قررنا نحن...

يتأمل "مجد" عينيه ويسبر أغواره وهو يضغط على حروف كلماته قائلًا:

— وعشان "قررنا نحن" دي بتوجعني أوي وساعات كتير بتحاول تلعب في دماغي، طول الوقت بحسس نفسي إني أقل واحد في الدنيا.

— أقل واحد؟ إيش حال انت عندك ملف الأكبر منك بعشر سنين ما عملهوش من أيام ما كنت ظابط، ده غير إن قضيتك الأخيرة خليتك بطل وكل وسائل الإعلام كتبت عنك أكتر ما بتكتب عن عمرو دياب ذات نفسه!

يتسلل التأثر لملامح "مجد" وهو يقول بخفوت وحزن:

- ما تنساش إن اللي شوفته برضه مش شوية.

- خليك مؤمن يا مجد وقول الحمد لله.

- ونعم بالله

في تلك اللحظة ينفتح باب "أسانسير" القضاة ليلمحه "أُبيّ" قبل أن يقول لـ "مجد":

— الأسانسير وصل، ما تيجي تركب معايا.

إلا أن "مجد" يقبض على يده ويجذبه ليصعد معه السلم قائلًا:

— بما إنك قلبت عليَّ المواجع، عقابك إنك هتطلع معايا السلم...

* * *

على سلالم المحكمة يصعد "أُبيّ" كالجبل المترنح لحظة قيام الساعة، ليقول لـ"مجد" بابتسامة مُنهكة:

— بقى من أولها كده؟ أول حكم تحكمه يكون على ابن خالتك؟ لأ وإيه حكم بالإعدام!

ليجيبه "مجد" بمرح ودعابة:

— يا ريت كان بإيدي، بس أنا لسه قاضي جنح.

مع صعودهما نلحظ احتراق الدورين الأول والثاني بالكامل

دون أن تمتد إليهما الإصلاحات والترميمات بعد، وفي الدور الثالث ينحرف "أبيّ" يمينًا وهو يتجه نحو أسانسير القضاة بعد أن بلغ به الإجهاد مبلغَه، لتظهر في الخلفية ملامح الفوضى والانفلات داخل أروقة العدالة، قبل أن يمرّا على مجموعة من المتهمين على الأرض وفي أياديهم الكلبشات، يتبادلون جميعًا سيجارة واحدة، في حين يقول "مجد":

— بيني وبينك عايز أفضفض معاك شوية، انت عارف الرول النهارده فيه كام قضية؟ 218، ما بين سرقة بالإكراه، ونشل، وخناقات، ده غير جرائم إلكترونية وتعدّي على ممتلكات الدولة.

قبل أن يعلق "أبيّ"، يمر كلاهما أمام خناقة بين مجموعة أخرى من المتهمين يتبادلون الضرب مع بعضهم، ويتدخل أهلهم في الخناق ويتحول الأمر إلى فوضى تدفع العساكر وأمناء الشرطة للتدخل في محاولة يائسة لفض الأمر، في حين يطير أحد الأشخاص نحو "مجد" و"أبيّ" بعد أن تلقّى ركلة قوية، ليتفرق "مجد" و"أبيّ" حتى يمر من بينهما، قبل أن يسأل "أبيّ" معترضًا:

- عاجبك كده؟

فيُجيبه "مجد" دون أن يفهم مغزى سؤاله:

— لأ طبعًا مش عاجبني، بقول لك 218 قضية، يعني هَمّ ما يتلَمّ، وكان قدامي فترة قصيرة جدًا عشان أقراهم وأجهز الحكم فيهم، هجيب منين وقت للقراءة وأقل قضية فيهم 300 ورقة؟ ده كله كوم وكتابة حيثيات ومسببات الحكم كوم تاني، وأنا بتناقش مع زمايلي لقيت إن قضاة منهم مش عارفين لو حكموا في كل القضايا اللي عليهم هيلحقوا يكتبوا الحيثيات إمتى وفي وقت قد إيه، لدرجة إن بعضهم بيضطر كل مرة يأجل القضية يمكن تتحل لوحدها!

الآن نرى أحد موظفي التصوير يقوم بتصوير قضية ضخمة على

آلة التصوير، وأمامه أحد المحامين، ويقف خلف المحامي طابور طويل عريض، ويمد كل منهم يده بالقضية تجاه موظف التصوير.

ينهج "أبيّ" ويتصبب عرقًا، بينما يتابع "مجد":

— تفتكر الكام ساعة اللي بنشتغلهم هنا هيكفوا تقرأ فيهم إيه ولا إيه؟ وحتى لما باخد القضايا معايا البيت وأقعد في حضرة الكتب والمراجع القانونية عشان أعرف أفحص كل قضية على رواقة، ساعات كتير مش بلاقي وقت، ده غير إنك بشر وعايز تنفّس عن نفسك ومستحيل تبقى حياتك كلها شغل وبس.

يبدو الملل على ملامح "أبيّ" ليرد بلا مبالاة:

— مش دايمًا كل قضايا الرول بيحضر فيها كل المتهمين، وساعات كتير بيغيب 50 في المية منهم وينطسوا أحكام غيابية، والخمسين في المية التانيين من القضايا ساعات كتير بيكون معظمها شيكات بدون رصيد ووصولات أمانة، ودي مش محتاجة مجهود كبير في كتابة حيثياتها وبيبقى لها اسطمبة ثابتة في الحيثيات بتحطها زي ما هي، وفي الآخر يتبقى لك كام قضية جامدة هي اللي بتحتاج لتقرير طويل شوية في الحيثيات والمسببات، وبعدين القاضي مش المفروض يبقّق عينه في كل قضية ويقرأ الـ 300 أو 400 ورقة، كفاية عليه يقرأ التوصيف النهائي اللي بيحطه وكيل النيابة في نهاية كل قضية، وده ما بيكملش سطرين تلاتة.

يرتسم التحفز على ملامح "مجد" وهو يقول بتحدٍّ:

— كلامك بيعبر عن الحلول السهلة اللي الأغلبية شغالة بيها عشان تريح نفسها، لكن أنا اللي شاغلني هو الوضع المثالي اللي المفروض نشتغل بيه عشان يتلغي المثل اللي بيقول "ياما في الحبس مظاليم"، أنا معاك إن ساعات كتير بيغيب متهمين وساعات كتير بتكون القضايا شيكات بدون رصيد، بس دي مش قاعدة ثابتة تقدر تبني

شغلك عليها، وبعدين لو هكتفي بتوصيف وكيل النيابة اللي بيكون مجرد سطرين تلاتة، يبقى إيه لزومه أسمع مرافعة المحامي ما دام كل حاجة متحددة من الأول؟

يتوقف "أبيّ" أمام باب أسانسير القضاة، ويُكمل كلامَه وهو ينهج دون أن يتحرك قيد أنملة:

– ما هي دي الفكرة، إحنا كوكلاء نيابة بنكتب توصيف الاتهام بناء على القانون، وندي في نفس الوقت الفرصة للمتهم إنه يثبت براءته بناء على مرافعة المحامي اللي فاهم في القانون، وانت تصدر حكمك بناء على مواد وأحكام القانون.

– وفين الوقت اللي هتسمع فيه مرافعة 218 محامي في 218 قضية لو ماحدش من المتهمين غاب؟

– ما انت مش لازم تسيبهم يرغوا، كل واحد يختصر في مرافعته.

– الاختصار أوقات كتير مش بيكون في مصلحة المتهم.

– عادي بقى، اللي هيتحكم عليه حكم مش عاجبه يقدر يستأنف.

مع آخر حروف "أبيّ"، ارتسمت الصدمة والضيق على ملامح "مجد"، في حين استعاد "أبيّ" صرامته ورباطة جأشه بعد أن جفَّف عرقه، قبل أن يقول له "مجد" باستنكار:

– بتتكلم ببساطة كأن مصاير الناس اللي ربنا وضعها بين إيدينا مجرد لعبة!

– انت بتقول فيها؟ كلنا أصلا عايشين في لعبة، وبعدين اللي هينفد من سجن الحكومة عمره ما هيهرب من سجن الدنيا اللي كلنا مرمين فيه، سيبك من المثالية يا مجد انت مش ربنا، اللي مكتوب له حاجة هيشوفها.

تتسع عينا "مجد" في ذهول غير مصدقٍ ما يسمع، وقد كذَّبت كلمات "أبيّ" كل القيم والمبادئ التي تربى عليها وحلم أن يكون أداةً لتحقيقها، في حين يؤكد الواقع أنها الحل المتاح، إن لم يكن المثالي!

كان "أبيّ" ينتمي لمدينة الواقع، الذي اعتاد فيه أن يجلس بمكتبه ملكًا يهابه الجميع، ليخر أمامه عتاة الإجرام في ذل وهوان، باحثين عن الحرية التي لا يدرك ثمنها إلا من أحاطت بيده الأساور الحديدية، وترتعد بين يديه فرائص رجال الداخلية مهما علت أكتافَهم النجوم والنسور، أو حتى السيوف، ليتحولوا أمامه إلى قطط أليفة متناسين زئير ملك الغاب الذي يطلقونه في أقسام الشرطة، في حين تنتشي نفسيته دومًا بنظرات الخوف والمهابة التي تُطل من أعين الجميع فور علمهم بمنصبه، دون أن يسحب يده عندما تنكب عليها الأفواه لتطبع عليها قُبلات التوسُّل والتسوُّل!

امتلأ مكتبه وشقته بعشرات الهدايا والعروض المغرية التي لم يرفضها يومًا، دون أن تؤثر على احترامه للقانون وتطبيقه على الجميع، حتى إنه لا يجد حرجًا في أن يبيع أصحابها عند أقرب محطة إذا ما خالفوا القواعد والقوانين، دون أن تشفع لهم أي هدية أو صِلة صداقة وقت الجد، مانحًا إياهم جميعًا إجابةً موحدةً بأكثر لهجات الكون نذالةً "أنا ما أعرفكش". ليقف دومًا في تلك المنطقة الرمادية التي تؤكد نزاهته ودهاءَه في آن واحد، وقد تعود أن يكسب كل المزايا والهدايا، قبل أن يجدد قائمة معارفه بالحذف والتعديل مرارًا وتكرارًا في كل فترة، حتى يمتص الخيرات إلى آخر رمق، ثم يلفظ من جف ضرعه ولم يعُد به ما يكفي للحلب!

أما "مجد" فجاء من مدينة السماء التي لم يزرها يومًا، لكنه عاش عمره كله مرتبطًا بها، متمنيًا أن يحقق عدالتها وقواعدها على الأرض، ليتمرد على منصبه الرفيع الذي طالما حاول كل من

حوله التقرب [illegible] ليحظى بنفحة من نفحاته، أو على الأقل ينال التقرب منه نفو[illegible] يُخب[illegible] خصومه، فكانت النتيجة أنه عاش وحيد بلا صديق قد يطلب منه واسطة ذات يوم، أو قريب قد [illegible] القانون على حسه!

وبعد لحظات من الصمت، عاد "مجد" ليسأل مغيرًا دفة الحديث:

– انت وقفت هنا ليه؟

ليجيبه "أُبيّ" بمرح:

- أرجوك يا سيادة القاضي، اسمح لي أستأنف حكمك، ماليش مزاج أتعدم النهارده.

– خلاص براءة.

– مش كنت كملت معايا في سلك النيابة وفضلنا مع بعض بدل ما تحول لسلك القضاء؟

– ما انت عارف إني بحلم من يوم ما حولت من الشرطة للنيابة إني أشتغل مع والدك المستشار حسام البسطاويسي، عشان كده أول ما كملت التلاتين سنة حوّلت على طول من وكيل نيابة لقاضي، وكلها كام شهر وأتنقل معاه في محكمة جنوب القاهرة عشان ندخل بقى على الجنايات والشغل التقيل، هناك مفيش رول فيه 218 قضية.

"أُبيّ" ساخرًا:

– إذا كان على سيادة المستشار فكفاية عليّ إني معاه في بيت واحد من يوم أمي الله يرحمها ما توفت، وإذا كان على رول القضايا القليل في الجنايات، فيا ريتك تلاحق عليه، هناك القضايا بحق وحقيقي مش تهريج زي هنا.

عند هذه اللحظة يصل أسانسير القضاة ووكلاء النيابة، ليُفتح الباب ويخرج منه رجل عجوز بسيط الملابس والملامح، فيركب "أُبيّ" وهو ينظر لعامل الأسانسير بغضب ويسأله:

- مين الأخ ده؟ وإيه اللي ركبه في الأسانسير بتاعنا؟

فيجيبه عامل الأسانسير بتلعثم وارتباك:

– ده راجل عجوز يا فندم وقع في عرضي، وعنده أمراض كتير، كبد وسكر و....

"أُبيّ" مقاطعًا بامتعاض ممتزج بالتأثر:

– خلاص خلاص، ربنا يشفي كل مريض.

ثم يدخل "أُبيّ" الأسانسير ويلتفت لابن خالته بابتسامة هادئة، إلا أن "مجد" يصفعه بقوله:

– مهما كان الفرق بين الملك والعسكري في الشطرنج، الاتنين في النهاية بيجمعهم صندوق واحد.

فتتحول ابتسامة "أُبيّ" إلى الوجوم، قبل أن يُغلَق باب الأسانسير، بينما يواصل "مجد" المسير بملامح خطها الحزن، قبل أن يرى في الطرقة قهوجيًا يحمل صينية بها أكواب الشاي ليعطي واحدة منها لعسكري يجلس على الكرسي، وقد جلس على الأرض بجواره رجل متهم مقيَّد بيده، يرتدي جلبابًا، تُقسم ملامحه بأغلظ الأيمان أنه صعيدي لم يتسخ بعد بوساخات المدينة والمدنية، في حين يقول القهوجي للمتهم الصعيدي مشيرًا للعسكري:

- الباشا شرب كوبايتين شاي وواحد قهوة، إيدك على 3 جنيه ونص.

الرجل العجوز يقول بلكنة صعيدية تملؤها الحيرة:

– وأنا أدفع حجّهم ليه؟ مش هو اللي شرب؟

القهوجي:

– مش تهمتك هي اللي خليته ييجي معاك هنا عشان يشرب؟

خلصني وادفع بدل ما أخليه يروقك على الصبح.

يُخرِج المتهم من جيبه عُملة معدنية يُعيطها للقهوجي بمضض، بينما يقوم العسكري بشفط الشاي بصوت مقرف دون اكتراث، قبل أن يُغمغم الصعيدي المتهم بحسرة ويأس:

- فتحنا كشك جفلوه، وجفنا على الرصيف خدوا منّا البضاعة، جينا يتحجج معانا دفّعتونا المشاريب، حرام عليكم بجي، ده إحنا طالع ديك أبونا.

في اللحظة نفسها التي يرن فيها محمول "مجد" ليُخرجه من بدلته، ويتأمل الشاشة التي تزيّنها جُملة «Private Number»...

* * *

في ذلك المبني الذي شهد أشهر الصراعات السياسية بين رجال القضاء في مصر، سار "مجد" بخطوات سريعة بعد انتهائه من رول المحاكمات، متجهًا لمكتب المستشار "أحمد العبد"، وما إن وصل إلى السكرتارية حتى قال للموظف بضجر كمن يريد ابتلاع الثواني التي تفصله عن اللقاء:

— القاضي مجد الدين مهران، سيادة المستشار منتظرني.

- ثانية واحدة يا فندم.

قالها السكرتير وهو ينهض من مكانه ليدخل مكتب رئيسه، قبل أن يخرج ويُشير لـ "مجد" بالدخول قائلًا:

— اتفضل.

يدخل حُجرة المستشار "أحمد العبد"، الذي تبدو خلفه لوحة مكتوب عليها «العدل أساس الملك»، في حين ينهض رئيسه لتحيته بملامح مقتضبة:

— أهلًا يا مجد، اتفضل استريح.

يجلس "مجد" أمامَه في حين يلتقط المستشار عُلبة السيجار ويسحب منها واحدًا يُشعله، دون أن يعزم على "مجد" قائلًا:

- طبعًا انت ما بتدخّنش.

يهز رأسه نافيًا باقتضاب، وفي عينيه نظرة فضول وترقُّب، فيتابع المستشار بنظرة إعجاب تخرج من عيني ثعلب:

- شخصيتك المثالية دي عاجباني جدًا.

ثم يميل نحو "مجد"، ويقول بلهجة ذات مغزى:

- مع إنها ممكن تكون خطر في أوقات كتير، على نفسك قبل ما تكون على غيرك.

يُدرك "مجد" أنها مقدمة لمشادّة كلامية ستحدث بعد ثوان، فيبتسم بمكر مماثل قائلًا:

- الخطر كده كده موجود يا فندم، حتى لو ماشيين جنب الحيط...

يرفع المستشار سبابته بصرامة ويتوقف عن الكلام لجذب الانتباه للكلمات القادمة، ثم يتابع:

— كل حاجة في الدنيا لازم يكون لها حدود، حتى الحماس والإصرار، ده اللي عايزك تتعلمه في المرحلة الحرجة اللي البلد بتمر بيها دلوقتي، عقد البلد بينفرط، عشان كده محتاجين اللي يلم حبّاتها ويلزّقها جنب بعض، مش اللي يعمل نفسه بطل على حسابنا.

يلتقط "مجد" نفسًا طويلًا وهو يتطلّع لعيني المستشار قبل أن يتساءل بلهجة حاول أن تخرج باردةً:

— أقدر أعتبر التحذير ده مكافأتي على كشف قاضي مرتشي باع ضميره وخد رشوة من رجل الأعمال قابيل الهراس عشان يخرّجه من قضيته زي الشعرة من العجين؟

ينفث المستشار دخان سيجاره قائلًا ببرود مماثل:

— مكافأتك انت خلاص خدتها، وصورك في كل جرايد ومجلات

مصر، ده غير تكريم وزير العدل.

فيجيبه "مجد" بتحفُّز:

– أنا لما عملت اللي عملته كنت بأدّي واجب مش عايز من وراه أي مقابل، غير إني أحس إن مبادئ العدل اللي بنطبّقها على الناس بتنطبق علينا قبلهم، مش نفضل قدامهم على راسنا ريشة واللي يغلط ما يتحاسبش.

يُشير بيده إلى لوحة **"العدل أساس الملك"** المعلقة خلفه دون أن ينظر إليها متابعًا:

– من غير ما تـقول، قضاء مصر طول عمره مضرب الأمثال، من قبل حتى ما جدّي وجدّك يتولدوا.

شبح ابتسامة ساخرة يُداعب شفتي "مجد"، قبل أن يختفي سريعًا حين يتحرك لسانه قائلًا:

– مع إن القاضي اللي حكم على الفلاحين الغلابة بالجلد والإعدام في مذبحة دنشواي مثلًا كان قاضي مصري، واللي حكم بالبراءة على مساعدي حبيب العادلي والضباط اللي قتلوا الشهداء كان قاضي مصري، واللي...

فيهبّ المستشار واقفًا ليقاطع "مجد" وهو يضرب سطح مكتبه بقوة صائحًا:

– مـجـد...

إلا أن "مجد" يتحول من الهدوء إلى الصرامة والحزم، وهو يقف بدوره متابعًا:

– القضاء يا فندم زيه زي أي مجال في الدنيا، محتاج للرقابة والإصلاح، وما تنساش حضرتك إننا في ثورة، يعني لازم كل حاجة في البلد يتعاد فيها النظر، ويبقى بيضحك على نفسه اللي فاكر إن الفساد دخل كل مؤسسات الدولة من غير يدخل المؤسسة القضائية، المجلس الأعلى للقضاء عنده ودائع بالمليارات في البنوك، وعن كل ورقة وكل قضية بننظر فيها بناخد نسبة فلوس من المطالبات القضائية في بلد مافيهاش أكتر من القضايا، شوف بنحصّل من الشعب قدّ إيه، ورغم كل ده لسه فيه محاكم محتاجة تتبني، ومحاكم مبنية محتاجة تتأهل، وموظفين في وزارة العدل بياخدوا مكافآت بالملاليم تخليهم يكرهوا شغلتهم وما يشتغلوش بضمير، في الوقت اللي فيه قضاة ومستشارين بياخدوا ألوف مؤلفة، ده غير شباب زي الورد خريجين حقوق يستحقوا إنهم يتعينوا بتقديراتهم العالية بس غيرهم هو اللي بيحل مكانهم عشان أبوه أو عمه أو خاله مستشارين، وغيره وغيره من العيوب والبلاوي اللي في قضائنا الشامخ النزيه، إحنا بنكدب على الناس ولا على نفسنا؟ النظام نفسه غلط ولازم يتصلح.

عندها تتسع عينا المستشار "العبد" غير مصدّق ما يسمع، قبل أن يلوِّح بسبابته في وجه "مجد" قائلًا بلهجة بدت أضعف من سابقتها:

– أنا بحذرك يا مجد...

ثم يتابع بلهجة بدت هادئةً تمامًا كأب يتحدث مع ابنه:

– القضاء هو آخر مؤسسة ساندة البلد دلوقت، لو الناس فقدت ثقتها فينا، والقضاة والمستشارين تعبوا من الهجوم اللي نازل عليهم وقرروا يمتنعوا عن العمل، ماحدّش هيفصل بين الناس لما تختلف والبلد هتتطربق على دماغتنا كلنا وهنتحول لغابة، انت لسه ابن امبارح وخبرتك مخلياك باصص تحت رجليك ومش شايف اللي هيحصل كمان كام خطوة، عشان كده أنا طلبت أقابلك النهارده وأفهّمك بشكل ودّي...

ثم تنقلب سحنته وهو يشحن كل طاقات الغضب والصرامة في كلماته قائلًا:

— لو قلت كلام زي ده تاني للصحافة، التفتيش القضائي هايتخذ إجراءاته معاك.

إلا أن "مجد" لم يتراجع أمام الوعيد، ليقول بصرامة الكون:

— التفتيش القضائي نفسه محتاج يتعاد فيه النظر يا فندم، إزاي وزارة العدل التابعة للسلطة التنفيذية هي اللي بتشرف على التفتيش القضائي وممكن تعاقب أي قاضي؟ معنى كده إن الأدوار اتعكست، وبقت السلطة التنفيذية هي اللي ممكن تعاقب السلطة القضائية وتقدر تتحكم فينا وتحاكمنا بدل ما إحنا اللي بنحاكمها، طب تيجي إزاي دي؟

يرمقه المستشار بنظرة نارية دون أن ينبس ببنت شفة، قبل أن يتابع "مجد":

— يمكن يا فندم أنا سنّي صغير وخبرتي مش كافية، لكن الحاجة اللي شايفها منطقية هقولها ويا مرحب بالنقاش مع أي حد عنده اعتراض، ومستعد أتحمّل تبعيات ده للنهاية.

في هذه اللحظة يُفتح الباب ويدخل رجل فارع الطول عريض المنكبين في الثلاثينيات من عُمره، يرتدي بدلة ذات قميص مفتوح له طابع أسباني بلا رابطة عنق، ونظرة شمسية Ray ban عدساتها البُنية نصف الشفافة تُظهر خلفها عينيه العسليتين، وقد صفَّف شعره الناعم متوسط الطول على الجانب الأيمن، وما إن يراه "مجد" حتى يتبادلا النظرات بدهشة، قبل أن يقول الرجل وهو يمد يده مصافحًا بابتسامة ودودة:

— إزيك يا مجد؟

فيتساءل "مجد" بدهشة:

— الرائد أمل؟ انت كمان حوّلت من الداخلية للقضاء ولا إيه؟

عندها تتسع ابتسامة "أمل" قبل أن يقول:

— فيه أسباب تانية تخلّي ظابط زيي ييجي هنا يا مجد، منها إن سيادة المستشار يكون والدي.

ينظر "مجد" للمستشار بدهشة، بينما يقول "أمل" بابتسامة مرحة، وحروف بطيئة:

- أنا اسمي أمل أحمد العبد، ودلوقت بقيت مُقدِّم بالمناسبة.

يركز "مجد" على اسم "المستشار أحمد العبد" المكتوب على مكتبه، ثم يقول بنبرة خبيثة:

— تحياتي لابن سعادتك يا فندم اللي دوره هو كمان يراقب من أيام ما كان ظابط في أمن الدولة، قبل ما يلغوها...

فيُجيبه المقدِّم "أمل" بابتسامة ساخرة:

— ومين قال إن أمن الدولة اتلغت؟ إحنا بس غيّرنا اسمها وخليناها الأمن الوطني عشان تبقى شيك وتليق على الثورة.

يوزع "مجد" نظراته بين "أمل" ووالده قبل أن يتابع:

- مش مهم المسميات، المهم إن كل واحد يعمل الصح... عن إذنكم.

يفتح الباب وينصرف.

* * *

في كواليس المسرح الكبير بدار الأوبرا المصرية نرى "براء" الصحفي ذا الجسد الرفيع الذي يُذكِّرك بالمكرونة الاسباجتي، غير أنه متوسط الطول، قمحاوي اللون، ذو ملامح وجه متحفزة، وقد برزت عظمتا

الوجنتين بشكل أكسبه المزيد من الصرامة، بينما يُطل من عينيه البريق الذي يؤكد ذكاءه، وزاد شعره الخشن من جاذبيته على طريقة الرجل الشرقي، وقد صار كطاووس يظن أنه ملك الغابة، وهو يتقدَّم نحو زميلته "رحمة" بوجهها المستدير الخمري ذي الملامح الطفولية، وعينها التي يقف لونها بين الرمادي والزيتي في درجة تعجز كل عدسات الدنيا اللاصقة أن تبلُغها، وقد انسدل شعرها الكستنائي الفاتح شديد النعومة على ظهرها، ووصل طوله إلى مؤخرتها ليغطي جسدها الضئيل القصير، المتناسق كما يقول الكتاب، بشكل زاد من رقتها وجمالها، وجعلها أشبه بحورية من أهل الجنة لم ترها عيناك من قبل، لكنك على الأقل تتصورها هكذا في خيالك، بفارق أن الحوريات لسن بمكفوفات، وأكد ملائكيتها ذلك الفستان الأبيض الذي ترتديه وهي تسير وسط زملائها المكفوفين الذين يتجهون لصعود المسرح. عندها اعترض "براء" طريقها ليمسك يدها ويقول بابتسامة رقيقة، ناظرًا لها برومانسية وكأنها تراه:

- ماقدرتش أستنى لغاية ما تطلعي خشبة المسرح.

فور سماع نبرة صوته القوية، ترتسم السعادة على ملامحها رغم نظرة عينيها الجامدة، لتتساءل بفرحة:

- براء؟

فيتأملها في فستناها الأبيض الذي تشارك به في العرض المسرحي لفرقة "أحلى بكرة" التي أسستها، قبل أن يقول بحنان:

- فستانك الأبيض ده خلاكي اسم على مسمًى، رحمة وانتي رحمة فعلًا.

لتجيبه بابتسامة خجولة:

— ادعي لي يا براء عشان مرعوبة، انت عارف أنا والفرقة تعبنا قد إيه في البروفات.

- اللي خلاكي في سنين بسيطة تعملي اسم كبير في الصحافة، قادر يخلي فرقتك تفوز بالمركز الأول.

"رحمة" بسعادة:

— المركز الأول مرة واحدة؟ ده إحنا لسه في التصفيات الأولى.

تشبثت أصابعه بكفها الرقيق بحنان أحدث أزمة في المخزون العالمي من المشاعر والحب، وهو يهمّ بالسير بها حتى يوصلها إلى خشبة المسرح، خاصة وقد اختفى كل زملائها المكفوفين الذين سبقوها للمسرح، قائلًا بحزم:

— طب يالّا عشان ما تتأخريش.

إلا أن "رحمة" تـتـسمَّر في مكانها، قائلةً بحرج:

— انت عارف إني بحب أوصل لوحدي من غير مساعدة.

وما إنْ تهمّ باستكمال السير حتى تتعثر فيُمسكها "براء" فورًا، لترتسم على ملامحها ابتسامة حزينة غزاها الحرج الذي حاولت أن تطرده من نبرتها الجريحة وهي تقول:

— بس للأسف مابعرفش، كان نفسي أبقى زي المكفوفين اللي بيطلعوا في السينما، شايفين كل حاجة بقلبهم وعارفين سِكتهم، لكن الواقع مختلف.

ينظر لها بتعاطف، ثم يكمل السير معها وهو يمسك يدها باهتمام فارس بجواده، وقد تناسى تمامًا إحراجها له، حيث لا مكان في قلبه وكيانه تجاهها سوى الحب وحده، وليكن ما يكون.

* * *

على المسرح الكبير بالأوبرا نسمع موسيقى «روك آند رول» كمقدمة لأغنية «كله جاي» التي تغنيها فرقة «أحلى بكرة» بصحبة "رحمة" التي تعزف على الكمان، ونجدها مندمجة في العزف مع

إيقاع الأغنية التي تقول كلماتها:

كله جاي في السكة يمكن، لسه مش وقته الأكيد

بس كاميرة حلمي عاملة زوم على بكرة البعيد

شايفة صورة جميلة، عينكوا صعب دلوقتي تشوفها

حاسّة لمسة حلم طاير جاي يشرب من كفوفها

سامعة صوت ثاير وفاير، ماشي يهتف بين صفوفها

إحنا من ثورة يناير، حلمنا غيّر تاريخها

والتمن دم الشهيد، والتمن دم الشهيد

نلاحظ أن الفريق كله من المكفوفين المهرة في العزف والغناء، وبمجرد الانتهاء من الأغنية يصفق الجمهور بحرارة، ثم يدخل مذيع الحفل، من أحد جانبي المسرح ويوجه كلمته للحضور قائلًا:

– والآن، وبعد أن استمعنا واستمتعنا بعرض فرقة «أحلى بكرة» الغنائية في مسابقة أفضل نشاط شبابي عالمي للمعاقين، بين مختلف شباب العالم على مستوى 108 دولة تحت رعاية وإشراف منظمة الثقافة والتربية «اليونسكو»، نستمع إلى كلمة رحمة البدري قائدة الفرقة، وصاحبة العديد من الأنشطة الثقافية والفنية من خلال جمعيتها الخيرية التي تحمل اسم «أحلى بكرة» أيضًا.

تصفيق حاد من الحضور، بينما يقترب المذيع من "رحمة" ويعطيها المايك، فيبدو الحرج والخجل على ملامح وجهها، ثم توجه نظرها للجمهور وكأنها تراهم قائلةً:

– مساء الخير، في الحقيقة أنا شايفة نفسي النهارده محظوظة أكتر من اللازم، وحاسة إن الكلام تايه مني ومش عارفة أبدأ إزاي، كل ما في الأمر إن أنا وبقية الفرقة آمنّا إننا عندنا حلم يستحق نتعب ونجتهد عشان نحققه، جايز يكون ربنا حرمنا من نعمة البصر،

لكن في نفس الوقت زرع فينا نعمة البصيرة، من هنا كان حلمنا إننا نثبت للناس إن كلمة أعمى مش عيب أو شتيمة، بل إن الأعمى ده في أوقات كتير بيكون شايف أكتر من المبصرين نفسهم، وعشان الحلم ده يتحقق كان مطلوب منا إننا نكون زي باقي الناس، نكوّن فرق موسيقية ونغني للحياة، ندور على رياضة نلعبها، نشارك في الحياة السياسية والاجتماعية، وطبعًا كنا محتاجين للتمويل المادي، عشان كده ما ترددش لحظة واحدة إني أساهم بجزء كبير من ميراثي في تركة والدي الله يرحمه.

تسرح "رحمة" لحظات بدت طويلة للحضور، دون أن يدركوا أن عينيها الجامدتين تتذكر ذكريات أليمة، قبل أن تهز رأسها بقوة وهي تأخذ نفسًا عميقًا ثم تعاود الكلام:

– وقبل ما أتشرف النهارده بالوقوف قدام حضراتكم مشيت مشوار طويل ناس كتير كان ليهم فيه الفضل عليا، سواء عمي الدكتور رءوف البدري، أو الأستاذ جلال العوامري رئيس تحرير جريدة المستقبل، اللي وافق على إننا نعمل في الجورنال صفحة بتتطبع بطريقة برايل للمكفوفين، ده غير إنه بينزّل مع العدد الأسبوعي للجورنال CD فيه مادة صوتية لأهم الأخبار والموضوعات عشان تساعدهم في المتابعة، وأحب أأكد لكل السادة الحضور إني جزء صغير جدًّا من فريق كل أعضائه بيتمتعوا بحماس وإصرار مالوش حدود، وهنكمل حلمنا لحد الآخر إن شاء الله. شكرًا...

ليعود الحضور إلى التصفيق بحرارة شديدة.

* * *

في قرية سياحية خاصة ذات شاطئ VIP بالساحل الشمالي، وقف على بوابة القرية من الخارج رجل أمن يحاور صديقه قائلًا:

– مين يقول إن النجاسة اللي جوّا دي بتحصل في بلد رئيسها جاي

يحكم باسم الدين؟

لينظر زميله حوله حتى يتأكد أن أحدًا لا يتابع كلامهما، قبل أن يقول:

— وطّي صوتك يا بني آدم، لو مش خايف على نفسك خاف على عيالك، انت عارف كويس إنهم أقوى من الريس والحكومة، يعني لو فرموك مالكش دية.

— ومين قال إني فارق معايا أعيش في بلد زي دي؟ إذا كانت الثورة والشباب اللي مات ما غيروش حاجة، ولسه النجاسة والوساخة زي زمان وأكتر يبقى خلاص عليه العوض ومنه العوض، ده حتى القرشين اللي بنقبضهم مافيهمش بركة عشان ربنا مش مبارك.

— وهو فين ربنا أصلًا؟ لو كان موجود همًّا أجمد منه.

— أستغفر الله العظيم، انت هتكفر؟

— لأ انت اللي عبيط عشان لسه مصدق إنه موجود، الواحد كان كاتم في نفسه وساكت لكن طالما فتحتني يبقى لازم تسمعني للآخر، تسمح تقول لي هو ساكت ليه على حقوق الغلابة اللي بتضيع، وفـُجر الناس الكبار اللي عملوا ذنوب أكبر بكتير من قوم لوط من غير ما يخسف بيهم الأرض زي ما عمل زمان؟ كام واحد قتلوه وطلعوا زي الشعرة من العجين؟ وكم ست اتركبت غصب عنها من غير ما حقها يرجع لحد ما استحلّت الحرام وبقت مومس بمزاجها بدل ما يبقى غصب عنها؟ ربنا ده حدوتة ألّفها شوية ناس غلابة ما عرفوش يطولوا أبسط حقوقهم في الحياة، عشان يوهموا نفسهم إن ليهم سند هيجيب لهم حقهم في يوم مالوش وجود ومش هييجي أصلًا، لحد ما صدقوا الكدبة وبقت تتورّث من جيل لجيل، وفي الآخر الغلبان بيفضل غلبان والقوي بيفضل قوي، ما تكلمنيش عن عذاب القبر وحساب يوم القيامة طول ما أنا شايف إن مافيش حساب وعدل في الدنيا، ولا ربنا كان بيدمر الكفار والظَّلَمَة بتوع زمان بس، وحبكت يدي فرصة لولاد الكلب بتوع الزمن ده على قفا الغلابة اللي زيي وزيك؟

يُبهت رجل الأمن الأول أمام منطق صديقه الذي ألحدته الظروف، لكنه لم يجد ردًّا مناسبًا وقد ذاق معه في هذه القرية الويلات دون أن يجد بالفعل أدنى رد فعل للإله على كل هذه الشرور الكافية لإقامة يوم القيامة من وجهة نظره!

كانت القرية مملوكة لزوج ابنة مسئول كبير في جهاز المخابرات العامة، وجرت العادة على تأجيرها لأولاد رموز النظام البائد، ليقيموا فيها حفلاتهم الغنائية الماجنة دون ترخيص لإقامة هذه الحفلات، وفي كل حفل حدِّث ولا حرج عن كل أنواع الخمور التي يتم بيعها وتناولها ملء السمع والأبصار دون وجود تصاريح من شرطة السياحة وباقي الجهات المختصة.

في عهد حسني مبارك كان رجاله وأعوانه يؤجرون القرية ويقيمون حفلاتهم الداعرة، ودون الحاجة لأي تراخيص أو تصاريح ليعيثوا في تلك القرى فسادًا ويرتكبوا على شواطئها الخاصة كل ما يخطر في بالك من الموبقات، بطريقة تجعل من شواطئ العُراة الأجنبية أشبه بـ "رأس البر" و"جمصة" في الأخلاق والاحتشام!

وعلى أبوابها كان يقف رجال شرطة السياحة مكتوفي الأيدي أمام مخالفات القانون الذي هُتك عرضه، وتبعثرت مواده وأحكامه على عتبات كبائن "الناس الكبار" و"أولاد الذوات"، دون أن يجرؤ شرطيّ شريف أن يقول لكل هؤلاء الأبالسة: "كفى"، أو على الأقل ينظر لهم نظرة ضيق واشمئزاز تعبِّر عن أضعف الإيمان الكامن داخله، بعد أن تحوَّلت سطوة ونفوذ هؤلاء القوم، وقدرتهم على محو مستقبل كل من تسوِّل له نفسه أن يقف أمامهم إلى أسطورة

رفعتهم إلى مصاف آلهة الشر، مع الحرص على تدعيم ذلك بعدد من الضحايا "على الماشي" لإثبات قوتهم.

وبعد أن قامت ثورة يناير، ظلت هذه القرية بشاطئها الخاص دولة أخرى منفصلة عن الواقع المصري المشحون، واستمرت الممارسات والحفلات بنفس صورتها السابقة، على يد نفس الأسماء والشخصيات المعروفة بالاسم، سواء أولاد وزراء سابقين، أو لواءات ورُتب أخرى من حَمَلة النسور والنجوم الذين يفرضون سطوتهم، ويحيطون تلك القرية وقرى وشواطئ مُشابهة بسياج من السرية، وكأن ثورةً لم تقُم أو يردد شبابها الطاهر ذات يوم "عيش، حرية، عدالة اجتماعية"!

حتى في ليلة النصف من شعبان، ظلت تلك الحفلات الغنائية وما بها من شرب للخمور وممارسة للدعارة رغم حظر قانون السياحة لإقامة حفلات يتم فيها تناول الخمور في المناسبات الدينية.

ترك أهل هذه القرية لأصحاب اللحى مهمة قيادة مصر، وانفصلوا بدورهم ليديروا رعية جديدة من صاحبات "البكيني"، و"التكيني"، والـ "تان"، والـ "تاتوه"، دون أن يسبر مسئول مخلص أغوار هذا العالم ويكشف خباياه بشكل يمنع المفاسد ويعاقب المخالفين للقانون، لتصبح القرية جمهورية الأسرار الخاصة والشواطئ المميزة، التي ليس لقيادات البلد عليها أي سلطان!

ومن بعيد وقف رجلا الأمن يتابعان جلسة "آسر الهراس" على شاطئها الـVIP، مع صديقه الملياردير القطري "سالم الراشد" حيث يجلسان سويةً على كنبة نصف مستديرة تُطل على البحر، وحولهما ثلاث فتيات، سمراء من بورتريكو، وشقراء من بيلا روسيا، وخمرية ذات جسد ساحر وعينين خضراوين وشعر أسود طويل ناعم من البرازيل، في حين انطلقت موسيقى الهاوس الصاخبة في أرجاء المكان، ليقول رجل الأمن الناقم على الخلق والخليقة وهو يُشير بعينيه لـ"الهراس" الصغير:

— هنروح بعيد ليه، آدي واحد من الطواغيت آهو عايش قدامك في الجنة رغم إن اللي زيه مكانهم جهنم وبئس المصير، لو كان فيه جهنم أصلًا، أبوه اتمسك في قضية رأي عام ومع ذلك متنغنغ في السجن آشي أكل 5 نجوم، وتواليت مخصوص، وزنزانة مكيفة ولاب توب، وبلاوي تانية كتير، والتيس الصغير ابنه بقى قُرني بيتاجر في النسوان الأجانب، ده غير إنه مهرِّب دولي بيورد المبيدات من إسرائيل عن طريق الأنفاق من غير ما يدفع جمارك، والبلد كلها عارفة وماحدش عارف يعمل له حاجة، عارف ليه؟ لأن منظمات الإجرام العالمية أقوى من كل الأنظمة والحكومات، ومهما الشرطة والجيش عملوا هتفضل مهنة التهريب موجودة على إيد ناس حافظة الحدود والمعابر والأنفاق والطرق السرية، وهيفضل رجال الشر هما اللي ليهم الكلمة الأولى والأخيرة لأنهم بيتحكموا في اختيار الطراطير اللي بيحكمونا.

تدمع عين زميله رجل الأمن وهو يشعر بالعجز وقلة الحيلة، ليستغفر الله قبل أن يلحد وينكر وجوده هو الآخر من فرط ما يلاقيه من ابتلاءات واختبارات تفوق حدوده البشرية، وفي اللحظة نفسها شعرت الفتاة البرازيلية بالضجر، لتخلع حمَّالة صدرها وتجلس Topless، وتمتد يد "الراشد" إلى صدرها قبل أن تمنعه يد "آسر الهراس" الذي قال بابتسامة سمجة ولهجة خليجية ساخرة:

— إيش عم بتسوّي يا هذا، هذي ملكية خاصة استيراد الخارج وخالصة الجمارك.

ليضحك "الراشد" ويقول باستهتار وهو ينظر للحسناوات الثلاث:

— وأنا شاري كل البضاعة بالمكسب اللي تبغاه.

ثم يُخرج من جيب الشورت الذي يرتديه ورقة من فئة المائة دولار ليكتب عليها رقم تليفونه ثم يسلمها للحسناء البرازيلية قائلًا:

- Sorry Baby, I don't have a business card, so this is my number with Mr Asser agreement. I'm waiting for your calling.

تنظر الحسناء البرازيلية لـ "آسر"، فيُجيبها بعينيه أن تفعل، فتمد أناملها الرقيقة لتأخذ الورقة، قبل أن يمسك الـ"راشد" بيدها ويلثم أناملها بقُبلة حملت أنفاسه الحارة قبل أن يسأل:

— وين حبات الإكس تي سي حبيبي، بدنا نبدأ الحفل؟

فيُخرج "آسر الهراس" حبة يُسلمها لصديقه، ثم يبلع بدوره حبة أخرى قبل أن يلتقط كل منهما منشفة عرق من الترابيزة الموجودة أمامهما، وينهضا متجهين نحو الـ Stage الذي يتراقص عليه عشرات الشباب والفتيات، فيما يمر النادل حاملًا صينية بها زجاجات البيرة والخمر والمياه المعدنية والعصائر ليلتقط كلٌّ منهم ما يشتهي.

الآن بدأ مفعول الحبة في الظهور على ملامح "الهراس" الصغير مع زيادة إيقاع الموسيقى الصاخب ودويها المزعج، ليزداد تدفق الدم داخل العروق بسرعة شديدة، وترتفع درجة حرارة الجسد ويبدأ عرقه في الانهمار، قبل أن يسيطر الشعور بالعظمة والسلام مع النفس والرضا عن الذات على مراكزه الحسية، بخلاف شعور آخر بالنشوة الجنسية وخفة الحركة والنشاط مبني على زيادة إفراز الخلايا لمادة السيروتونين المسئولة عن المزاج والشهية للأكل والجنس.

ومع زيادة إفراز العرق وخلو جسده من السوائل التي طفحت من مسامه، أخذ يمسح عرقه بالمنشفة حتى صارت تستوجب العصر، ثم أوقف النادل وأخذ منه زجاجة مياه مثلجة أفرغها في

فمه مرة واحدة وهو يعتصرها بيده حتى أصدرت الزجاجة صوت قرقعة يقسم له أنها فرغت ولم يعد بها ولو حتى نقطة. قبل أن يقترب من السماعة الـSound الضخمة التي تصدر منها الموسيقى المدوية ويُلصق بها رأسه طلبًا للمزيد من الخبط والرزع!

وفي المقابل ارتسمت ملامح الذعر والاضطراب على ملامح صديقه القطري بعد أن جسدت الحبة كل مخاوفه أمام عينيه في صورة هلاوس حية شعر أنها تحدث بالفعل، ليظل يرفع يده في توسل ورعب، مُتحاشيًا أشياء غير حقيقية، قبل أن يزداد ارتفاع درجة حرارة جسده ليبلل العرق خصلات شعره الطويل وينزلها على وجهه وعينيه ثم يسقط فجأة.

عندها توجه "الهراس" نحوه بصعوبة وحمله مع مجموعة من الحضور ليلقوه كما هو في ماء البحر حتى يستعيد جسده حرارته وتعتدل دورته الدموية، فيفتح عينيه متأملًا الوجوه حوله بدهشة غير متذكِّر كيف أصبح في هذا الوضع، ثم يقف على قدميه وقد سال من أنفه وفمه المخاط والرغاوي، في حين يقول له "آسر" ساخرًا:

— طالما مش قد الأكسسة بتاكسس ليه؟ كنت هتموت قبل ما تحلل اللي دفعته للموزة البرازيلية.

ينظر له "سالم" بدهشة وقد سيطر عليه النسيان:

— إيش الموزة البرازيلية؟

"آسر" وقد أدرك أن "سالم" قد فقد جزءًا من ذاكرته:

— لا ما تاخدش في بالك، مكتوب لها تاخد ورقة بمية من غير ما تقول آه واحدة بنت المحظوظة.

يلتقط زجاجة عصير من النادل ويُفرغها كلها في جوفه ثم يضيف:

- يلّا نقوم نكمل رقص قبل ما أفصل.

إلا أن رنينًا خاصًا انبعث من هاتفه المحمول، كان كفيلًا ليبتعد فجأة عن صديقه القطري، ويُجيب بصوت هامس وهو ينظر حوله حتى يتأكد أن لا أحد يتابع حديثه:

— أيوة يا بابا.

— أنا بلغت فريد التعلب إنه يخلص لك تصريح زيارة في أسرع وقت، فيه حاجات مهمة ما ينفعش تتقال في التليفون لازم أبلغك بيها، تابع معاه وزنّ عليه لحد ما أشوفك في أسرع وقت، مفهوم؟

— تحت أمرك.

وقبل أن يُضيف حرفًا آخر يسمع صوت انقطاع الخط، فيتأمل هاتفه في توتر، قبل أن ينظر للبحر ويتابع توالي موجاته الغاضبة...

* * *

لم ينجح السجن في إخفاء علامات العز والأُبَّهة عن "قابيل الهراس" رغم ملابس الحبس الاحتياطي التي يرتديها، بينما أطلت رائحة عطر أنيق من ملابسه، وقد صفّف شعره الأبيض الناعم بعناية عريس في ليلة زفافه، وما إن يراه ابنه "آسر" الذي يزوره في محبسه وسط العديد من المساجين الذين يلتقون بذويهم في موعد الزيارة المحدد، حتى تنحدر من عينيه دمعة حزن، وهو يقول بصوت بذل قصارى جهده حتى يخرج متماسكًا دون جدوى:

- ازيك يا بابا؟

فيزفر "الهراس" زفرة حارة، وقد أطلت القسوة العتية من عينيه وهو يقول بنبرة ناقمة:

- زي الزفت.

يتأمله ابنه "آسر" بملابس الحبس البيضاء كمن يشاهد كابوسًا مُرعبًا لا يستطيع الاستيقاظ منه، قائلًا:

- ما تقولش كده، انت هتخرج قريب، فريد التعلب أكد لي إن موقفك القانوني قوي والمسألة مسألة وقت.

- ده كلام بيقوله أي محامي عشان ياخد منك أتعابه مقدمًا، ورغم إننا بنبقى مش مصدقين بس لازم ندفع، لكن أنا وانت عارفين كويس إن اللي بيقع في عالمنا مالوش قومة.

يضع "آسر" يده على ركبة أبيه ليطمئنه، قائلًا:

— صدقني يا بابا.

إلا أن "الهراس" يقاطعه بصرامة:

— اسمعني كويس عشان مافيش وقت، الحاجة الوحيدة اللي براهن عليها إني مش رجل أعمال عادي، أنا رئيس جمهورية رجال الأعمال في مصر، ولي مشاريع كتير ممكن تهز اقتصاد البلد لو وقفت مرة واحدة، عشان كده هياخدوا احتياطاتهم كويس قبل ما يقصقصوا ريشي، وده هيخلي قدامنا شوية وقت لازم نستغله لصالحنا.

"الهراس" يُخرج ورقة مطوية يدسها بسرعة في يد "آسر"، قبل أن يقول:

— الورقة اللي في إيدك فيها آخر أمل ممكن ينقذنا، نفذ المكتوب فيها بالحرف من غير ولا غلطة، وإلا قول علينا السلام.

عندها يومئ "آسر" برأسه وقد جفت دموعه، وحلت محلها الصرامة والإصرار.

* * *

في مدخل بنايته الرخامي الفاخر ذي التماثيل الأنيقة، وألواح الزجاج البلجيكي الملصوق على الحوائط، يتجه "مجد" نحو الأسانسير ليستقله إلى الدور الثالث حيث يُقيم مع والدته، وما إن

يصل حتى يطرق باب شقته فلا يجيبه أحد.

ينتظر قليلًا ثم يطرق الباب مرة أخرى، دون إجابة، فيعقد حاجبيه ليبدو على وجهه القلق وهو يُخرج من جيب بدلته مفاتيح الشقة ثم يدس المفتاح في الكالون، دون أن يلاحظ شطاطة كبريت في جانب خفيّ من الباب، وعود ثقاب مواجه لها بحيث يحتك بها بمجرد فتح الباب، ليشتعل عود الثقاب وتندلع النيران من كل مكان في الشقة وتتجه نحو "مجد" بسرعة، قبل أن يدوي انفجار شديد تدفع موجته التضاغطية "مجد" نحو بير السلم ليسقط منه سريعًا، في نفس لحظة مروق النيران من فوقه لتحميه سقطته من الحريق، قبل أن يصطدم جسده بقاع البئر في عنف، ويغرق في بحر من الظلام.

* * *

الفصل الثالث

ارتسمت كل أمارات التوتر والقلق على ملامح اللواء "ماجد بهجت" وهو يمر من بوابة القصر الجمهوري ببدلته السوداء المطل من أسفلها قميصه الأبيض ورابطة عنقه الحمراء التي كادت أن تنتفض من فرط ضربات قلبه الشديدة بعد أن تراقصت أمام عينيه كوابيس حية لمصير أسود سيناله على يد جماعة الإخوان المسلمين ورئيسها الذي استدعاه بعد أن وصل للحكم، وهو يتذكر الأفاعيل التي لاقوها على يديه من تعذيب، واغتصاب، وقتل بسجون أمن الدولة وقت أن كان المسئول الأول عن ملفهم في عهد مبارك.

راح يتخيل مذبحة القلعة التي ارتكبها «محمد علي» مع معارضيه وهم يتناولون العشاء في حضرتِه، قبل أن يتفاقم خياله ليصل إلى مصير سليمان الحلبي وهو يتم إعدامه بالخازوق، حتى شعر بنقاط بسيطة تبلل بنطاله وهو يدخل القصر، ليستقبله اللواء "ياسر حجازي" كبير الياوران بالقصر انتظارًا لحضور الرئيس.

«يا أهلًا وسهلًا يا ماجد بيه».

قالها كبير الياوران ثم نظر إلى ساعته قبل أن يستطرد بابتسامة ماكرة:

– جاي في ميعادك بالثانية.

تنحنح "ماجد" قبل أن يقول بابتسامة متوترة:

– ومين يقدر يتأخر يا ياسر بيه؟

قبل أن يخفض نبرة صوته ويميل نحو كبير الياوران متسائلًا بلهجة حاول أن يجعلها ودية:

– خير يا فندم، هو أنا مطلوب ليه؟

– في الحقيقة الإجابة مش عندي، لكن اللي أقدر أأكده لك إنه

خير، تشرب إيه؟

– ولا أي حاجة والله، أنا نازل فاطر وشارب ومش ناقصني حتى بُقّ مياه.

قبل أن تباغته من اللواء "ياسر" نظرة صارمة مغلفة بابتسامة تأمر أمرًا لا جدال فيه وهو يضغط على حروفه:

– معلش مش هتفرق من مشروب كمان على شرف سيادة الريس، انت عايزه يزعل ولا إيه؟

– لا يا فندم خالص، أنا فعلًا كنت محتاج قهوة مظبوطة.

– طيب اتفضل اقعد استريح وعقبال ما تخلص فنجانك هيكون الريس في انتظارك.

ليجلس اللواء "ماجد" على الهواء دون أن ترتاح مؤخرته على ذلك المقعد الأنيق، وقد شعر أنه فريسة في عرين أسد جائع منذ ثلاثين عامًا، وعندما أخذ فنجان القهوة من كبير الخدم، نسي مذاقها وهو يحاول بين كل رشفة ورشفة أن يطارد هواجسه التي تجسدت أمام عينيه 3D دون جدوى، قبل أن يأتيه كبير الياوران، قائلًا بلهجة رسمية:

– سيادة الريس في انتظارك.

ثم يعطيه ظهره ويتجه نحو مكتب الرئيس، وهو يعلم جيدًا أن ضيفه سيتبعه دون الحاجة إلى كلمة "اتفضل"، وما إن أصبح كلاهما أمام باب المكتب حتى ثنى كبير الياوران المقبض وتقدم خطوة للداخل قائلًا باحترام شديد:

– اللواء بهجت يا فندم.

ثم استدار ليُشير إلى ضيفه بالدخول دون أن ينبس ببنت شفة، فيدخل اللواء "ماجد بهجت" بقدمه اليُمنى وهو يردد بعض الآيات القرآنية التي لا يحفظ غيرها، قبل أن يُطالع وجه الرئيس الذي ينهض بشيء من الكبرياء قائلًا:

- تعالى يا بهجت.

فيهرول نحو مكتبه وينحني وهو يصافحه كطفل مفزوع من الأبلة العنيفة لحظة حسابه على عدم أداء الواجب المدرسي، قائلًا بسعادة مُصطنعة تُخفي هلعًا شديدًا:

- صباح الخير على فخامتك يا فندم، ألف ألف مبروك لمصر إن يرأسها واحد زي سيادتك.

إلا أن الرئيس يتجاهل نفاقه وتدجينه، مُشيرًا له بالجلوس، قبل أن يقول:

- باختصار عشان يكون الكلام واضح، أنا عارف ومقدر إن اللي عملته فينا في العهد اللي فات كان غصب عنك، وأكيد انت من جواك كنت متعاطف معانا وعارف رسالتنا كويس، مش كده ولا إيه؟

- ما شاء الله يا فندم، فعلا سيادتك ما وصلتش لمنصبك من فراغ، انت فعلًا قريت كل اللي في دماغي ووفرت عليا الكلام.

ليبتسم الرئيس قائلًا:

– ما أنا عارف يا ماجد اللي كان بيحصل، عشان كده استدعيتك النهارده.

ثم يميل نحوه ببطء، ويقول بلهجة ذات مغزى:

– إحنا عايزين نفتح صفحة جديدة.

تتهلل أسارير الرجل ويقول بفرحة طفل:

– يا ريت يا فندم، إحنا في مرحلها عايزة كل الأيادي متشبكة مع بعضيها عشان نبني البلد من أول وجديد، كفاية بقى فُرقة

وصراعات.

- "أنا قررت إنك تبقى رئيس جهاز الأمن الوطني، والجهاز هينفصل عن وزارة الداخلية وهيبقى تابع للرئاسة، يعني مني ليك مباشرة".

هكذا أطلق الرئيس القنبلة بشكل مباغت، لتفقد ملامح وجه اللواء بوصلتها في عالم المشاعر دون أن تعرف إلى أي انفعال تهتدي، ما بين السعادة والدهشة والتوجُّس.

لقد كان يخطط للهروب من مصر بعد فصله من الخدمة في أعقاب ثورة الخامس والعشرين من يناير، ونبذه من جميع من حوله بعد أن كانوا عبيد إحسانه، وحاملي المباخر في محراب سلطاته اللا محدودة، كإله يخشاه الجميع، ثم فجأة تحول إلى بشر ضعيف مهزوم، يركل خصومُه مؤخرتَه!

ومع اشتداد أزمته النفسية، وإحساسه بالهلع والخوف على نفسه وعائلته في ظل تصاعُد سلطة التيار الديني، وافق على ذلك العرض الذي تلقاه من دار نشر إنجليزية ليكتب مذكراته السياسية خلال فترة عمله بمباحث أمن الدولة، لا سيما سنواته الأخيرة التي تولى فيها ملف جماعة الإخوان المسلمين، مقابل رقم فلكي يكفل له مغادرة البلاد والعيش خارج حدودها في سلام خلال ما تبقى له من أيام.

ها هو يغادر القصر الجمهوري بخطوات بطيئة واثقة، مُرتديًا نظارته الشمسية، في حين يرفرف جاكيت بدلته ورابطة عنقه مع نسمة هواء هبَّت عليه بالسلطة والحظوة، ليتضح من خلف كتفيه القصر الجمهوري وهو يبتعد عنه، في حين أخذ القدر يعزف موسيقاه التصويرية المليئة بالترقُّب والتشويق لتاريخ جديد سيُكتب في مرحلة حرجة من حكم مصر، قبل أن يُخرج اللواء هاتفه المحمول من بدلته ليغلقه تمامًا وهو يواصل المسير، ثم يُخرج منه شريحته ويكسرها إلى نصفين ليلقيها في أقرب سلة مهملات دون أن ينظر خلفه، كخبير مفرقعات محترف يلقي في القمامة قنبلة غير صالحة للاستخدام بعد أن أبطل مفعولها.

لقد قرر اللواء أن يقطع صلته بالأمس، ليفتح صفحة جديدة يسترد فيها عرش ألوهيته المفقود، كإله صغير يفعل بالبشر ما يشاء بقواعد كبير الآلهة الجديد، ولا ضير أن يهب مع كل ريح ويسعى مع كل قوم، ما دام في النهاية سيحقق مصلحته التي لا يعنيه سواها.

* * *

في صالة التحرير بجريدة «المستقبل» نرى عددًا من المكاتب الصغيرة المتلاصقة في صورة partitions، وعلى كل مكتب جهاز كمبيوتر وشاشة مسطحة تستعرض أهم ما في وكالات الأنباء العالمية، ليتابع الصحفيون الأخبار ويقوموا بالترجمة وإعادة الصياغة، في حين توجد في منتصف القاعة شاشة بلازما كبيرة تعرض قناة "الجزيرة مباشر مصر".

وسط هذا الكم من الصحفيين تجلس "رحمة" على مكتبها، في حين تسير بإصبعها السبابة على صفحتها المطبوعة بطريقة برايل للمكفوفين لتتحسس الحروف المطبوعة بشكل بارز، وفي يدها قلم تعلِّم به على الكلمات المكتوبة بشكل خاطئ، بينما تجلس جوارها فتاة محجبة في بداية العشرينات تقول لها "رحمة" فور أن تنتهي من مراجعة الصفحة:

– أنا علِّمت على 7 أخطاء في الصفحة محتاجين يتصححوا يا فاطمة، لما تصححيهم ترجعي لي تاني بالصفحة لو سمحتي عشان أقراها وأمضيها بنفسي، العدد اللي فات اعتمدت عليكي ونزلت

الصفحة بنفس الأخطاء من غير ما تتصلّح.

تلتقط "فاطمة" الصفحة وهي تقول بمزيج من التبرير والاعتذار:

– حاضر، بس والله المرة اللي فاتت سلمت الصفحة لأستاذ عاطف الجَمّيع وشاورت له على الأخطاء اللي المفروض يصححها، وكان ساعتها معاه صفحة الرياضة وقال إنه أول ما يخلصها هيشتغل في صفحتنا.

"رحمة" بعصبية:

– ده عذر أقبح من ذنب، كنتي تقعدي على دماغه لحد ما يخلص لك شغلك وتشوفيه بنفسك، المفروض الصفحة ما تمشيش غير وانتي شايفاها ومتأكدة من كل حرف، لأن في النهاية اسامينا هي اللي بتنزل على الموضوعات مش بتوع الجمع.

يرتسم التوسُّل على ملامح "فاطمة" وهي تقترب من "رحمة"، لتقول وكأنها تراها:

– أنا هطلع لمكتب التنفيذ حالًا ومش هامشي غير وأنا متأكدة إن كل حاجة تمام، لحد ما الصفحة تدخل الميكروفيلم وتتحول لأفلام قبل ما تتطبع، بس والنبي ما تنسيش تفكّري أستاذ جلال بيّ، هو كان واعدني إنه هياخدني ضمن الدفعة الجديدة اللي هتتعين.

تلين ملامح "رحمة" وهي تقول:

– من غير ما تقولي أنا فكرته امبارح وقلت له إنك طالع عينك معايا في الصفحة بقالك 3 سنين وهو وعدني إنه هيعيّنك، عشان كده صعبان عليّا إني أساعدك وانتي قلبك مش على الشغل.

تكاد "فاطمة" أن تطير من السعادة وهي تطبع قُبلة خاطفة على وجه "رحمة" وهي تقول بكل مرح وسعادة الدنيا:

– والله العظيم ما كانش قصدي، اعتبريها أول وآخر مرة يا أحسن صحفية في مصر كلها.

ومن خلفهما نسمع صوت "براء" المميز وهو يقول بشقاوة:

– لأ لأ لأ، بوس وأحسن صحفية في مصر كتير عليكي، اختاري لك واحدة يا رحمة وسيـبي لي التانية.

تلتفت له "فاطمة" فترى ضحكة شريرة ترتدي بذلة كُحلية، فيرتسم الخجل على وجهها وهي تنظر للأرض قائلةً:

– إحم، طب عن إذنكم.

تنصرف مُسرعةً بينما تقول "رحمة" بملامح تُسيطر عليها البسمة:

– هو انت ما بتحرّمش؟ كل مرة بتصدّك وبرضه مفيش فايدة؟

فيتطلّع إلى عينيها قائلًا بنبرة تفيض بالإعجاب والوله الشديد:

– ومين قال إن هي المقصودة؟

تتسع ابتسامتها بعد أن داعبت كلماته أنوثتها، لكن مشاعرها نحوه وهي تعتبره مجرد أخ، أبت أن تسمح له بالتمادي، وأبت أن تسمح لتلك الابتسامة على شفتيها أن تستمر، لتسحبها بسرعة كمُصارع مهزوم، في حين تتابع بنبرة رقيقة حتى لا تجرح كبرياء صديق عمرها الذي يتوق عنقها بمجاملات لا حصر لها:

– خليك انت كده مقضّيها معاكسة وتسبيل من غير ما تكمّل الموضوع المطلوب منك، شكلي أنا اللي هكتب الصفحة لوحدي في الآخر.

يلتقط "براء" من بدلته مجموعة أوراق مطوية، يفردها ليتبين أنها أوراق كمبيوتر بحجم A4 قبل أن يقول:

– يا ترى فاضية أقرا لك اللي كتبته؟

"رحمة" منبهرةً:

– معقول خلصت؟

عيب عليكي، أومال كسلان زيك؟

ما انت لو مُشرِف على صفحة زي حالاتي ومعاك صحفيين بيسلموك المواضيع بالقطّارة كنت لقيت اللي يعطلك، يلّا بسرعة اديني نبذة عن اللي كتبته عشان عايزة ألحق أكتب أنا كمان.

ينظر "براء" إلى الورق ليلخّص ما كتبه بعينيه قبل أن يقول وهو يمشي فوق السطور:

– بصّي يا ستي، في الفترة اللي فاتت قام تيار القضاء المستقل بتشكيل لجنة برئاسة المستشار حسين مكي، عشان يحطوا مشروع تعديل قانون للسلطة القضائية اللي هيضمن استقلال القضاء، وفي نفس الوقت يمنع دخول النيابة بالكوسة زي ما بيحصل كل سنة مع ولاد وقرايب المستشارين، فقررت اللجنة إنها تعمل اختبار تحريري لكل المتقدمين لاختبارات معاونين النيابة، بحيث إن كل واحد يدخل بمجهوده.

– حلو أوي.

– لأ مش حلو، لأن رئيس نادي قضاة القاهرة ورئيس نادي قضاة إسكندرية اعترضوا على الفكرة وقالوا إنهم مش موافقين عليها، قال إيه مش لازم نعمل اختبارات تحريرية وكفاية إننا ناخد أعلى تقديرات من خريجي الحقوق المتقدمين للاختبارات، مع إن فيه تفاوت بين صعوبة وسهولة كليات الحقوق في مصر، لدرجة إن معظم قضاة إسكندرية على سبيل المثال بيدخّـلوا ولادهم حقوق طنطا إكمنها سهلة، عكس حقوق إسكندرية اللي ماحدّش بينجح فيها صافي وبتقدير عالي غير كل فين وفين، وفي الآخر يحطوا رِجل على رِجل ويقولوا خدوا ولادنا اللي جايبين تقديرات عالية لأنهم متفوقين!

– وبعدين؟

– ولا قبلين، رئيس نادي إسكندرية حب يضرب كرسي في الكلوب لما لقى اللجنة مصممة على شرط الاختبار التحريري، واتهم اللجنة وتيار القضاء المستقل إنهم مش عارفين شغلهم وإن دخولهم للقضاء نفسه كان غلط، بدليل إن 70% من قضاة تيار الاستقلال كانوا ظباط شرطة على حسب كلامه.

– أوبااااا...

– طبعًا أعضاء اللجنة ما سكتوش وفيه منهم مستشار اسمه عامر البلشي قال إن 3 قضاة بس من تيار الاستقلال هم اللي كانوا ظباط، وإن التلاتة دول من أشرف قضاة مصر وأكترهم دفاعًا عن استقلال القضاء، في الوقت اللي فيه قضاة تانيين كانوا شغالين مخبرين لجهاز أمن الدولة.

يرتسم الحماس والإعجاب على ملامح "رحمة" التي تقول بابتسامة يملؤها التفاؤل:

– ينصر دينك يا براء، والله فتحت نفسي أكتب موضوعي، نص ساعة بالظبط وهاكون مخلّصة إن شاء الله تحقيقي عن ولاد المستشارين والقضاة اللي دخلوا النيابة والقضاء مع إن فيهم اللي كان جايب مقبول، ومنهم اللي كان متهم في قضايا تعاطي مخدرات، أظن موضوعي على موضوعك هيقفّلوا صفحة ومش هنحتاج للموضوع التالت اللي كان مكلّفنا بيه أستاذ جلال.

– على حسب مساحة موضوعك، لو عمليته في حدود 700 كلمة أعتقد هيكفي.

– طب خلاص، خليك قاعد عقبال ما أخلص عشان تطلع ترسم

الصفحة، وبالمرة تشوفه هيكفي ولا لأ على البروفة.

ينهض "براء" في مكانه قائلًا بحزم:

– لأ أنا لازم أمشي دلوقت، خلّصي موضوعك وتابعي الصفحة بدالي، عندي ليكي مفاجأة لما أرجع، سلام.

يهُمّ أن يمشي، لكنها تنهض وتتشبَّث في ذراعه كطفلة:

– ما دام مفاجأة يبقى لازم أعرف، ما تسيبنيش كده على نار.

ينظر لساعته قائلًا باستعجال:

– والله متأخر يا رحمة ولازم ألحق.

قررت استغلال عاطفته نحوها التي تعلمها جيدًا ويلحظها كل من حولهم، لتقول بدلال وملامح أنثوية لم تنكرها عينها الكفيفة، وأكدتها نبرتها التي صارت أكثر رقةً:

– وحياتي وحياتي...

نجحت محاولتها عندما تجمّد في مكانه وصعقه تيار الحب وهو يتأمل ملامحها بحنين دافئ، قبل أن يُخرج كل ما لديه من معلومات قائلًا:

– فيه عندي معلومات إن الريس هيعين المستشار حسين مكي نائب ليه في اليومين اللي جايين.

وما إن غادر آخر حرف شفتيه، حتى اتسعت عينها بسعادة غامرة وهي تردد كالمسحورة:

– واااو، كده يبقى فيه أمل في البلد، الراجل ده من أنضف المستشارين في مصر، وتاريخه في تطهير القضاء معروف من أيام مواقفه ضد نظام مبارك.

لكن "براء" يقول بحسرة تصل إليها مع نبرات صوته الحزينة:

– الهدف الظاهر من تعيين المستشار مكي إن الرئيس يبان ثوري ومتعاون مع كل الرموز والتيارات المحترمة في البلد، عشان ماحدش يتهمه إنه بيعين ناس من جماعته وبس، وساعتها هيحظى بالحب والتأييد من الشارع، لكن الهدف الحقيقي إن الريس ناوي الفترة الجاية يعمل تغيير جذري في المؤسسة القضائية لحساب جماعته اللي هيعيّن عدد كبير من المنتمين لها قضاة ووكلاء نيابة، وفيه مشروع قانون في مكتب المرشد لتعديل السلطة القضائية هيطلع وقت اللزوم.

تهز رأسها ببطء غير مستوعبة ما تسمع قبل أن تسأل في حيرة:

– طب وإيه الفرق بين تعديل قانون السلطة القضائية اللي طالب بيه مكي وتعديل السلطة القضائية اللي في مكتب المرشد؟

– ببساطة واحد فيهم لصالح الجماعة، والتاني لصالح الشعب والعدالة الحقيقية.

فتهمس بصوت خفيض مصدوم وكأنها تحدِّث نفسها:

– لو سيطروا على القضاء يبقى هم اللي هيراقبوا انتخابات مجلس الشعب، والشورى، والرئاسة، ويقدروا يلعبوا في النتيجة زي ما هم عايزين، ده غير إنهم هيوجّهوا القضاء لأهداف سياسية ويحبسوا المعارضين ويفرجوا عن اللي تبعهم في أي قضية.

فيُجيبها بابتسامة مريرة:

– الله ينور عليكي.

تغمغم في شرود وكأنها تحدث نفسها:

– هي البلد دي كده، طول عمرها أزمتها الحقيقية والأولى في العدل.

– طبعًا، وهو لو كان فيه عدل بجد كانت الانتخابات اتزورت، والفاسدين حكموا، والفقرا والغلابة ماتوا من غير تمن، والحرامية

والحيتان نهبوا خير الشعب في عبهم طول السنين اللي فاتت؟

تحاول أن تبحث عن أمل تفر به من هواجسها المخيفة التي فجّرها فتسأله من جديد:

– تفتكر المستشار حسين مكي ممكن يركب الموجة ويتخلى عن مشروع قانونه لصالح قوانينهم المتفصلة على مقاس مصلحتهم؟

فيلتقط نفسًا عميقًا قبل أن يقول:

– فيه ناس كتير اتسممت وهي فاكرة نفسها بتاكل العسل، لأن حلاوته غطت على طعم السم وهم مش حاسين، عمومًا بلاش نسبق الأحداث، مسير الأيام تجاوب على كل أسئلتك.

– عُمر ما الأيام جاوبتني إجابة نفسي فيها، من وإحنا صغيرين يا براء وإجابة الأيام مافيهاش غير الدم، والجرح، والصدمة في أقرب وأعز الناس لينا.

يتطلع "براء" إلى عينيها بكل حب وحنان الكون قبل أن يختلط الحب بالسياسة في نبرته الحانية وهو يقول:

– بس على قد ما صدمتنا على قد ما قرّبتنا من بعض، والنتيجة إننا النهارده تفكيرنا واحد واختياراتنا واحدة، إلا اختيار وحيد لسه لسانك مش مطاوعك تنطقيه مع إن عقلك وقلبك عمرهم ما هيلاقوا أحسن منه.

يرتسم الخجل على ملامحها، فتُداعب شعرها وهي تحاول تغيير الموضوع قائلةً:

– مش كل اختياراتنا واحدة ولا حاجة، انت عضو في 6 أبريل وأنا ماليش أي انتماء سياسي لأي حزب أو حركة عشان يفضل ولائي لدماغي وبس.

يقترب منها أكثر قائلًا بلهجة تفيض بالغرام:

– طب وقلبك؟

تضطر أن تصدمه حتى لا يتمادى أكثر:

– مابقاش عندي قلب بعد اللي شوفته، وانت كمان المفروض تكون زيي، لحد ما نحقق اللي عشنا طول عمرنا عشان نحققه، يلّا عشان تلحق ميعادك.

تنطفئ السعادة في ملامحه ويسيطر الحزن على سحنته السمراء التي صارت أكثر سوادًا مع هذا الإحراج العاطفي، وقبل أن ينبس ببنت شفة تلتقط "رحمة" حقيبتها من على مكتبها، ثم تفرد عصا المكفوفين التي تستخدمها لتدلها على الطريق وتهم بالانصراف، قائلةً:

– أنا طالعة عشان أتابع الصفحة مع فاطمة، عن إذنك.

إلا أن مشاعره المهزومة لم تعطل يده عن الامتداد لتمسك كفها مجددًا، حتى يعينها على المسير، وقد أبى قلبه أن يعاقب أحاسيسها القاسية بالمثل، لتتجمد في مكانها بإحراج فور ملامسة يده ليدها وهي تعرف أنها في حاجة إليه لكنها لا تملك دفع الثمن، إلا أنها على الأقل لا تملك حتى الآن خيارًا آخر.

* * *

يغادر "براء" مبنى الجورنال متجهًا إلى سيارته الـ "فيات 128"، قبل أن يرتطم بصره بزميله "الحسيني" ذي الكرش الكبير الذي يتدلى من جسده الضخم، حتى تشعر فور رؤيته أن الإنسان كان أصله بطيخة، بخلاف النظارة الطبية الكبيرة التي تحتل نصف وجهه، والكاميرا التي لا تغادر يده الضخمة المكتظة، ولم يربطه بالوسامة سوى شعره الأسود الناعم المُصفَّف للخلف، وله لمعان مميز، بينما تصببت جبهته بالعرق الذي رسم على قميصه خريطة من الأملاح.

ورغمًا عنه، انطلقت ضحكات "براء" الشديدة التي صارت رد فعل معتاد كلما رأى زميله البدين ذا الشكل الكوميدي بالفطرة، قبل أن يبتسم "حسيني" صائحًا بنبرته الغليظة الرنانة، الشبيهة بنبرة كلب كارتون "توم وجيري":

- يا ابني انت حد زغزغك مرة ونسي صباعه؟ واللا وشي هو اللي مرسوم عليه موجة كوميدي وأنا مش واخد بالي؟ مافيش مرة تشوفني وما تضحكش؟ حتى في عزا أبويا ما عرفتش تمسك نفسك وأخويا الكبير كان هيطحنك.

يصافحه "براء" ويعانقه قبل أن يقول بابتسامة ساخرة:

- طب إيه رأيك بقى إن في عزا أبوك بالذات ماكنتش بضحك عليك، بس بصراحة جوز خالتك وهو بيسلم على أخوك الأتخن منك، حب يواسيه فطبطب على صدره قام كرشه فضل يلعب وصدره اتهز يمين وشمال ماقدرتش أمسك نفسي، انتوا أصلًا عيلة كوميدية بالفطرة لدرجة إني شاكك إن أبوك مات من الضحك.

يُجيبه "حسيني" بسخرية مماثلة:

- ماشي يا عم الوقور.

- لا عيب عليك، وقور مين، ده أنا إله المسخرة بس مش قدام الناس.

فيرفع "حسيني" كاميرته أمام وجه "براء" ويلوّح بها قائلًا:

— طب ورحمة أبويا الغالي، اللي انت ضحكت في جنازته، لو عكشتك وانت بتعُط أو بتلعب بديلك لأكون أول واحد يصورك ويرفع الفيديو على فيس بوك ويوتيوب لحد ما الموزّة بتاعتك تنفض لك أكتر ما هي منفضة لك.

يحتل الحزن ملامح "براء" متسائلًا:

— هو للدرجة دي باين لكل الناس إن أنا متنفض لي؟

— ييييه، ده من كتر التنفيض قرّبت تبقى سجادة، هاهاها...

ورغم حزنه، عاد "براء" ليضحك رغمًا عنه على ضحكة "حسيني" الرنانة التي تشبه ضحكة الحشاشين، قبل أن يحاول تغيير دفة الحديث هربًا من الإحراج، فينظر لكاميرا "الحسيني" الجديدة باهظة الثمن متسائلًا بدهشة:

— يخرب عقلك، هو انت جبت كاميرا جديدة؟!

ينظر "الحسيني" للكاميرا بسعادة بالغة ويقلبها بين يديه بإعجاب وقد "فشخ" فمه بزهو لتظهر كل أسنانه بشكل كوميدي، ليقول "براء" ساخرًا:

— إيه يا عم مالك، أنا بسألك عن كاميرتك الجديدة مش موزّتك الجديدة؟

— ما دي أهم من الموزة يا قفل، بقي بذمتك الموزة بتاعتي كانت هتخليني أصور الشيخ اللي واقف على باب اللجنة الانتخابية يقول للناس إن اللي هيصوّت بنعم هيدخل الجنة واللي هيصوّت بلا هيدخل النار؟ ولّا كانت هتخليني أصور الراجل الكومبارس اللي قناة الجزيرة مباشر بتستضيفه في كل تقرير عشان يطلع يقول الكلام اللي عايزة تضحك بيه على الشعب المصري؟ ده غير الحوارات اللي عملتها مع أهالي شهداء الظل اللي ماحدش سلط الضوء على ولادهم زي الشهدا التانيين، والحوارات التانية المسخرة اللي عملتها مع مؤيدي توفيق عكاشة في مظاهراتهم الكوميدية عند العباسية، ده باسم يوسف يا راجل خد الفيديوهات دي في أكتر من حلقة والـ CNN اتكلمت عنها.

— والله يا حسيني ما عارف أقول لك إيه، من ناحية إنك شاطر وبتصور فيديوهات وانفرادات فانت بصراحة مجتهد وبتنزل تتنطط

في كل حتة رغم إنك ما شاء الله زي البغل وكرشك قدامك مترين، في حين إن فيه صحفيين كتير قاعدين على مكاتبهم زي الطواليش وعايزين الأخبار تيجي لحد عندهم، بس صعبان عليا إنك كل ما تحوش لك قرشين تشتري بيهم كاميرا جديدة عشان تنجز بيها فيديوهاتك، وحتى شقتك اللي هتتجوز فيها يا دوب مساحتها 60 متر، يعني زي شقة محمد صبحي في مسرحية الهمجي، لو اتمطعت فيها دراعك هيخبط في وش الجيران، أومال لو اتجوزت وجبت عيل هتحطه فين؟

— هحطه في الشاحن، هاهاها...

يضحك "براء" رغمًا عنه من جديد، قائلًا بمرح:

- يا وسخ، حظك إني وراي مشوار مهم، غير كده كنت وريتك الشاحن ده بيتحط فين.

- في مكان التطعيم، هاهاها، سلام يا معلم.

قالها "الحسيني" وهو يدلف للجورنال مترنحًا بجسده المكتظ، قبل أن يركب "براء" سيارته ويرتدي نظارته الشمسية، ويتأمل "الحسيني" من خلفه بابتسامة مرحة، قبل أن يرن هاتفه المحمول ليضعه على أذنه اليمنى مجيبًا:

- أيوة يا عمر، **يقطِّب حاجبيه ويتابع بتوتر:** إمتى الكلام ده؟ طب أنا هجيب مصور معايا وآجي لك حالًا، سلام.

ثم يضغط على بعض أزرار هاتفه المحمول ليضعه على أذنه من جديد قائلًا:

- أيوة يا رحمة، سيبي اللي في إيدك وانزلي دلوقتي حالًا، فيه مشوار مهم لازم نعمله، وإحنا في السكة هفهِّمك كل حاجة.

* * *

في أحد المستشفيات الاستثمارية ذات الخدمة الفندقية، يرقد "مجد" مُغمَض العينين داخل قميص جبس، بينما قدمه اليسرى المجبسة معلقة في حامل يتدلى من السقف، وبجوار السرير يقف المستشار "حسام البسطاويسي" وابنه "أُبيّ" وزوجته الدكتورة "نيجار" التي ترتدي البالطو الأبيض، وتستمع لكلام زميلها الطبيب المعالج لـ "مجد"، يقول:

— رغم الانفجار اللي دمر شقته وقتل أمه عايز أقول إنه محظوظ، خصوصًا إن الموجة التضاغُطية اللي نشأت عن الانفجار رمته من بير السلم قبل ما يتفرتك، ده غير إنه ساكن في دور قريب، وبالتالي خف أثر الوقعة وحصل له كسر في رجله الشمال وأربع ضلوع في قفصه الصدري، وارتجاج في المخ وشوية كدمات بسيطة بس.

يتساءل "أُبيّ" بسخرية حزينة:

- هو ده الحظ من وجهة نظرك؟

الطبيب يعدل من منظاره الطبي وهو يجيب بحرج:

— ده الحظ من وجهة نظر الطب، أي مخلوق مكانه لو كان اتحط في الموقف ده كان صعب جدًّا ينجو منه.

المستشار "حسام" بتنهيدة حارة:

- الحمد لله.

بينما قالت دكتورة "نيجار":

— ما تقلقوش يا جماعة، أنا ودكتور سيف هنشيله جوًّا عنينا لحد ما يفوق من الغيبوبة إن شاء الله ويبقى كويس.

وفجأة، يقتحم باب الحجرة "رحمة" وزميلها "براء"، والمصور الصحفي المصاحب لهما، الذي ما إن يدخل حتى يبدأ في التقاط الصور دون أي استئذان، بشكل جعل "أُبيّ" ينقضّ على معصمه ليلويه بقسوة وهو يجذب من يده الكاميرا بعنف قائلًا:

- مين سمح لك تصور؟

ثم يرفع الكاميرا ويُلقيها بعنف شديد، إلا أن "براء" يقفز ويلتقطها بمهارة، في حين تقول "رحمة" وهي تقدم نفسها بثقة وثبات:

– رحمة البدري وبراء فاروق، أول صحفيين كتبوا عن بطولة مجد في كشف قضية الرشوة، وجايين النهارده نثير الرأي العام ضد اللي حصل له، أكيد قابيل الهراس ورا كل ده.

مع نطق اسميهما، انطلق جرس إنذار في ذهن المستشار "البسطاويسي" وابنه، قبل أن يسأل المستشار وهو يعود بذاكرته إلى الوراء:

– مش انتوا بتوع جريدة المستقبل؟

"في جلسة عمومية غير عادية بنادي قضاة القاهرة: المستشار حسام البسطاويسي يهدد بانسحاب القضاة من الإشراف على انتخابات رئاسة الجمهورية إذا لم يستجب النظام لمطالبهم ويمنع التلاعُب في نتيجة الانتخابات" جريدة المستقبل - يونيو/2005

" رئيس المجلس الأعلى للقضاء ينحاز للنظام ويعلن الحرب على تيار القضاء المستقل" جريدة المستقبل - يوليو/2005

"المفاوضات الحكومية تتوصل مع نادي القضاة إلى اتفاق بموجبه يشارك القضاة في الإشراف على الانتخابات الرئاسية مع الوعد بإصلاح القضاء بعد الانتخابات" جريدة المستقبل - أغسطس/2005

"بعد منافسة هزلية بين مرشحين غير معروفين، مبارك في المركز الأول بمسرحية انتخابات الرئاسة" جريدة المستقبل - سبتمبر/2005

"رغم وعود مبارك بالإصلاح القضائي بعد الانتخابات الرئاسية، الحكومة تتراجع عن وعودها وترفض إطلاع القضاة على مشروع القانون الجديد للسلطة القضائية" جريدة المستقبل - ديسمبر/2005

"المستشار حسام البسطاويسي يروي وقائع تزوير انتخابات مجلس الشعب ويعلن القائمة السوداء للقضاة المشاركين في التزوير بالتعاون مع أمن الدولة" جريدة المستقبل - ديسمبر/2005

"رفع الحصانة عن المستشارين حسام البسطاويسي وحسين مكي ليمثلا أمام نيابة أمن الدولة للتحقيق معهما بتهمة إهانة هيئة قضائية واتهام قضاة محددين بتزوير انتخابات مجلس الشعب" جريدة المستقبل - فبراير/2006

"نقيب الصحفيين ومجلس إدارة النقابة يتضامنون مع رحمة البدري وبراء فاروق ويطالبون بمنع حبس الصحفيين في الاتهام الموجه لهما بقضية نشر القائمة السوداء للقضاة المزورين" جريدة المستقبل - فبراير/2006

"المعارضة تزحف إلى وسط البلد، نقابتا الصحفيين والمحامين وحركة كفاية والإخوان المسلمون ينضمون لاعتصام القضاة في شارع عبد الخالق ثروت" جريدة المستقبل - أبريل/2006

"قبل محاكمته بيوم واحد: توقُّف قلب المستشار حسام البسطاويسي و7 صدمات كهربائية وعملية قسطرة تُعيده للحياة" جريدة المستقبل - مايو/2006

"سليم العوا وعدد من المحامين المشهورين يترافعون عن المستشارين حسام البسطاويسي وحسين مكي وسط تضامُن عدد كبير من جماعة الإخوان أثناء المحاكمة في دار القضاء العالي" جريدة المستقبل - مايو/2006

" براءة مكي وتوجيه اللوم للبسطويسي بتهمة الخروج على التقاليد القضائية والإضرار بسمعة القضاء المصري بسبب تصريحاته

لفضائيات وصحف عن تجاوزات في الانتخابات التشريعية التي أجريت العام الماضي" جريدة المستقبل - مايو/2006

" حسام البسطاويسي: وافقت على الإعارة للعمل في الكويت لأن بقائي في مصر أصبح يُشكّل خطرًا والنظام الذي يحاربني سيسقط قريبًا" جريدة المستقبل - أغسطس/2007

" في أول حوار له بعد عودته من الإعارة، المستشار حسام البسطاويسي: إلغاء الإشراف القضائي على انتخابات مجلس الشعب 2010 يثبت نية الحزب الوطني في استمرار التزوير لتمرير مشروع التوريث" جريدة المستقبل - أغسطس/2007

"في أول حوار يخرج فيه عن صمته بعد ثورة 25 يناير، محمود أبو الليل وزير العدل الأسبق: توقيعي على قرار إحالة البسطويسي ومكي للتأديب أسوأ لحظات حياتي، وزكريا عزمي قال بالحرف الواحد، الرئيس يخبرك بضرورة إحالتهما للتأديب ودي تعليمات ولازم تتنفذ" جريدة المستقبل - مارس/2011

يعود المستشار "البسطاويسي" من ذكرياته على صوت "رحمة" وهي تقول للمصور:

- حاول تاخد كذا صورة لوشه.

لكن "أُبيّ" يرفع يده أمام عدسة الكاميرا ليمسكها بغلظة قبل أن يصيح في "رحمة":

— ما أنكرش إنكم وقفتوا مع مستشارين كتير في أزماتهم.

يترك كاميرا المصور ثم يتقدم نحوها متابعًا:

- بس لو عايزة تخدميه فعلًا زي ما خدمتي غيره، اختاري الطريقة المناسبة.. اللي ما يشوفش من الغربال يبقى أعمى.

تهوى كلماته كالإعصار على "رحمة" فتبتسم بدموعها وهي تفرد عصا المكفوفين قائلةً:

- أهنيك على فراستك، أنا فعلًا ما بشوفش.

"أُبيّ" ينظر لعينيها بصدمة قبل أن يتابع بغضب وهو يشير لجسد "مجد":

— والمفروض إني أتعاطف معاكي وأسيبكم تصوروه وهو بالشكل المزري ده، عشان تكتبوا فوق صورته انفراد وتحتها أساميكم بالبنط العريض، مش كده؟

هنا حان دور "براء" في الإجابة ليقول بصرامة وهو يقف خلف "أُبيّ":

— تقرير المعمل الجنائي أكد إن اللي حصل لمجد مجرد انفجار في أنبوبة الغاز، ونفى إنه يكون حادث بفعل فاعل، مع إن كلنا عارفين إنه مُدبّر.

الصدمة ترتسم على وجه المستشار "أُبيّ" ووالده وهما يلتفتان لـ "براء" غير مصدقين ما قال، بينما تتقدم "رحمة" نحو "أُبيّ" بخطوات بطيئة وهي تمسك بعصاها وتتابع:

— للعدالة ضحايا كتير أولهم مش ابن خالتك، ولا هيكون آخرهم، منهم اللي دفع التمن بموت أهله قدام عينه، ومنهم اللي دفع عينه ذات نفسها، ومنهم اللي دفع الاتنين مع بعض.

"أُبيّ" يسرح في كلماتها وقد عجز عن الكلام، بينما يقترب "براء" من "رحمة" ويمسك بيديها قائلًا وهو يوجّه حديثه للمستشار "حسام":

— قول لابنك يا فندم إننا أكتر صحفيين مش بيدوروا على انفرادات وخبطات قد ما عندنا هدف إن قضاءنا يبقى نزيه وشامخ بجد، واللي حصل لأستاذ مجد هيبقى نقطة سودا في توب العدالة إلا لو

حقه رجع واتعرف مين المسئول عن محاولة قتل قاضي شريف قدر إنه يوقع أكبر رجل أعمال في البلد، سلامه عليكم.

لينصرفا، ومعهما المصور، بينما ينظر "أبيّ" لجسد "مجد" الفاقد الوعي ولا ينبس ببنت شفة.

* * *

في جهاز الأمن الوطني يدلف المقدم "أمل" إلى مكتب اللواء "ماجد بهجت" الفخم الواسع الذي يشير إلى علوّ منصبه وأهمية وضعه.

اللواء يجلس على مكتبه الضخم الموضوع عن يساره علم مصر، وخلفه صورة كبيرة للفظ الجلالة، وقد حنى ظهره للأمام يطالع بعض الأوراق باهتمام، وقد أكسبته نظارته الطبية وشعره الأبيض الناعم وسامة ووقارًا بعد أن أخذ الأمان من الرئيس ورحلت عنه هواجسه ليسترد هيبته المفقودة، بينما أعطى مظهر قميصه مشمر الساعدين انطباعًا بالنشاط والهِمّة والحيوية، بينما نجد جاكت بدلته مُعلقًا على شماعة خشبية أنيقة إلى جواره.

كل هذا يلمحه "أمل" من أول وهلة عند دخول المكتب، وهو يؤدي التحية العسكرية قائلًا باحترام شديد:

- تمام يا فندم.

رئيسه يشير له بالجلوس بإشارة صامتة دون أن يرفع عينيه إليه، ودون أن يهتم بالرد على التحية العسكرية وقد انشغل بقراءة أوراق أحد الملفات.

"أمل" يفك أزرار جاكت بدلته، ويجلس على المقعد المقابل لمكتب رئيسه دون أن يسند ظهره، إذ جلس في وضع التأهب وقد شبك أصابع كفيه وأخذ يراقب ملامح رئيسه باهتمام، بينما يقلب رئيسه بعض الأوراق في الملف الذي يقرؤه باهتمام مماثل، قبل أن تدوي طرقات خافتة على باب المكتب ليدلف الساعي إلى المكتب سائرًا بهمة ونشاط وهو يحمل صينية بها فنجان فارغ، وكوب مملوء بالماء، وكنكة بها قهوة، وما إن يصل للمكتب حتى يقوم بصب القهوة في الفنجان بحرص محافظًا على الـ"وش"، ثم يضع إلى جواره كوب الماء ويأخذ الصينية وينصرف في نفس اللحظة التي يغلق فيها اللواء "ماجد" الملف ويخلع نظارته الطبية ليقول لـ "أمل":

– في هوجة الثورة والهجوم اللي حصل على مقار أمن الدولة، انعطل شغلنا لفترة سابت الفرصة لعدد كبير من العناصر الإجرامية إنها تدخل البلد من غير ما نرصدها ونخليها تحت عنينا، وبعد ما اتشكل جهاز الأمن الوطني وبدأنا نلملم أوراقنا من جديد، عملنا مسح لكاميرات المطار في الفترة اللي كان شغلنا فيها واقف عشان نعوض اللي فاتنا ونعرف مين اللي دخل البلد ويستحق إننا نرصده، ساعتها اكتشفنا دخول مجموعة من العناصر المخربة، وبالبحث والمتابعة عرف جهاز الأمن الوطني إنهم على علاقة برجل الأعمال قابيل الهراس المحبوس دلوقتي على ذمة أكتر من قضية بعد ما وقّعه القاضي مجد الدين مهران، ويمكن يكونوا هم المسئولين عن الانفجار اللي قتل والدة مجد رغم إن تقرير المعمل الجنائي بيقول غير كده، لو الهراس فعلًا هو المسئول عن اللي حصل فمعنى كده إن فيه تصفية هتحصل الفترة الجاية لخصوم تانيين ليه بشكل هيعمل زعزعة في استقرار البلد.

قبل أن يلتقط رئيس "أمل" ملفًا من سطح مكتبه ويسلمه لـ "أمل" قائلًا:

– عايزك تعرف السر ورا الموضوع ده وتخلّي آسر ابن قابيل الهراس تحت عينك، واضح إن فيه كارثة بتتدبر في الخفا.

"أمل" يستلم الملف، ثم يلمح على مكتب رئيسه جريدة "المستقبل" التي يتصدر صفحتها الأولى الحادث الواقع على "مجد"، فينظر بتأثر لصورته وهو فاقد الوعي من جراء الانفجار، وقد ارتدى قميصًا من الجبس، ثم يقول لرئيسه:

– تحت أمرك يا فندم، اعتبر الموضوع منتهي.

* * *

الفصل الرابع

تطلَّع المستشار "حسام البسطاويسي" إلى الأطباق التي مسحها ابنه "أُبيّ" على مائدة العشاء، قبل أن يتساءل بدهشة:

– انت أكلت كل العشا اللي فضلت أحضره لمدة ساعتين؟ الله يخرب بيتك، أومال مراتك لما ترجع من المستشفى هتاكل إيه؟

ليُجيبه "أُبيّ" وهو يتناول آخر دبوس دجاج:

– نيجار بترجع من المستشفى عايزة ترمي على السرير وبس، مافيش وقت تاكل، مفيش وقت تغير هدومها، وطبعًا مافيش وقت لقلة الأدب!

يعدم المستشار بوادر ابتسامة حاولت أن ترتسم على شفتيه قائلًا بجدية مُصطنعة:

– اختشي يا ولد، وبعدين مش انت اللي قلت لها لازم تستمري في شغلك عشان ما بحبش الست اللي ما عندهاش مستقبل وطموح؟

– أومال كنت عايزني أشيل لوحدي مسئولية البيت ويطلع عيني في المصاريف وهي قاعدة زي الطروبش بتاكل وتشرب من شقاي؟ وخد عندك بقى عيال، وخلفة، والواد عمل، والواد سوَّى، وسيب لي مصروف البيت قبل ما تنزل، خليها تتمرمط وتحوش معايا قرشين نعرف نجيب بيهم شقة في كومباوند محترم زي الناس النضيفة بدل ما احنا عايشين معاك كده زي قرد قطع.

تتسع عيني المستشار وقد عجز لسانه عن العثور على كلمات مناسبة قبل أن يباغته صوت جرس الشقة، فيقول "أُبيّ" وهو يمضغ الطعام:

– اقعد كمِّل أكلك، نيجار معاها المفتاح.

فينظر المستشار للأطباق الممسوحة ويقول ساخرًا:

– لا أنا هتبرّع باللي فايض لبنك الطعام.

قبل أن يدوي جرس الشقة من جديد فينهض من مكانه متجهًا نحو الباب مستطردًا:

– واضح إنها مش مراتك.

وما إن ينظر من العدسة السحرية حتى تتسع عينه بدهشة وهو يفتح مقبض الباب، متطلعًا للضيف المفاجئ قبل أن يقول بلهجة من لا يصدق نفسه:

– حسين؟

قبل أن يجيبه نائب رئيس الجمهورية الجديد وصديق عمره القديم في السلك القضائي:

– عارف إنها قلة ذوق مني إني طبيت عليكم من غير إحم ولا دستور، بس طول عمرنا بنحب نفاجئ بعض، بالذات لما يكون وقت عشا.

فينظر المستشار "حسام البسطاويسي" للداخل حيث المائدة الخاوية على عروشها ويُشير لصديقه بالدخول قائلًا:

– الكلام ده لما كان أبيّ لسه صغير، دلوقتي العشا ما بقاش مكفّي، وبيفكر ياكل الأطباق الصيني والكوبايات ولو ما شبعش هيندار عليّ.

يقهقه المستشار "مكي" وهو يمر إلى جوار مائدة الطعام التي تُشعرك أن أصحابها قد خرجوا للتو من مجاعة، وما إن يراه "أبيّ" حتى يقف له احترامًا وتقديرًا، قائلًا وهو لا يزال يمضغ:

– يا أهلًا وسهلًا بحضرتك يا فندم، اتفضل معايا.

فيقول له المستشار "مكي" مبتسمًا:

– شكرًا يا ابني، اقعد كمل أكلك عشان بابا لسه بيشتكي إنك خاسس وأكلتك مش ولا بد.

– فعلًا، عشان كده بعت أجيب كباب من فرحات، أجيب لك معايا؟

– كان نفسي بس فيه موضوع أهم من الأكل عايز بابا فيه، يا ريت تعمل لنا شاي على ما الكباب ييجي.

– تحت أمرك.

قالها "أبيّ" وهو ينصرف إلى المطبخ وقد أخذ يمصمص صوابعه، بينما جلس المستشاران في غرفة الاستقبال بمفردهما، قبل أن يدخل "مكي" في الموضوع مباشرةً، قائلًا:

– بقى مصر كلها تبارك لي وانت ما يهونش عليك تهنيني حتى في رسالة؟

يتأمله المستشار "البسطاويسي" قليلًا، قبل أن يقول بلهجة ذات مغزى:

- أنا شايف إني المفروض أزعل عليك.

- تزعل عليّ؟

- طبعًا أزعل عليك، انت راجل ليك تاريخ مشرّف ومواقف كتير دفعت تمنها غالي، إزاي بعد العمر ده كله ترمي التراب على الإنجازات دي كلها وتحط إيدك في إيد الإخوان؟

- عشان لو أنا ما حطتش إيدي واستغليت وظيفتي الجديدة في خدمة البلد والشعب، غيري ممكن يقعد على نفس الكرسي ويحقق مصالحه الشخصية ومصالح جماعته، ده أمر واقع لازم نقبله ونتعايش معاه.

- كلامك بيفكرني بالمثل اللي بيقول لو جالك الاغتصاب وماعرفتش تقاومه حاول إنك تستمتع.

- حاسب على كلامك يا حسام.

- حاسب انت على تاريخك وسُمعتك، معقول فاكر إنهم هيسيبوك تشتغل زي ما انت عايز؟

- ده كان شَرطي قبل ما أقبل المنصب، ويوم ما الكلام يتغير ثق تمام الثقة إني هقدم استقالتي وهبقى برًّا القصر.

- مش بالسهولة اللي انت متخيِّلها، دخول الحمام مش زي خروجه، واللي بيخرج من القصر مستحيل يرجع في نظر الناس زي ما كان قبل ما يدخله.

- صدّقني يا حسام الناس دي مش بالسوء اللي الكل شايفهم بيه، بلاش تعمل زي الفلول وأعوان حسني مبارك اللي ما عندهمش مانع البلد تخرب على دماغنا في سبيل إنهم يثبتوا وجهة نظرهم في الإخوان، ليه ما نجربش نحط إيدنا في إيد بعض ونخلي البلد تقف على رجلها؟ خلاص نسيت اللي الإخوان عملوه معانا يوم ما كنت أنا

رجالتهم في سبيل إنهم ما ينزلوش من على الكرسي بعد ما ركبوه حتى لو الدم وصل للرُّكب.

عندها ينهض المستشار "مكي" وعلى وجهه ملامح الضيق والأسى قبل أن يقول:

– كان نفسي أخوي وصديق عمري يقف جنبي ويفهمني، أول مرة من سنين طويلة يا حسام كل واحد فينا يقف في خندق مختلف بعد ما عشنا عمرنا كله كتف في كتف.

فيُجيبه المستشار "حسام" بابتسامة ثعلبية وهو يقول بلهجة ذات معنى مزدوج:

– معلش، الظاهر إن فيه ناس لما يعدي عليها الزمن تفكيرها بيتغير.

تضيق عينا نائب الرئيس وهو يرد:

– أو يمكن كل ما كبرنا في السن، كل ما فيه حاجات لازم نرميها ورا ضهرنا.

...حدثهما "أبو" حاملًا صينية بها فنجانين قائلًا:

يهم "براء" بالتقاط الكاميرا منه ليرى المشهد بنفسه، إلا أن هاتفه المحمول يرن فجأة فيضعه على أذنه مجيبا:

– آلو

بعقد حاجبيه ثم يصرخ بشدة غير مصدق نفسه:

- **إنت بتقول إيه؟ أمتى حصل الكلام ده؟ طب أنا جاي دلوقت حالا**

قبل أن يغلق هاتفه المحمول ويردد بعين باكية:

– لا إله إلا الله، لا إله إلا الله يا ولاد الكلب يا أوساخ

فيصيح فيه "حسيني" بتوتر وقلق:

– في إيه يا براء؟

ينتحب "براء" وهو يلتفت إليه قائلا بصوت باكي:

– قتلوا جيكا يا حسيني ف شارع محمد محمود

وما أن غادرت الحروف الأخيرة لسانه، حتى شعر أن قدميه لا تقوى على حمله ليهم بالسقوط أرضا، قبل أن يحتضنه "الحسيني" في حب أخوي وعاطفة صادقة ليزيح عنه آلامه قائلا:

– أمسك نفسك يا صاحبي، اللي زي جيكا ما يتزعلش عليهم لأنهم ماتوا رجالة، وزمانهم دلوقت في مكان أحسن، الدور والباقي ع اللي المفروض يجيب حقهم ويكمل اللي بدأوه، يا نجيب حقهم يا نموت زيهم

إلا أن نقطة خضراء من أشعة الليزر سقطت على ظهره خلف موضع القلب مباشرة وهو يحتضن "براء"، قبل أن يحل محلها في اللحظة التالية طلقة جبانة غادرة جعلته يصرخ بشدة، قبل أن ينهار جسده الثقيل الضخم فوق جسد "براء" ويسقط كلاهما أرضا،

ومن مكانه وقف "صهيب" حاملا قلم ليزر صائحا في صديقه الممسك ببندقية قناصة:

– الله ينور عليك، آدي تاني كلب في الليستة

فيبتسم صديقه هاتفا بدوره:

– يا مسهل يا رب

وعلى الجانب الآخر التف العشرات حول "براء" و"الحسيني"، بينما احتضن الأول رفيق عمره وهو يصرخ في رعب، وقد هالته الدماء التي تخرج من فمه، وظهره كطوفان لا تسعه الأرض:

– حسيني، رد عليا يا حسيني، **"ينتحب صوته أكثر وينهار تماسكه وهو يبكي بحرقة أم على وليدها"** ما تبقوش إتنين في يوم واحد أبوس إيدك، لو مصمم تروح خدني معاك، مش عايز اعيش ولا أكمل أي مشواااااااار

إلا أن "حسيني" يفتح عينيه بصعوبة وقد غزا الموت ملامحه الهزيلة وهو يردد بصوت مبحوح كدجاجة مذبوحة:

– أمانة عليك ما تخليهمش يكتبوا تحت صورتي في الفيس بوك Rest In Peace، عمري ما فهمتها وبحس إنها فال وحش ع الميت

ثم تذبل عينيه ويختفي منها نور الحياة، بينما لا زالت ابتسامته الواهنة مرسومة على وجهه الميت، فيريح "براء" رأسه على الأسفلت في احترام، ثم يغلق عينيه وهو يذرف المزيد من الدموع، قبل أن ينهض بتأهب وينظر تجاه الحشود المؤيدة لمرسي، صارخا بكل ما أوتي من قوة:

– يا ولاد الكاااااااااااااااااااااالب

قبل أن يجري بأقصى سرعته وعزمه تجاه حشد المؤيدين وسط

دهشة المتظاهرين المعارضين للرئيس من جرأة وإقدام هذا الشاب ذو القلب الميت، ليتشجع بعضهم ويلقي المزيد من زجاجات المولوتوف وقنابل المونة على مؤيدي الريس.

ومن جانبه قام الطرف الأخر من مؤيدي الرئيس بالرد على الطرف المعارض بالخرطوش والبنادق الألية ليشتعل الموقف ويتحول إلى مذبحة، قبل أن يصبح "براء" في ظرف ثوان معدودة بين المؤيدين ويحدث الاشتباك وقد فقد عقله وصوابه

في مكتب الإرشاد

لا زال "جودت الناظر" يتابع أحداث الاتحادية عبر قناة "الجزيرة"، قبل أن يتلقى مكالمة هاتفية من اللواء "ماجد بهجت" رئيس مباحث الأمن الوطني، فيجيبه مسرعا:

– أيوة يا سيادة اللوا

– أيوة يا مولانا، المتظاهرين هما كمان طلع معاهم أسلحة وقتلوا ناس من عندنا، وللأسف زي ما سيادتك شايف قوات الحرس الجمهوري اتخلت عن القصر، ووزير الداخلية أمر قوات الأمن المركزي تسيب المكان، عشان كده فضيلتك أنا شايف إن رجالتنا لازم يوروهم العين الحمرا وإلا القصر هيتم اقتحامه خلال ساعات

تضيق عيني "الناظر" قبل أن يجيب بحسم:

– نفذ يا بهجت، وبالمرة خلي رجالتك تتعامل في التحرير زي ما طلبت منك

في مكتبه بجهاز الأمن الوطني، يتراقص شبح ابتسامة على وجه اللواء قبل أن يقول بسعادة:

– تمام فضيلتك، أنا تحت أمر معاليك عشان بس تعرف مين اللي ولائه ليكم بجد، ومين اللي الكرسي مش على مقاسه وما يستحقوش

من أصله

في شارع باب اللوق

الرائد "مجدي" يجلس في سيارة ملاكي مرتديا ملابس مدنية، وهو يتحدث مع المقدم "أمل" عبر سماعة البلوتوث التي يرتديها قائلا:

– ما تقلقش يا فندم، زي ما حضرتك توقعت، الضجة اللي عاملاها المظاهرات اللي مالية الميدان سهلت علينا المهمة ومحدش حس خالص بقواتنا اللي دخلت الشارع بلبس ملكي، الإرهابي اللي رصدناه هو واللي معاه دلوقت تحت إدينا، وكلها دقايق والقوات هتقتحم الشقة وتقبض عليهم، تقدر تعتبر أمرهم منتهي

يأتيه صوت "أمل" مشحونا بالانفعال:

– طب والأمانة التانية؟

يبتسم الرائد "مجدي" وهو ينظر لشاشة صغيرة في سيارته يظهر عليها "مجد" وهو يجوب الميدان باحثا بعينيه عن ذلك المشتبه به في قتل والدته، قبل أن يجيب:

– برضه صدقت توقعاتك، الظاهر إن الطُعم اللي رميتهوله جاب نتيجة، وفيه فريق دلوقت ملازمه زي خياله وبيصور كل هفوة بيقوم بيها

في ميدان التحرير

تتجه "رحمة" بخطوات مسرعة نحو شارع «محمد محمود» وهي تتوكأ على زميلتها "فاطمة" لاستكشاف أصوات ضرب النار التي صكت مسامعهما من هناك، فإذا بمجموعة من شباب 6 أبريل يحملون جسد "جيكا" الذي تغرق الدماء وجهه، ليضعوه بسرعة في إحدى سيارات الإسعاف، قبل أن يتوافد شباب مجموعات البلاك بلوك ليسأل أحدهم صديق "جيكا" الذي يحمله:

— ده ماله ده؟ إيه اللي حصل له؟

فيجيبه صديق "جيكا":

— اتضرب عليه نار من ناحية وزارة الداخلية

فيصرخ فرد البلاك بلوك غاضبا:

— يعني مفيش فايدة في الداخلية الوسخة؟ طب وحياة دين أبوهم لنعلمهم الأدب بييجي منين

ثم يخرج من طياته زجاجة مولوتوف يشعلها وبالمثل يفعل باقي زملائه ليصيح أحدهم وهو يجري مخترقا الشارع في اتجاه وزارة الداخلية:

— يالاااااااااااا

فيردد الجميع خلفه وهم يخترقون شارع «محمد محمود» في إتجاه الوزارة ومعهم قنابل الملوتوف:

— الداخلية هي هي، الداخلية بلطجية

قبل أن تنهمر على الميدان فجأة قنابل الدخان المسيلة للدموع، لتملأ المكان رائحة نفاذة وأصوات السعال، بينما يجري المتظاهرين هنا وهناك وقد اختنقوا من التأثير القلوي لغازات القنابل التي أخذت تنهش في وجوههم ورئتهم، حتى أن "فاطمة" سقطت مختنقة وهي تسعل بشدة عند ناصية شارعي «القصر العيني» و«محمد محمود»، لتفلت يد "رحمة"، وتتركها بمفردها وقد مدت يدها للأمام في عجز تام باحثة عمن يساعدها، قبل أن تنهض "فاطمة" بصعوبة وتحاول الإمساك بها، وفجأة إذا بطوفان بشري من الشباب يمسك بكلا الفتاتين ليفصلونهما إلي دائرتين.

وفي دائرتها لم تدرك "رحمة" في البداية أي شيء،لم تفهم ماذا يحدث، ولا من هؤلاء، ثم بدأت تصرخ بشدة مع إحساسها بالمئات

من الأيادي التي تجردها من ملابسها وتخترق جسدها بكل وحشية، حاولت أن تستغيث بمن ينقذها أو يساعدها، ثم اكتشفت أنه لا سبيل للنجاة، فثمة أصوات تتردد في إذنيها: «ما تخافيش إحنا معاكي، مش هنخلي حد يلمسك»، لكن ما كانت تشعر به أن دوائر الشباب القريبة منها والملتصقة بجسدها تغتصبها بالأصابع من الأمام والخلف، بل وأحدهم كان يقبلها من فمها!

في ظرف ثوان معدودة أصبحت عارية تماما لتشعر بلفحة من البرد مختلطة بأنفاس حارة تلهب جسدها، وترى بأذنيها تفاصيل يترجمها عقلها لذئاب بشرية ذو وجوه قبيحة تهتك عرضها بالتقسيط رويدا رويدا!

الكتلة الملتفة حولها تدفعها إلي الممر المجاور لمطعم «هارديز»، وكلما تحاول أن تصرخ وأن تدافع عن نفسها أو على الأقل تستنجد بمخلص كانوا يزيدون من عنفهم واغتصابهم.

حاولت أن تركض نحو اللا شيء فوقعت في مياه المجاري الموجودة أمام «هارديز» وأدركت في هذه اللحظة أن في الوقوع موتها، فقررت أن تحافظ على هدوئها طالما الصراخ يتبعه عنف أكبر، وحاولت أن تبقى واقفة تتشبث بأكتافهم وأيديهم التي تخترقها وهي لا تراهم، ليعيدوها مرة أخرى إلى الممر بجوار «هارديز»، لتقع مرة أخرى في بلاعة المجاري ذاتها وقد أصبحت عارية تماما. قبل أن يدفعها الزحام نحو مدخل عمارة مغلق، يقف خلف بابه بواب يغلق الباب جيدا.

حاولت أن تتشبث بالباب لتمنعهم من اصطحابها نحو أي مكان، فشعرت بجلباب البواب وصاحت فيه:

— أبوس إيدك أفتح الباب، "ثم صرخت بأقصى ما لديها"، أفتح بسرعة أرجوووووووووووووك، هيموّتوني

لكن الرجل هز رأسه في عجز دون أن ينبس ببنت شفة، قبل أن يحملها أحدهم بقوة صائحا:

— ناخدها وبعدين واحد واحد يا شباب!

وفجأة بدأت الكتلة البشرية تدفعها مرة أخرى في اتجاه خرابة مظلمة، في اتجاه معاكس للمستشفى الميداني، وقد فرغت طاقة مقاومتها واستسلمت لواقعها البائس بين أنياب ذئاب بشرية تنهشها وتستبيح كل ما هو خاص وسط نظرات ولمسات مليئة بالعنف، والشبق، والغريزة الحيوانية، حيث لا أحد قادر على إنقاذها من ذلك المصير المظلم الذي تطل منه على صفحة جديدة من حياتها التي ستكملها بدون غشاء بكارة، وداخلها كومة من العقد والكلاكيع النفسية، ونظرات معايرة وسخرية وأحيانا تلذذ من مجتمع سادي، مريض، لا يرحم ضحايا الشرف رغم أنه عاهر يرتدي ثوب الفضيلة!

في ميدان عابدين

صرخات مدوية تشعر أنها تخرج من امرأة ألقيت للتو في جهنم، تطلقها "فاطمة" التي انتهى بها المقام بالمثل وسط دائرة من الذئاب البشرية التي أخذتها إلى ميدان عابدين، واخترقت الأيادي فيها خلال مسافة الطريق كل ملليمتر في جسدها، لتفركه، وتداعبه، وتقبض عليه بقسوة، دون أن توقفهم الصرخات أو التوسلات، وقد ضبطوا أذانهم وضمائرهم على وضع الـSilent.

وما أن لاح ذلك المنزل القديم المهجور، حتى اقتحمته الدائرة البشرية وفي مركزها تلك الوجبة الطازجة التي استوت وصارت مهيأة للأكل

في محيط قصر الاتحادية في الجانب المؤيد للرئيس

يمسك "صهيب" "براء" من فروة رأسه بقسوة وعنف، وقد امتلأ وجهه بالدماء التي تنزف من مواضع شتى، وقد تم تعرية نصفه الأعلى من الملابس لتنتشر على كتفيه وصدره وبطنه الكدمات والسحجات، وسط عشرات شباب الإخوان الذين يصورون ما يحدث بكاميرات الموبايل، ثم يصفعه بقوة قائلا:

— لو ما نطقتش واعترفت مين اللي باعتك هنا أنا همشي وأسيبهم يتعاملوا معاك، وساعتها هتتمنى إني كنت أبقى موجود عشان أحوش عنك عذاب مفيش بشر ممكن يتحمله

ثم يهوى بصفعة أقوى وأشد تنكيلا صارخا فيه:

— مين اللي باعتك هنا وقبضت منه كام؟

ينهج "براء" ويشعر بالأرض تدور عكس اتجاهها، قبل أن يرفع عينيه بصعوبة ويقول:

— اللي بعتني هنا واحد ليه علاقة بالحزب الوطني

الجميع يهللون:

— الله أكبر

ثم يتابع "براء" بضعف:

— ياما عمل معاهم صفقات وحط إيده في إديهم عشان الانتخابات

ثم ينظر لعيني "صهيب" ويستطرد ساخرا:

— واسمه حسن البنجاوي

أحد الشباب المؤيد للرئيس يصيح دون فهم أمام كاميرات الموبايل التي تسجل الموقف تمهيدا لرفعه على اليوتيوب:

— والله واتكشفتوا يا بتوع الحزب الوطني يا أوساخ، اسمع فضيحتك يا بنجاوي الكلب بعد ما الخروف بتاعك وقع، وحياة أومك لهنجيبك من بيتك إنت وكل الكلاب اللي بيتآمروا على البلد

والدين

يبتسم "براء" ساخرا رغم ألامه، في حين تبرق عيني "صهيب" حتى يكاد أن يتطاير منها الشرر، ثم ينقض على أخوه ليلكمه بأقصى قوته في وجهه، ثم يعقب اللكمة بأخرى في بطنه لينحني "براء" في ألم، قبل أن يضم "صهيب" يديه ويهوى بهما على مؤخرة رأسه ليفقده الوعي، ثم يصيح في الحضور:

– فيه مين تاني مسكناهم وعايزين تستجوبوهم؟ أنا عايز أربي الكلاب دول بنفسي نفر نفر

في ميدان عابدين

ما أن انتهى آخر الذئاب البشرية من اغتصاب "فاطمة" في ذلك البيت المهجور، حتى أخرج مطواة دسها في مهبلها ليشجه بعنف حتى بلغت المطواة فتحة الشرج، لتطلق صرخة مكتومة من تحت تلك القماشة التي أغلقوا بها فمها، بينما يردد الذئب بصوت ساخر:

- سامحينا يا قطة، كان لازم نداري أثار الجريمة عشان ما تعرفيش تثبتي إن حد مننا عمل معاكي الصح

في مكتب رئيس مباحث الأمن الوطني

بنظرة مصاص دماء يستمتع بالتهام دم ضحيته، تابع اللواء "ماجد بهجت" ما تذيعه قناة الجزيرة مباشرة من قلب ميدان التحرير وهو يضع هاتفه المحمول على أذنه، لتظهر على الهواء تفاصيل اغتصاب "رحمة"، قبل أن يواصل حديثه في الهاتف المحمول مع "جودت الناظر" قائلا:

– وآدي فضيلتك طلبك التاني اللي أمرت بيه، الميدان خلاص اتشوه ومفيش حد بعد كده هيرضى ينزل بنته تاني هناك حتى لو رايحة مشوار مالوش أي علاقة بالمظاهرات، وكل الكتلة الصامتة من الشعب هتبص للميدان على إنه مكان للبلطجية والشمامين، "**يقهقه بسماجة ثم يستطرد**" أكيد فضيلتك طبعا بتتفرج ع الجزيرة دلوقت وشايف كل حاجة بنفسك

إلا أنه يبتلع باقي الكلام لتتسع عينيه فجأة مع ذلك المشهد الذي تنقله الشاشات لشاب وسيم يرتدي بذلة فاخرة ويقتحم بكل جرأة تلك الكتلة البشرية الممسكة بـ"رحمة" حاملا أنبوبة غاز مشتعلة أخذها من أحد الباعة الجائلين بالميدان، ليدب نيرانها في الوجوه والأجساد بلا تردد وعلى ملامح وجهه صرامة وغضب بلا حدود.

أحد المتحرشين يمسك به من الخلف ويحاول تكبيل حركته، فتسقط من يده الأنبوبة بشكل يحفز باقي الكتلة البشرية على الفتك به، إلا أنه يدفع رأسه للخلف ليحطم أنف المتحرش الذي يكبل حركته، قبل أن تطيح يده في لكمتين متتاليتين بأنف وفك متحرشين أخرين، في نفس اللحظة التي ترشق فيها قدمه اليسرى في خصية متحرش ثالث، قبل أن يمسك بالأنبوبة ويلقيها تجاه عدد من المتحرشين الذين يتقدمون نحوه لتشتعل النيران في ملابس ثلاثة منهم، قبل أن يخلع حزامه ذو الجزء المعدني الضخم ويصوبه بقلب ميت وبمهارة لا تخيب في وجوه من حوله بقوة وسرعة شديدة شقت صفهم وجعلتهم يتراجعون في قلق، قبل أن يتشجع باقي شباب الميدان على اتخاذ موقف، ليتحركوا نحو المتحرشين ويوسعوهم ضربا وركلا، بينما تقدم ذلك الشاب نحو "رحمة" العارية ليخلع جاكيت بذلته ويضعه على نصف جسدها الأعلى وهي تصرخ بآخر ما تبقى لديها من كرامة وشرف، قبل أن يربت على كتفها بصوت حنون يمتزج فيه الحنان بالصلابة قائلا:

– **ما تخافيش يا رحمة، أنا مجد**

فتتحسس يده وتتشبث بها كعصفور يختبيء في كهف دافيء

بعد أن كاد يموت بردا في الجليد، قبل أن يحملها ويسير بها نحو المستشفى الميداني ليأمر أحد الأطباء فور دخوله:

– ناولني بطانية بسرعة أغطي بيها البنت دي

الطبيب يلبي طلبه مسرعا، ويساعده على تغطية جسد "رحمة" العاري، دون أن يدري "مجد" أن هناك من يراقبه ويصور تحركاته بالفيديو لصالح جهاز الأمن الوطني، ولا أن موقفه البطولي تبثه الشاشات الآن على الهواء مباشرة عبر الكاميرات المثبتة في شرفات العمائر

وفي تلك الأثناء همت قوات الأمن باقتحام الشقة التي تقيم فيها العناصر الإرهابية المخربة، وما أن تم اقتحام منزل الشقة ودخول قوات أخرى من نافذة البيت حتى صك مسامعهم جيمعا صوت أزيز الكتروني يشبه صوت المنبه الرقمي، قبل أن يدوى في قلب شارع «باب اللوق» إنفجارا رهيبا جذب إليه انظار كل الحضور في الميدان، لينظر "مجد" و"رحمة" نحو لسان اللهب الذي طال السماء، بينما غادر الرائد "مجدي" سيارته وهو يتأمل ذلك الفخ الذي ابتلعته قواته وقضى على كل من فيها، بينما تراقص ألسنة اللهب

* * *

الفصل الثالث عشر

في مكتبه جلس وكيل النائب العام "أُبيّ البسطاويسي" وأمامه جهاز الـ I Pad الذي يعرض مقطع فيديو لأحد دعاة تيار الإسلام السياسي وهو يقول:

– شوية الجرابيع اللي قاعدين في ميدان التحرير اللي بيغتصبوا البنات، 30 بنت جردوهم من ملابسهم في ميدان التحرير، طبعا بنات واطية، هي رايحة هناك عشان كده، هي اللي قاعدة هناك دي لها أهل يلموها؟ مالهاش أهل يلموها، وشوية سفلة لصوصية مبرشمين، شوية كلاب قاعدين هناك مالهمش أي لازمة، هو مين اللي هناك يا عم؟ الفنانين والفنانات؟ ده واحدة من الفنانات اللي اسمها ليلى علوي حبت تعمل بطلة تنزل تقف وسطيهم في ميدان التحرير مرمطوها، كان فاضل لها تكة وتطلع من ميدان التحرير حامل، عشان تبقى فاهم يعني، بس، اتفرجوا ع الـنت وانتوا تعرفوا، شوية سفلة، شوية جرابيع لا ملة، ولا دين، ولا أي حاجة، وعشان كده أنا قولت مش هما دول اللي هيفرضوا إرادتهم علينا، هي المعركة دلوقت معركة تحدي، آه والله ما بين حق وباطل، عشان كده مش عايز بقى اللغة المايعة اللي أنا بسمعها بقى، أصل ممكن يعملوا، أصل ممكن يسووا، يا أخي ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض، يا راجل عيب عليكم أما تبقى شوية جرابيع زي دول هما اللي يخوفونا وهيقلقونا، أو هما اللي هيغيروا مصير البلد، أو هما اللي هيلووا دراع اللي بيحكمها، دي تبقى خلاااص، هزلت على رأي ولاد البلد، يبقى القوالب نامت والـ. دول حتى ما حصلوش أنصاص، والوساخات قامت، أنا بعلن بملء فيه أهوه، إن إحنا مفيش في نيتنا نأذي حد، لكن اللي هيرمش لنا هنخرم له عينه، ولن نسمح لأي كلب يتطاول علينا، إحنا نازلين

وعامليتها سلمية ناس محترمين، لكن وقت الجد، بالبرطوشة

قبل أن يقطع استماعه للفيديو صوت طرقات على الباب فيضغط على شاشة الـ I Pad ويوقف العرض، في حين يدخل عسكري يصطحب معه طفل صغير ذو ملامح بائسة تدل على أنه أحد أطفال الشوارع قائلا:

– المتهم عمر أحمد عمارة يا فندم

فيجيبه "أُبيّ" بلامبالاة:

– طيب روح هات لي واحد شاي سكر زيادة

– تحت أمرك يا فندم

وما أن ينصرف العسكري، حتى يخرج "أُبيّ" سيجارة من علبة سجائره ويدسها في فمه، ثم تمتد يده لالتقاط ولاعته الذهبية الأنيقة التي تشعل السيجارة في ثوان كانت كفيلة لالتقاط نفس عميق، قبل أن ينظر للطفل بقرف قائلا:

– كنت بتضرب طوب على القصر الجمهوري ليه يالا؟

– ما ضربتش يا باشا، هما اللي ضربوا علينا نار ومسكوا صحابي فضلوا يعذبوا فيهم طول الليل

– هما مين دول؟

– الإخوان

– وطبعا إنت ما سكتش وحبيت تجيب حق أصحابك مش كده؟

يصمت الطفل ناظرا للأرض، فيتابع "أُبيّ":

– طب خد حق أصحابك بمولوتوف، بخرطوش، لكن رايح ترمي شوية طوب مش هيعملوا حاجة يا ابن العبيطة؟

ينظر له الطفل بدهشة شديدة، لكنه يلتزم الصمت حيث لا يعرف إن كان وكيل النيابة الشاب يعبر عن كراهيته للإخوان حقا، أم يستدرجه بذكاء، قبل أن يردف "أُبيّ":

– أسمع يا ابني، هما كلمتين عشان مش طالبة مناهدة كتير ع الصبح، لو كنت ضربت الإخوان بجد هسيبك تطلع من هنا، هتمثل وهتعمل نفسك ملاك ما غلطش في حاجة وديني ما إنت شايف الشارع تاني، ها، قولت إيه؟

– ضربتهم يا باشا بالطوب عشان شوفتهم بيضربوا الناس ويعذبوهم

ينظر "أُبيّ" إلى موظف النيابة الذي يجلس على يساره قائلا ببرود:

– وباستجواب المتهم تبين أنه حدث، وأنكر قيامه بأي أعمال عنف، كما تبين لنا أن التحريات الواردة بشأن واقعة ضبطه منقوصة وغير مكتملة الأركان، وبناء عليه قررنا نحن أُبيّ البسطاويسي إخلاء سبيله

الطفل يفتح فمه ليبدو كتيس صغير وهو يسأل:

– يعني إيه ده يا باشا؟

– يعني إفراج يا بغل، يالا أخرج خد حق أصحابك بس من غير ما حد يعرف يمسكك تاني، لو جيت لي تاني هنا مش هرحمك، مفهوم؟

– ....

– مفهوم واللا مش مفهوم؟

– مفهوم يا باشا

* * *

مع ارتفاع أذان الظهر لعنان السماء، تناثرت كاميرات الفضائيات في مسجدي "الأزهر الشريف" و"عمر مكرم" لنقل صلاتي الجنازة الخاصة بشهداء الإخوان، وشهداء الثورة، ليبدو المشهد سينمائيا

وعبثيا على شاشات التلفاز التي تبث وقائع ما يحدث.

الألوف هنا وهناك يبدو على ملامحهم الحزن والأسى، لتبدو الكآبة والدموع قاسما مشتركا بين كلا المشهدين، وكل طرف يؤكد أن قتلاه شهداء أحياء عند ربهم يرزقون.

في مسجد "عمر مكرم" تراصت جثامين أدمنز الصفحات الثورية الذين تم اغتيالهم، مع عدد من جثامين النشطاء السياسيين الذين سقطوا بفعل طلقات رصاص حي، فيما امتلأ المسجد بزعماء المعارضة المصرية، وعدد من الرموز السياسية، وأهالي الشهداء، ورجال الإعلام والصحافة، ومصوري الفضائيات الذين صوبوا جميعا عدسات كاميراتهم نحو "فاطمة" التي بدت في إنهيار تام وهي تحتضن الصندوق الذي يرقد فيه جثمان "الحسيني" قائلة بنحيب شديد ولهجة تخرج من صميم قلبها الجريح:

— وحشتني من يوم يا حسيني، وحشتني من قبل حتى ما تفارقني وما أشوفش وشك الطيب تاني، كده برضه تمشي من غير ما نسلم على بعض؟ من غير ما أقولك لا إله إلا الله وتقول لي محمد رسول الله؟ **"يزداد نحيبها ليرتج معه صدرها ويهز حنجرتها بشدة وهي تردف بانهيار"** ده أنا لما صدقت إنك حسيت بيا وعرفت أنا بحبك قد إيه، لما صدقت إني لبست دبلة عليها اسمك وبقيت رافعة راسي في السما وحاسة إن ماحدش في الدنيا كلها قدي، تقوم تمشي قبل ما ألحق اتهنا بيك وأشبع منك؟ تمشي قبل ما نجيب بيبي ينام على السرير اللي اشتريته ليه وإنت بتقولي دي أول حاجة لازم نجيبها في شقتنا عشان أنا مستعجل على حتة عيل يبقى حتة مني ومنك؟ تمشي وأنا محتاجة لك تقف جمبي بعد اللي حصل لي في غيابك عني؟ يا ريتني سمعت كلامك وما نزلتش، وياريتك وفيت بوعدك وما روحتش، كنت بتضحك عليا وتقول إن نزولنا مش هيغير حاجة، **"تبرق عينيها وتتجمد فيها الدموع وهي تأخذ نفسا عميقا ثم تردف"** لكن لأ يا حسيني، نزولنا هو اللي هيغير كل حاجة، أنا واللي زيي خلاص ما بقاش عندنا حاجة ممكن نخسرها، مبقاش عندنا حاجة ممكن توجعنا أكتر من الوجع اللي اتوجعناه، والوقت الجاي وقت تصفية الحسابات وأخد الحق، وهما اللي لازم يخافوا عشان عندهم حاجات كتير أوي لسه هيخسروها، وحياة روحك ودمك يا حسيني لهيدفعوا التمن غالي أوي، وكل ما أعمل فيهم كارثة أو مصيبة هستنى زيارتك ليا في المنام عشان أعرف إنك راضي عني، وتوصف لي إحساسك وإنت شايف حقك وهو بيتاخد

وإلى جوارها جلست "رحمة" بملامح جامدة بعد أن فقدت القدرة على البكاء والبوح!

نظرة عابرة على ملامحها الواجمة المصدومة كانت كفيلة بإنبائك أن وصلة المشاعر ودائرة الأعصاب لديها قد احترقت تماما حتى أنها أصبحت غير قادرة على الفعل أو رد الفعل!

صارت الحاضر الغائب في الحياة، كصفر على الشمال لا يغير القيم، ولا يؤثر على الأرقام.

وفي نفس التوقيت، وقف "جودت الناظر" إماما في صلاة الجنازة بجامع الأزهر الشريف، ليكبر تكبيرة الإحرام في الميكروفون وخلفه أعضاء مكتب الإرشاد وعدد من قيادات التيار الإسلامي السياسي وأهالي الشهداء لتلمع الدموع في عيني دكتور "محمد التاجي"، وتفلت من أعين عدد من قيادات الإخوان، قبل أن يصرح "محمد التاجي" بضيق أمام كاميرا الجزيرة بعد خروجه من المسجد:

— رحم الله كل شبابنا الشهداء، سواء الذين انتهينا للتو من الصلاة عليهم، أو الذين لم نتمكن من الصلاة عليهم نظرا لأن تيارات تطلق على نفسها صفة الثورية نسبتهم لنفسها وحسبتهم على معارضي

الرئيس رغم أنهم من الإخوان المسلمين، مثل الشهيد الصحفي الحسيني عبد اللطيف، والشهيد كريستي الذي ينتمي للجماعة هو وأسرته، وغيرهما من الشهداء، فيما لم تشهد الحشود المعارضة للرئيس سقوط أي شهيد أو قتيل مما يوضح الفارق الشاسع بين كلا الفريقين، ويظهر من الذي على حق، ومن الذي على باطل

وفي محيط الاتحادية، سار عدد من شباب الإخوان فيما يشبه المارش العسكري بعد الفتك بمعارضي الرئيس وفض اعتصامهم وتكسير خيامهم، ليردد الجمع الإخواني بفخر وثقة:

— عزيمة، إيمان، مرسي بيضرب في المليان

بينما أخذ البعض يستعرض محتويات خيام الثوار ويصورها بالموبايل، ليظهر أمام الكاميرا شاب إخواني ممسكا بعلبة جبنة قائلا:

— حمدين صباحي والبرادعي، البرادعي الكلب الخاين، أمريكا وأوربا، شوية الخونة اللي كانوا قاعدين هنا، جبنة نستو يا معفنيين

وفي إحدى المستشفيات رقد "براء" عاريا وهو فاقد الوعي، وقد تم توصيل جسده بالمحاليل والأجهزة الطبية، وإلى جواره جلست "رحمة" شاردة الذهن منعدمة الحيلة، فيما وقف حوله مجموعة من المصورين لتسطع فلاشات كاميراتهم على جسده المستسلم حيث لا حول له ولا قوة، قبل أن تصبح صورته في جريدة يمسكها عم "رحمة" في صالون منزله وهو يتحدث مع "مجد" بأسى:

— آدي اللي خدوه من الصحافة والنضال، واحد بين الحيا والموت والتانية بقت عايشة ومش عايشة، اللي إنت عملته يا إبني مع رحمة هفضل طول عمري شايلهولك فوق راسي، بس بستسمحك تكمل جميلك، أنا كلمت الدكتور طه أبو العزايم، باعتباره صاحبي وواحد من أشطر الدكاترة النفسيين في مصر، ونصحني إني لازم صديق مقرب منها يقف جمبها في المحنة دي، وللأسف براء زي ما إنت شايف، وفاطمة ربنا يتولاها برحمته، وأخوها مالك في أمريكا، "**تدمع عينيه ويتابع:**" بنت أخويا بتضيع مني يا مجد ومش قادر أعمل لها حاجة

يطل كل منهما على "رحمة" من خلال نصف فتحة باب غرفتها الموارب ليشاهداها وهي تعزف على الكمان لحن When Darkness Falls لـ Secret Gardens، وقد صارت ملامحها صورة حية لتجسيد البؤس والانكسار، فيما يواصل العم كلامه:

— من اليوم المشئوم وهي واخدة البيانو والكمان في أوضتها وعمالة تعزف ألحان عجيبة ورافضة الكلام مع أي حد، حاولت أطبطب عليها وآخدها ف حضني صرخت فيا، وبعدين عرفت من الدكتور إن اللي بيتعرض للاغتصاب أو التحرش ما ينفعش حد يلمسه لأنه بيبقى خايف من كل الناس، ومش طايق أي لمسة على جسمه، وقال لي كمان إني المفروض ما أعرّضهاش لأي زحمة من البشر، وأبعدها على قد ما أقدر عن التليفزيون والانترنت اللي ممكن تسمع من خلالهم أي موقف مشابه للي مرت بيه، ده غير إني ما ينفعش أسألها أي سؤال ليه علاقة بالواقعة والمفروض اكتفي بسماع اللي هي عايزة تحكيه في أي وقت من غير ما استفسر عن أي تفاصيل، دي أهم النصايح اللي لازم تعرفها، حاول يا ابني تعمل حاجة يمكن ربنا يجعل على إديك الشفا.

وداخل غرفتها، واصلت "رحمة" العزف الحزين البائس بحركات عصبية عنيفة بعصا الكمان التي أخذت تحركها في كل الاتجاهات، قبل أن تلتقط إذنيها صوت خطوات غريبة تتجول بنعومة ورفق في غرفتها، شأن كل كفيف عوضه الله بزيادة حاسة السمع عن غياب حاسة البصر، قبل أن تميز هوية صاحب تلك الخطوات وتدرك أنه

"مجد"، وعندها فقط توقفت عن العزف، وسكنت ملامحها الثائرة، غير أنها تجمدت في مكانها ومات على شفتيها الكلام، لتكتفي بالترقب والإنصات لشيء جديد من المفترض أن يتم.

ومن جانبه أخذ "مجد" يتأمل غرفتها الروز ذات التابلوهات الأنيقة التي تضم صور أبيض وأسود لسعاد حسني، وعبد الحليم حافظ، وصلاح جاهين، وأم كلثوم، ونجيب محفوظ، بخلاف شهادات التقدير التي تعانق تلك الصور على حائط الغرفة، بذوق عال وحسن اختيار يجعلك تحتار بشدة وتتساءل: كيف صنعت تلك التركيبة الساحرة فتاة عمياء، ليدور "مجد" في الغرفة حول نفسه ويرصد كل شبر فيها بإعجاب، قبل أن يجلس على الكرسي المواجه للبيانو، ثم ينظر لملامح "رحمة" البائسة وكأنها تمثال حزين تم نحته من الألم، قائلا لها بعينيه: أنا عارف دواكي، ثم يضع أصابعه برفق على مفاتيح البيانو ليعزف مقطوعة: It's Hard To Say Goodbye المنتشرة على اليوتيوب باسم Sad Piano.

ومع بدأ العزف، عادت الروح وبريق الحياة لعيني "رحمة" الميتتين، ولانت ملامحها المتجمدة لتنضم من جديد لعالمنا الذي كانت معزولة عنه، بعد أن دبت في أوصالها جرعة من المتعة جراء الاستماع لتلك المقطوعة التي تعتبرها واحدة من أجمل مقطوعات التاريخ، حيث تجلب مع سماعها أحزانا إيجابية تطرد باقي الأحزان المدمرة التي لا يمكن ترويضها أو الاحتفاظ بها داخل نفوس وأرواح البشر، وكأن علاج الأحزان أحيانا لا يكون إلا بالأحزان، وطرد الآلام لا يكون إلا بالألم، كصرخة ألم ممتعة في ممارسة جنس تطرد نيران الشهوة، وتأوه مؤلم داخل الحمام يطرد وجع البطن!

وبعد مرور 60 ثانية من بدء العزف، فوجيء "مجد" بصوت الكمان وهو يفرض نفسه على المشهد ويشارك بنغماته الحزينة، ليلتفت حيث تقف "رحمة" فإذا بها تحرك عصا الكمان يمينا ويسارا لتسير به على الأوتار في حزن، كأم تتحسس وليدها الذي مات للتو، وقد لمعت عينيها العاجزتين بالدمع، ليتشارك كلاهما في وصلة حوار حلت فيه الموسيقى محل الكلام، وتبدلت خلاله النبرات بالنغمات، لتصل المعاني الكاملة والأحاسيس الـ Pure من العقل للعقل، ومن القلب للقلب، عبر درجات السلم الموسيقي، بلا أي مصطلحات لغوية قد تكون عاجزة أو قاصرة في توصيل الفكرة وشرح المعني، والغريب أن كل منهما كان يسمع مكنونات نفس الأخر بكل وضوح، وكأنهما يمرحان في السماء كمخلوقين ينتميان لعالم الخلد حيث لا حاجة لمفردات وكلمات البشر!

وفي تأثر، سمع "مجد" صوت أوجاع "رحمة" عبر الأوتار، لتقول بعزفها مقالا موسيقيا تنبع كلماته من داخلها دون أن ترددها شفتيها:

" رغم أننا لم نلتق يومًا وجهًا لوجه، إلا أن كلانا يعرف الأخر جيدًا، حتى أننى أعتبره صديقى الأنتيم.

اعترف أن صداقتنا لا تشبه أي نوع تعرفونه أو سمعتم عنه من قبل في تلك العلاقات الإنسانية المستحدثة، التي أطلقنا عليها مجازًا "الصداقة الإلكترونية"، فصديقى المقرب لا يملك هاتفًا محمولا، وليس لديه حسابًا شخصيًا على الفيس بوك أو تويتر، كما أنه لم يقم يومًا بعمل بريد إلكترونى يتيح لي محادثته أون لاين عبر الماسنجر أو حتى إرسال أهم ما يجول بخاطرى إليه عبر البريد، وهنا تكمن عظمة وجمال تلك الصداقة التي ليس لها مثيل

لعلك ستندهش مثلى تمامًا، لكنها تلك الحقيقة التي تفوق في غرابتها الخيال حيال صديق لم تراه يومًا، لكنه يثبت لحظة تلو الأخرى، وموقف يلو الموقف أنه الأقرب إليك من أقرب المقربين،

لازلت بعد كل تلك السنين أتذكر كيف قادتنى الحماقة أنا وباقى الرفاق في خوض مغامرة مجنونة أقدمنا فيها خلال الطفولة على ركوب الخيل في حقول القرية تحت السيول الضارية، قبل أن تتحالف ضدنا الطبيعة وتنقلب الخيل علينا في لحظة نادرة خالفت فيها طبيعتها الأليفة لتتحول إلى عدو يود لو يفتك بمن يعتليها، دون أن يجروء أحدنا على التحكم في مساراتها ووجهتها، لأكتشف في النهاية أننى أنا وصديقتي التي تقود الفرس وحدنا في جوف الليل نمتطي حصانا أحمقا اختلف رد فعله عن باقى أقرانه، وقرر الإنتحار بالموت بردًا في مكانه دون أن يتحرك قيد أنملة.

لم يتأخر عنى صديقى الحقيقى الذي أحاط بما ألم بى، وقرر التدخل في لحظة اختفى فيها من حولى باقى الأصدقاء الذين كنت أظنهم حقيقيين، ليأمر الخيل أن يتحرك ويذهب بى أنا وصديقتي إلى الطريق السليم فإذا به ينصاع للأمر فجأة ويسير بسرعة هادئة لا تهددنا بالسقوط من فوق ظهره، ليصل بنا في النهاية إلى الواجهة الصحيحة، ونكتشف أن باقى الأصدقاء الذين تركونا بمفردنا لم يعودوا بعد، لأكون أنا وصديقتي البائسة سببًا في العثور عليهم وإنقاذهم!!

وقتها توقفت عن طلبى اللحوح بأن يشترى صديقى موبايل حتى أصل إليه وقتما احتاجه، بعد أن تيقنت أنه يحمل محمولًا من نوع أخر لا يتقيد استشعاره وبلوتوثه بمجال وقيود !!

صار الإتصال به معجزة المعجزات رغم بساطة الفكرة، وصارت متعة الحديث إليه لاتدانيها متعة، رغم أنى لا أحفظ رقمه، ولا أسمع صوته، لكن لا بأس من الـ S.M.S الفريد من نوعه بينه وبينى باستمرار ليمليني النصائح والإرشادات بشكل غير مباشر.

كم أنت جميل أيها الصديق العظيم، لا أصدق كيف منحتنى هذا الشرف رغم ضآلة حجمى ووضعى إلى قدراتك العظيمة، وقوتك التي لا تحتويها الحدود، حتى أننى أتساءل لحظيا لماذا تتواضع وتصادق ضعيفة مثلى؟

أتذكر كيف تمنيت وحلمت أن أكون صديقة لرئيس الجمهورية، وذهبت يومًا للقصر الجمهورى لعل الحظ يتبسم وأحظى بموعد أقابله فيه لأعرض عليه أفكارى وأحلامى التي تفيد البلاد، لكنى تيقنت في النهاية أن الصابونة هي الخيار الوحيد الذي يمنحه القصر الجمهورى لزائريه من الشعب!!

أتذكر كيف تخيلت يومًا أن يكون عمرو دياب صاحبى الأنتيم فيمنحنى آخر ألبوماته قبل طرحها في السوق، وعددًا لا بأس به من بوستراته الموقع عليها بخطه، وإنفرادى بمعرفة أحدث أخباره، دون أن يبخل علىّ بركوبة معه في سيارته الفاخرة وأنا أتفاخر بأن هذا الميجا ستار صديقي، ليتهافت الجميع على صداقتى أملًا في تحديد موعد لهم مع الهضبة، دون أن أتمكن حتى في النهاية من مقابلته لأعطيه أغنية كنت قد كتبتها له خصيصًا وتمنيت لو أهديتها له دون إنتظار مقابل مادى ولا معنوى، لأتبين في النهاية أن النجوم تحب أن تسمع صوت عشاقاها فقط من أعلى المسرح!!

كل الكبار يا صديقى الحبيب يمنحون محبيهم نفس "الصابونة" الشهيرة بدءًا من القصر الجمهورى إلى أقل نجم من النجوم، فضلًا عن باقى أنواع البشر في دائرة معارفنا من الأهل والجيران والأصدقاء، لكنك لم تمنحنى سوى كل خير على امتداد معرفتى بك لن أقل أنك دومًا تتذكرنى لأنك لم تنسانى لحظة، بينما غبت أنت عن بالى وتفكيرى لأوقات طويلة،

دائمًا ما كنت ترسل لي أرقى الهدايا والأحلام على طبق من ذهب، دون أن تنتظر منى مقابل وأنت الأعلم بضيق حالى، وفقرى، وذلى،

وهواني على الناس

أتذكر كيف كنت أتصل بك في أحلك المواقف، بأوقات متأخرة من الليل، وسط هطول الأمطار والجميع يتنعم بالدفء تحت الفراش دون أن يجروء مخلوق على إيقاظهم ليسألهم أو يطلب منهم، بينما كنت أنت دومًا في إنتظارى دون أن تكل أو تتململ، لتمنحنى رأيك الذي لا يخيب، وقدرتك اللامحدودة

صرت بك قوية، وحققت معك ما لم أحققه مع السيد الرئيس، ولا عمرو دياب، لأتيقن أن صداقتى لك لا تقارن بأي صداقة أخرى في الكون قد تنتهى في لحظة غابرة بنفس الصابونة!!

صديقى العزيز..

سامحنى، لقد عصيت أمرك ولم أنتبه إلى نصيحتك الغالية، وصرت رفيقة لعدوك الذي طالما نبهتنى أنه عدوى أنا أيضًا..

أقنعنى بخبثه ودهائه أن ما صرت عليه من قوة استمددتها منك، ونعمة أسبغتها علىّ، هي من صنع يدى دون أن يكون لك فضلًا فيها ولا نعمة

ذقت معه لذة التحرر من القيود، ومتعة إسكات صوت الضمير القابع داخلى ليحسرنى على أفعالى وأقوالى، ومع الوقت أقنعنى رفيق السوء أن صديقى الطيب ما هو إلا شخص يود لو قيد حركتى، وخنق حريتى في وصلة أوامر ونواهى لا تنتهى حتى يشعر داخله بلذة التحكم في حياتى، وجعلنى مثل الجرذ الحقير الذي يجرى طوال الوقت داخل حواجز بناها حوله سيده في لعبة إختبار الذكاء!!

صدقت رفيق السوء وقررت ألا أكون جارية، لتنقطع علاقتى بصديقى الأنتيم، وأنا أكسر كل الحواجز وأتخطى كل الحدود..

صرت أشعر في نفسى بأننى إله صغير يكاد أن يقول للشيء كن فيكون، فأنا الذي أملك المال لأشترى ما أريد، وأنا الذي في يدى السلاح لأسحق من أبغض، دون أن أفطن أن صديقى الطيب هو صاحب الفضل في تسخير كل تلك اللعب الصغيرة في خدمتي

ها أنا الآن أعود إليك نادمة، حزينة، باكية، بعد أن ضحيت بأعظم صداقة في الكون، في حين منحنى رفيق السوء نفس الصابونة إياها التي تلقيتها من البشر!!

ها أنا أجرى إتصالى المعتاد بك وخطك مفتوحًا دائمًا لا تطل علىّ منه تلك الرسالة المقززة التي تعلن في تحدى بغيض مغلف بذوق مصطنع أنه قد "نفذ رصيدكم"، إذ أنك عودتنى أن أتصل بك دومًا على حسابك ومن رصيدك الذي تحول إلىّ منه كل يوم، وكل ساعة، وكل لحظة المدد والتغطية لكيلا أنفصل عنك وأتوه في صحراء كونك الشاسع، لكننا بجهل منا وغباء تقدره جيدًا فينا اعتدنا على نزع الشريحة ورغم ذلك لم ننجح في الإختباء منك"

يتأملها "مجد" بتأثر بعد انتهاء همس خواطر عقلها، لتلتقي عينه بعينيها ويسألها بموسيقى البيانو:

"إنتي كنتي بتكلمي ربنا؟"

فتمطر عينيها وهي تجيبه بنغمات الكمان:

"أيوة، تخيل إني زعقت له واتكلمت معاه بشكل مش كويس لما حاولوا يغتصبوني، رغم كل اللي عمله معايا؟ فكرت بس في اللي جرحني ونسيت إني على الأقل مديونة له إنه بعتك ليا في الوقت المناسب قبل ما يحصل لي اللي حصل في فاطمة أو حسيني الله يرحمه، أنا مش حزينة على اللي جرالي قد ما حزينة إني إزاي أجحد بنعمته عليا وأتخطى حدودي معاه للدرجة دي"

يبتسم وصوت نفسه يتردد عبر الموسيقى:

"تخيلي لو حصلت معجزة وقدرتي تسمعي صوت النمل وتفهمي لغته، ولاقيتي نملة واقفة بتزعق لك ونازلة فيكي شتيمة، هتعملي إيه ساعتها؟"

"هضحك ومش هعمل لها حاجة لإني عارفة كويس أنا إيه وهي إيه"

"طب ولو لاقيتيها بتشتم نملة زيها وبتفتري عليها؟"

"ساعتها بس ممكن أفعصها"

يبتسم مجددا وصوت نفسه يتابع:

"أظن الإجابة وصلت"

تبتسم بدموعها وهي تتحرر من أحزانها وألامها للحظات تمنت فيها لو احتضنته وذاب الكون كله من حولهما، بعد أن وجدت فيه الدواء الإلهي الذي أرسلته السماء لشفاء روحها الكسيرة، في حين وقف العم من بعيد يراقب بدهشة ملامح إبنة أخيه وقد تبدلت تماما وصارت البسمة تعرف الطريق إليها، وهو لا يدري كيف نجح "مجد" في كسر حصارها النفسي رغم أنه لم ينبس ببنت شفة، إلا أن الخوف راوده فجأة وهو يتأمل ضحكتها متذكرا مقولة نجيب محفوظ:

عندما تتكاثر المصائب يمحو بعضها بعضًا،
وتحل بك سعادة جنونية غريبة المذاق،
وتستطيع أن تضحك من قلب لم يعد يعرف الخوف!!

وقبل أن تنعم نفس العم بالهدوء والسكينة وهو يرى البسمة تعود من جديد لملامح إبنة أخيه، ألقى "مجد" قنبلته التي أعادت القلق والتوتر للمشهد حين قال لـ"رحمة" وهو يهم بالإنصراف:

— بالمناسبة يا رحمة، إنتي كنتي حاولتي من فترة تعملي تصريح زيارة للقاضي المرتشي اللي سجنته هو وقابيل الهراس بس الإجراءات خدت وقت، مظبوط؟

— مظبوط

يبتسم وهو يقول بلهجة حاسمة:

— أنا خلصت لك التصريح عشان تكملي معركتك، لسه بدري على استراحة المحارب، ربنا يوفقك

تبتسم بحزن وهي تقول:

— كويس إنك ما قولتليش لازم تتعظي من اللي حصل لك، وحاولي تبعدي عن السياسة ووجع القلب

— عمرك ما هتقدرى تعيش حياة بترضى فيها كل الناس، لازم تختارى اختيارات انتى مؤمنة بيها مهما كانت نتيجتها

تتأمل كلماته التي زادتها صلابة، بينما يتمتم العم برعب وهو يتأمل المشهد من على بعد:

— ليه كده بس يا إبني؟ ما كان كل شيء ماشي كويس وبدأت أخيرا اتطمن ع البنت

ثم لاحت منه التفاتة للسماء عبر نافذة الصالون، ليناجي ربه أن يخفف وقع الأيام المقبلة

* * *

في مكتبه الذي يلتقي خلاله بعدد من شباب الجماعة، صاح "صهيب" بزهو:

— وبعد الأداء الهايل اللي قمتم بيه عند الاتحادية، فضيلة المرشد وكل إخوانا في مكتب الإرشاد باعتين لكم الشكر والتحية مخصوص، وبيطلبوا منا جميعا نفضل متأهبين ومستعدين لأن الخصم انهزم مؤقتا لكن لسه فيه الروح، واللي حصل هيخليه زي التور الهايج

اللي بيتحرك بخطوات أكتر قوة وهمجية، عشان كده لازم يكون رد فعلنا الفترة الجاية أشرس وأعنف لحد ما نقضي عليه تماما وما تقوملهوش قومة بعدها

وفجأة اصطك مسامعه صوت باب المكتب وهو ينفتح بغتة، ويندفع بقوة ليصطدم بالحائط قبل أن تظهر على عتبته والدته التي ظلت ترمقه بنظرات نارية لثوان خيم فيها الصمت على المكان، قبل أن ينهض من مكانه ببطء ويتأمل ملامحها التي تنبيء بما يجيش به صدرها قائلا في حرج وهو يتجه نحوها:

– خير يا أمي؟ فيه حاجة؟

فتأتيه الإجابة في صورة صفعة قوية هزت أركان المكان، قبل أن تقول الأم:

– فيه إنك بقيت حيوان ما عندوش رحمة بأقرب الناس ليه، ده حتى الحيوانات ما بتعملش كده مع بعضها!

ينظر لها في ذهول امتزج بالغضب الجارف، قبل أن تدخل المكان وتتأمل وجوه الشباب الجالسين فيه قائلة:

– معقولة إبني اللي اتربى على تعاليم الإسلام واخلاق سيدنا النبي يتحول لمسخ بالغباوة والغل ده؟ هان عليك أخوك اللي من بطن واحدة تعمل فيه كده؟ قال وأنا اللي كنت مقاطعاه عشان بيحارب أنصار الشرع والشرعية، طلع كان بيحارب شوية همج

أحد الشباب ينهض قائلا بحرج:

– طب نستأذن إحنا يا أخ صهيب ونكمل كلامنا بعدين، سلامو عليكم

لينصرف الشاب وخلفه باقي الحضور ويتركا الأم وإبنها على انفراد، قبل أن يتقدم "صهيب" من أمه ووجهه الأبيض يهم بالإنفجار من فرط الحمرة التي كسته، وقد علمت على خده أصابع الأم الخمسة، ثم يضغط على أسنانه وتبرق عينيه الجاحظة من الغضب وهو يقول:

– لسه بتعتبريه إبنك بعد كل اللي عمله معانا في السنين اللي فاتت دي كلها؟ كان لازم ياخد جزاته طالما مفيش أمل من هدايته

– وإنت وشوية القتلة اللي معاك مين هيديكم جزاتكم بعد ما إديكم اتلوثت بالدم؟

يجيبها بغل وشراسة:

– العين بالعين، والسن بالسن، وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ

تهز رأسها بحزن، وتفلت من عينيها دموع ساخنة وهي تقول باكية:

– يا خسارة، كنت بتمنى أقابل ربنا عشان يجازيني عنك خير، ويكافئني على إني ندرت إبني للإسلام، لكن يظهر إني لازم أدعيه من كل قلبي إنه يأخر أجلي، لحد ما ألحق استغفره على إني ربيت جاهل أخطر على الإسلام من كل خصومه وأعدائه، من النهارده لو ما توبتش لربنا وسيبت السكة ديه لا إنت إبني ولا أعرفك

ثم غادرت المكان بخطوات سريعة وقد كَرِهَت أن تبقى فيه لحظة واحدة، حتى لا تشتم رائحة الغدر والخسة والنذالة، وتتجنب أن ترى في جدرانه الغد المظلم الذي يهدد مصير فلذتي كبديها

* * *

في قاعة الدور الأول بباخرة سياحية فاخرة تبحر في قلب النيل، راحت راقصة شهيرة من راقصات قناة الـ"تت" ذات المواصفات الصاروخية تلهب غرائز الحضور من رواد ذلك الفرح الفخم الذي

أقامه أحد قيادات المجلس العسكري السابق بمناسبة زفاف نجله على كريمة أحد قيادات جماعة الإخوان المسلمين، ليحل كبار رجال الدولة ضيوفا، وقد تجاهلوا مناصبهم الرفيعة ووقارهم الذي يظهرون به أمام الشاشات، ليتنافسوا على الرقص والتجاوب مع ذلك الميني نووي من طراز عابر القارات لإثبات قدرة كل منهم على "الردع"!

وفي تلك الأثناء كان هناك على سطح الباخرة حديثا لا يستمع إليه أحد بين اللواء "ياسر حجازي" كبير الياوران، و"براء" الذي وضع يده اليسرى المجبسة في حامل للذراع، وقد سيطرت على ملامح وجهه الكدمات الزرقاء، بعد أن حلق شعره على الزيرو تماما ليعالج موضع الشعر الذي تم تمزيقه ونزعه من فروة رأسه ليلة التعذيب في أحداث الاتحادية، ليقول له اللواء "حجازي" بوقار:

— آخر حاجة كنت أتوقعها في يوم من الأيام إني أحط إيدي في إيد صحفي وأديله أسرار خطيرة ممكن تكون رقبتي قصادها، بس إنت أثبت لي إنك نوع نادر جه بالغلط في الفئة المنحطة من تجار الكلام اللي ما بيختلفوش من وجهة نظري عن القوادين وتجار المخدرات، بالعكس، القواد وتاجر المخدرات واضحين ومتصالحين مع نفسهم، لكن الصحفي من دول ممكن يتاجر بالقيم والمبادىء وهو بيختلق الكدب والأزمات عشان يزود توزيع جورناله، ده غير الكتاب الكبار اللي بيحاربوا الفساد طالما مش بينوبهم من الحب جانب، وبمجرد ما يقبضوا التمن بتتبدل مواقفهم في ثانية أو على الأقل يغموا عنيهم عن الغلط اللي كانوا بيحاربوه، حتى في تعاملات الصحفيين الصغيرين مع بعض بتشوف أوسخ أنواع الحرب القذرة اللي بيستغلوا فيها النميمة والخوض في الأعراض عشان يكسروا عضم بعض لحد ما مجموعة رخيصة منهم هي اللي تنول رضا رئيس التحرير وتتعين وتاخد كارنيه النقابة، ولولا العلقة المحترمة اللي خدتها من أخوك وجماعته ماكانش ممكن أثق فيك، إنت وصاحبك الله يرحمه طلعتوا رجالة بجد، ولو عشرة في المية من صحفيين مصر في إخلاصكم ووطنيتكم ما كانتش الصحافة لمت وبقت مهنة من لا مهنة له

يجيبه "براء" بعينين صارمتين وبلهجة حازمة:

— أشكرك يا فندم بس تعميم سيادتك مش في محله، لكن على كل حال أنا مقدر كلامك لأني وقعت في نفس الغلط زيك بالظبط، لما تصورت إن مفيش حد في القصر الجمهوري ممكن يكون ولائه للشعب والبلد، وإن أصحاب المناصب العليا مجرد كلاب سلطة ولائهم للحاكم وبس

تضيق عيني كبير الياوران قائلا:

— إنت كنت هتدفع التمن حياتك عشان موقف كنت ولا زالت مؤمن بيه، وأنا النهارده بغامر باسمي ومنصبي ويمكن حياتي وحياة عيلتي عشان البلد ما تتباعش بالشكل الرخيص اللي شايفه بيتم قدام عيني

— كلنا عارفين البلد بتتباع إزاي

— اللي إنتوا تعرفوه حاجة، واللي أنا عارفه حاجة تانية خالص، القصر الجمهوري أثبت لي إن الدنيا زي الميزان، بترفع الناقص!

ثم يمد كبير الياوران يده في جيب بذلته ليخرج علبة اسطوانات ويسلمها لـ"براء" قائلا:

— بعد ما مرسي نجح في الانتخابات، طلب من اللوا ماجد بهجت كل التسجيلات والملفات اللي تخص جماعة الإخوان المسلمين في أمن الدولة عشان يخفي ماضيهم القذر ومحدش يعايرهم بيه،

وبمجرد ما ماجد بهجت نفذ الأمر وجاب معاه كل الملفات في القصر وسلّمهم للريس في مكتبه، قدرت آخد نسخة منهم من غير ما حد يحس، ولقيت من ضمن التسجيلات دي مكالمات حصلت يوم 28 يناير بين مرشد الإخوان وقيادات في حماس بتؤكد إنها هتقتحم السجون حسب خطة محددة عشان تهرب القيادات الإسلامية ومن ضمنهم الريس نفسه لما كان محبوس ساعتها، وده بيؤكد إن الإخوان وحماس متورطين في حرق الأقسام وقتل الظباط وبالتالي مكانهم الحقيقي هو السجن مش كرسي الرئاسة، ده غير تفاصيل دقيقة كتبتهالك في ملف Word عن كواليس إصدار الإعلان الدستوري اللي قسم البلد، وطريقة طبخه بين الريس ومستشارين قانونيين في حزب الحرية والعدالة، وأسرار تانية بتخص سلق الدستور الجديد والتحالفات اللي حصلت بين الإخوان والجماعات الإسلامية والسلفيين مقابل الوعد بحتة من التورتة لكل فصيل هيحط ايده في إيدهم

يأخذ منه "براء" الاسطوانات المدمجة ويدسها في طيات ملابسه عاقدا حاجبيه في ضيق شديد، بينما استطرد كبير الياوران:

– أنا فعلا كان ولائي للريس وبس، بس عمري ما كنت كلب سلطة قد ما حاولت أراعي ضميري وأدي الناس دي فرصة عشان تشتغل وتفيد البلد، وبمجرد ما اتأكدت إن البلد رايحة ف داهية على إيديهم وعرفت تفاصيل المؤامرة، غيّرت موقفي تماما وقررت أخوض المغامرة وزي ما تيجي تيجي، المهم إننا ننقذ ما يمكن إنقاذه

– إن شاء الله يا سيادة اللوا مش هيلحقوا ينفذوا مخططهم، ووعد مني إن اسم سيادتك هيفضل بعيد عن كل التفاصيل والمعلومات اللي هنشرها للرأي العام الفترة الجاية، وإذا كانوا فاكرين إنهم بقوا في أمان عشان سيطروا على جهاز الأمن الوطني، فغضبة الشارع أخطر مليون مرة من كل الأجهزة السيادية

* * *

ارتسم الذهول بأعتى صوره على ملامح المقدم "أمل" وهو يتابع مانشيتات جريدة "المستقبل" التي سجلت إنفرادات خطيرة كانت مثار الرأي العام المصري والعالمي

– هكذا تدار مصر من قلب القصر الجمهوري

– كواليس الساعات الأخيرة قبل صدور الإعلان الدستوري،ودور جودت الناظر وحزب الحرية والعدالة في وضع بنوده

– مفاجأة: ننشر صفقات الإخوان المسلمين مع نظام مبارك بعد أن أمر مرسي بإخفاءها من الأمن الوطني وحرقها فور وصوله للحكم

– بالتسجيلات: نص المحادثات التي تمت بين مرشد الإخوان وقيادات حماس ليلة جمعة الغضب وبها مخطط حرق الأقسام واقتحام السجون

– سؤال الساعة، هل اخترق الإخوان جهاز الأمن الوطني وقاموا بتجنيد رئيسه؟

كانت المانشيتات كفيلة بأن يتلامس حاجبي "أمل" المنعقدين، وهو يهز رأسه في ضيق شديد غير مصدق ما يقرأ، قبل أن تصك مسامعه هتافات معادية للقضاء من وقائع مظاهرات تذاع على تلفاز مكتبه من أمام المحكمة الدستورية العليا التي حاصرها أنصار الرئيس مرسي حتى يمنعوا القضاة من أداء عملهم والبت في قضية حل اللجنة التأسيسية للدستور، فيتأمل المظاهرات للحظات يوجه بعدها الريموت كنترول للتلفاز غالقا شاشته ثم ينظر باستكار للرائد "مجدي" متسائلا بدهشة شديدة وهو يشير للصفحة الأولى

بجريدة المستقبل:

— إنت قريت الكلام ده يا مجدي؟

— قريته يا فندم وكل حرف فيه منطقي

يعقد "أمل" حاجبيه لبرهة وهو ينظر نحو اللا شيء، قبل أن ينظر لعيني "مجدي" قائلا:

— ورغم كل ده، أغلبية الشعب وثقت فيهم وإدتهم أصواتها

يبتسم "مجدي" ويقول ساخرا:

— مستنى إيه من شعب تقول له النمرة غلط، يقول لك أومال مين معايا؟!!

ينهض "أمل" من مكانه قائلا:

— طب ما تيجي نعمل محاولة أخيرة نتأكد بيها إذا كان المنشور ده صح واللا كلام جرايد؟

— إزاي يا فندم؟

— عايزك تجمع لي كل ملفات الإخوان اللي كانت عندنا، خصوصا المتعلقة برئيس الجمهورية أيام ما كان معتقل

— ولو ما لقيتهاش؟

— يبقى البلد بتتسلم تسليم أهالي، وساعتها قبل ما ندوّر على العناصر الأجنبية المخربة، لازم نلحق العناصر بنت الحرام اللي جوّه

* * *

في مكتبه بالقصر الجمهوري، جلس رئيس الجمهورية مع وزير الدولة للشئون القانونية والمجالس النيابية ليقول الأخير بسعادة وحماس:

— ألف مبروك يا ريس، الأغلبية قالت نعم على الدستور

ليجيبه الرئيس بغرور:

— مبروك على البلد، كفاية إن خبراء القانون قالوا عليه من أعظم دساتير البشرية، وبما إنك كان ليك دور كبير في صياغته والدفاع عنه لحد ما شاف النور، يبقى لازم تتكافيء

يتنحنح وزير الشئون القانونية قائلا:

— مكافئتي يا فندم إن بلدي تتحط على المسار الصحيح لحد ما تبقى أعظم بلد في الدنيا

يبتسم الرئيس بخبث ويتابع:

— حيث كده بقى يبقى الطلب اللي هطلبه منك هو المكافأة اللي تستحقها فعلا

يرتسم الشغف على ملامح وزير الشئون القانونية قائلا:

— طلب إيه يا فندم؟

يجيبه الرئيس من خلف نظارته الطبية:

— عايزك تقدم استقالتك

— إيه؟!!

— ما تتخضش أوي كده، دي خطوة تكتيكية مفيش قدامي حد أقدر أعتمد عليه فيها غيرك

— مش فاهم يا فندم

— أنا أفهمك.. بعد ما أغلبية الشعب وافقت على الدستور وبقى أمر واقع، بقى الطريق مفتوح قدامنا في انتخابات مجلس الشعب وتشكيل الحكومة، لكن لسه فيه سلطة واقفة لنا زي الشوكة في الزور وممكن تعاكسنا

— قصد سيادتك السلطة القضائية؟

— الله ينور عليك، عشان كده لازم نقصقص ريشها ونطوعها الفترة الجاية قبل ما نعمل أي خطوة جديدة، وده مش هيتم غير لو استبعدنا رجالة مبارك من القضاء وجبنا رجالة مخلصين تبعنا عشان يساعدونا في مشاريعنا

— وإيه الدور المطلوب مني بالظبط؟

— بجانب إنك موسوعة في القانون، فيه عندك ميزة تانية مش عند غيرك، وهي إنك محسوب على حزب الوسط ومش منتمي لحزب الحرية والعدالة، وبالتالي أي مشروع قانون هتقترحه الفترة الجاية في مجلس الشورى ماحدش هيقدر يقول عليه مشروع إخواني

يتحسس وزير الشئون القانونية رابطة عنقه ويفكها قليلا قائلا:

— فهمت، سيادتك عايزني استقيل من منصبي، وبعد الاستقالة يكون ليا نشاط سياسي في مجلس الشورى أقترح من خلاله مشروع قانون جديد لإصلاح السلطة القضائية، لغاية ما يتمرر ويتوافق عليه، وساعتها نعين قضاة تبعنا عشان ما تتعارضش أحكامهم مع سياسة وأهداف الدولة

— بالظبط، وبكده نخلص من فلول مبارك ونطهر القضاء بحق وحقيقي، ما تنساش إن مبارك عمل تعديل للقانون ومد فترة عمل القضاة كرشوة مقنّعة عشان يكسب ولائهم، ويضمن إن ليه رجالة بتنفذ توجيهاته، ودورنا الفترة الجاية إننا نصدر قانون يقلل مدة بقائهم عشان نتخلص منهم بسرعة وندخّل مكانهم رجالتنا

يسرح وزير الشئون القانونية قليلا مع الجملة الأخيرة قبل أن يتمتم وكانه يحدث نفسه:

— بس قانون زي ده هيهيج القضاة والمستشارين، ومش بعيد يستغله خصومنا في التشهير بينا وشحن الشارع ضدنا

يبتسم الرئيس بثقة قائلا:

— ما تقلقش، قابيل الهراس الملياردير المعروف عرض علينا صفقة عشان يخرج من السجن، وفي المقابل هيتنازل عن جزء كبير من ثروته وهيدينا هدية هنستغلها كويس ضد كل رجال السلطة القضائية

— هدية إيه؟

— سي دي عليه معلومات خطيرة عن تنظيم سري بيضم قضاة ومستشارين بيقوموا بأعمال مخالفة للقانون، واسمه نبض العدالة

تتسع عينا وزير الشئون القانونية قائلا بذهول:

— معقول الكلام ده؟

يضحك الرئيس قبل أن يتابع بمكر:

— شوف إنت بقى لما الشارع يكتشف إن رجال القضاء الشامخ عاملين رباطية وبيفصّلوا الأحكام على مزاجهم، وبالتزامن مع ده هننشر في جرايدنا ومواقعنا تسعيرة القبول في اختبارات النيابة لحد ما الناس تبقى مهيأة لظهور بطل ينقذها من فساد القضاة والمستشارين، وساعتها نضرب ضربتنا ونصدر القانون الجديد بتاعنا، ووعد مني إن الحزب بتاعك هيكون ليه حقائب وزارية لو المخطط ده تم على أكمل وجه، ومش بعيد إنت اللي تشكل الوزارة الجديدة

* * *

في غرفة مأمور السجن تتحدث "رحمة" مع القاضي المرتشى على إنفراد، حيث يظهر الحزن والندم على ملامح وجهه الذابل، الذي صار أكثر شحوبا وضعفا، وقد نبتت لحيته وغزاها الخضار، في حين

انقبضت عينيه للداخل وحل حولهما هلالين من اللون الأزرق، بينما تقول له "رحمة" بصرامة:

— يمكن أنا وبراء أكتر ناس هاجمناك إنت والهراس، بإعتباره رجل أعمال فاسد وإنت قاضى مرتشى، بس على الأقل كنا واضحين ف موقفنا، مش زي الهراس اللي حب يبيعك وسلم لوكيل النيابة من وراك CDبيعزز موقفه القانونى وبيسعى من خلاله إنه يكون شاهد مَلِك

القاضى المرتشى تتسع عيناه في إرتياع وقد سمح لأحاسيسه الداخلية بالإفصاح عن نفسها مستغلا انعدام بصر "رحمة"، قبل أن يستجمع شتات فكره ويقول بتهرب:

- CD إيه اللي بتتكلمى عنه؟ أنا مش فاهم حاجة

تبتسم "رحمة" بمكر مماثل قبل أن تقول وكأنها لم تسمعه:

— لو اللي في دماغى صح وفيه سر بيجمعكم إنت والهراس على الـ CD اللي سلمه فأكيد هيكون معاك نسخة تانية إنت مخبيها ليوم زي ده، أي حد ذكى ف مطرحك أكيد كان هياخد احتياطه ويعمل أكتر من نسخة، مقدرش أوعدك لو سلمتنى النسخة اللي معاك إنى هطلعك، لكن أقدر أحلف لك إنك مش هتبقى هنا لوحدك، ولو الهراس بيخطط إنه يطلع منها ويسيبك هخليه يفضل معاك، وزى ما فضحتك قدام الرأي العام هتكلم عن دورك في التكفير عن ذنبك، أكيد لو ماكانش ده فارق معاك هيفرق مع مراتك وولادك اللي مش قادرين يرفعوا عنيهم في وش حد بعد اللي عملته، ولو فعلا ماتعرفش حاجة عن الـ CD ف أديك عرفت، ويا ريت تفكر معايا بدل ما تشيل المشاريب لوحدك، قولت إيه؟

يسرح القاضى في كلماتها طويلا، قبل أن يحدثها بشرود وكأنه يحدث نفسه بصوت عالى كالمسحور:

— طالما مفيش فايدة والهراس عايز يغدر يبقى مبدهاش، بس إيه اللي يضمن لي إن إنتى كمان ما تغدريش؟

— لو كان ليا في الغدر والبيع كنت قبلت رشاوى كتير ياما اتعرضت عليا عشان ما اكتبش على أصحابها، أنا عايشة عشان هدف أغلى عندى من ملايين الدنيا، وزى ما بصيت للعار اللي عملته أكيد هقدّر الحاجة الصح لو عملتها، مفيش بينى وبينك تار

لم يعرف السبب الذي جعله يثق في كلامها لهذا الحد، إلا أنه أيقن صدقها ووافق على البوح، ليقترب منها قائلا:

— فيه نسخة تانية أنا شايلها في خزنة سرية في البنك، محتاج ورقة وقلم عشان أكتب لك كل التفاصيل، الموضوع مش سهل

* * *

في مطعم Bella الإيطالي بفندق الفورسيزونس، جلس "آسر الهراس" مع الناشط السياسي "مدحت أبو عابد" بعد العاشرة مساءا في الـNile view وهما يتناولا طبقي الفوكاشيا والتشياتاتا مع شوربة المنستروني وبعض أطباق الحبار والبنجر، وفي الخلفية تعزف نغمات موسيقية أضفت سحرا على العبق الإيطالي الذي يملأ جنبات المكان ذو الأرضيات والحوائط الخشبية الفاتحة التي تلمع بفعل الأباليك المنبعثة منها إضاءة خافتة تضفي الهدوء والسحر على رواد المكان، قبل أن يقول "الهراس" الصغير:

— كل الدعم والتمويل اللي طلبتهم موجودين، بس إيه اللي يضمن إن شباب البلاك بلوك هينفذوا تعليماتك بالشكل اللي حكيتهولي؟ ماتنساش إنهم مجرد شباب طايش ومش محترف ده أولا، ثانيا همّا متصورين إنهم بيخدموا البلد ومستحيل ينفذوا عمل تخريبي زي ده؟

— ومين قال إنهم هينفذوا بنفسهم؟ إحنا هنستخدمهم كتمويه مش أكتر، لكن في الناحية التانية هيكون فيه محترفين هينفذوا كل حاجة زي ما اتفقنا لحد ما قابيل بيه يخرج بسلام

— برضه مش متطمن، ماتنساش إن العيال دي ميكس من الألتراس، على شوية شباب من الكنيسة، على قرايب وأصحاب للي ماتوا في أحداث زفت 25 يناير، يعني مفيش Harmony بينهم

— بالعكس، كلهم على اختلاف ثقافاتهم وانتماءاتهم عندهم رغبة كبيرة في الانتقام والتار، كل اللي محتاجه إنك تشاور على أي جهة مش عاجباك وتقول لهم هي دي العدو اللي تاركم عنده وهمّا هيقوموا بالواجب

يدس "الهراس" الصغير الشوكة في آخر قطعة تبقت من طبقه، قبل أن يقضمها وهو يتأمل كلام "أبو عابد"، ثم يرفع كفه الأيسر أمام الجرسون طالبا الشيك بلهجة إيطالية قائلا:

- porta il conto

يهز الجرسون رأسه بابتسامة مهذبة تنم عن احترامه الشديد، قبل أن ينصرف لإحضار الشيك، فيما نظر "الهراس" لساعة يده قائلا بحسم:

— أنا قدامي عشر دقايق وهقابل واحد صاحبي في البار، عايز حاجة قبل ما أمشي؟

— العفو يا آسر بيه، بُس يا ريت الـ.

يقاطعه "الهراس" الصغير بورقة يخرجها من جيبه ويضعها على المائدة قائلا:

— ده شيك بالمبلغ اللي طلبته، وطبعا مش محتاج أنبهك إن أي غلطة تمنها هيبقى غالي أوي، لو قعدت عمرك كله تسدده مش

هيكفي

يلتقط "أبو عابد" الشيك بسرعة ويدسه في بذلته، ثم ينهض وقد فهم أن المقابلة انتهت ليقول في حسم:

— ما تقلقش يا فندم، كل حاجة محسوبة بالمللي، وأهم قاعدة في شغلنا إن نسبة الغلط فيه لازم تكون Zero

* * *

في منطقة وسط البلد، يقف دار القضاء العالى محاطا بالعديد من شباب أولتراس النادي الأهلي، وهم يرددون هتافاتهم التي تطالب القضاء بسرعة القصاص من قتلة شهداء مذبحة بورسعيد، ويرفعون شعاراتهم التي تطالب بإقالة النائب العام وتطهير القضاء.

وفي غمار ذلك كان هناك تكدس مرورى أمام الدار، تسببت في حبس الركاب داخل سيارتهم، ومن بينهم كان "براء" الذي أمسك بهاتفه الـ"سامسونج جلاكسى تاب" ليصور ما يحدث، وإلى جواره كانت تجلس "رحمة" التي سألته:

— إمّا إنت ليه ما رضتش تقول لمجد على موضوع الـ CD؟

يتوقف عن التصوير، لينظر لها قائلا بلهجة ذات مغزى:

— كفاية عليه إنك عزمتيه على حفلتك النهارده

تبتسم قائلة:

— أعتبر دي غيرة؟

يتأمل ملامحها بحب، ليذوب عشقا في ابتسامتها الساحرة قائلا:

— اعتبريها واحد بيدافع عن حياته.. لو خدك مني يبقى خد روحي، وبعدين هيعمل إيه مجد بتاعك في CD متشفرة مش عارفين لها أول من آخر، على الأقل المفروض نستنى مالك أخوكي يرجع من أمريكا الأول ويفك شفراتها وبعدين نشوف هنعمل إيه؟

تطلق تنهيدة حارة وهي تقول بقلق:

— أنا خايفة يا براء من اللي جاي، المرة اللي فاتت ربنا بعت لي اللي ينقذني، تفتكر المرة الجاية ممكن يحصل إيه؟

يسرح في جملتها الأخيرة ككرباج يهوي على كرامته بكل عنف، "ربنا بعت لي اللي ينقذني"، "بعت لي اللي ينقذني"، ليتحسس كرامته التي هتكت تلك الجملة عرضها، وهو يتذكر ما حدث لها في وقت كان من المفترض أن تكون فيه حبيبته تحت حمايته، بينما أنقذها شخص أخر، فيزفر زفرة حارة قبل أن يقول بعصبية:

— لو خايفة مفيش حاجة تجبرك تكملى

لم تفهم ما يجيش به صدره، فقالت غاضبة:

— إنت عارف إن الموضوع ده قضية عمرى أنا وإنت بعد اللي حصل لنا وإحنا صغيرين، وعمرى ما هرجع عنه، لكن ده ما يمنعش أن الخوف غريزة

تثير حرقتها تعاطفه، فيتأمل ملامحها بتأثر قائلًا:

— قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا

تطلق تنهيدة قبل أن تتمتم بخفوت:

— ونعم بالله، أدعى يا براء ربنا يوفقنى ف عرض النهارده، ماعندكش فكرة فوزى أنا والفرقة فارق معايا قد إيه خصوصا إنه الحاجة الحلوة اللي مستنياها وسط الخراب والغم اللي بيطاردني في كل حتة

زادت ضربات قلبه مع كلماتها حين سمع في كلامها نبرة إحتياج، لتمتد يده بحركة لا إرادية وتمسك يدها وهو يردد بكل حب وحنان الكون:

— لو ربنا هيحرمني من كل الدعوات اللي نفسى فيها ويحقق لي منهم دعوة واحدة بس، أكيد هتكون إنك تفرحي وتحققي كل اللي نفسك فيه

دغدغت كلماته تعاطفها، ليتسلل الدمع إلى عينيها وهى تقول بحرقة من يشعر بتأنيب الضمير على عدم القدرة على التجاوب مع هذا الحب:

- مش عارفة أقولك إيه على عظمتك يا براء

لكن هذا لم يمنع أن تسحب يدها من بين يديه، في الوقت الذي فتحت فيه الإشارة ليطلق أصحاب السيارات التي تقف خلف سيارته كلاكسات سيارتهم بنغمة متواصلة، طالبين من سوما العاشق سرعة التحرك!

* * *

في مكتب "حكيم المنصة" بمنظمة "نبض العدالة" السرية يجلس "مظلوم" مع السبع مستشارين الملقبين بـ«حماة الأوشحة»، على مائدة الاجتماعات وأمامه جريدة «المستقبل» المفتوحة على الصفحة التي يظهر فيها "مجد" وهو يقاتل المتحرشين في ميدان التحرير بينما يقول أحدهم:

— كل أعضاء المنظمة كوم ومجد كوم تانى، بس ده ما يمنعش إن ظهوره في الجرايد سواء بشخصيته الحقيقية أو شخصيته التانية فيه خطر عليه وعلى المنظمة بحالها

يتطلع "مظلوم" إلى عينيه قبل أن يقول بلهجة غامضة:

— ما تنساش إن سر الحرف قال كلمته من زمان، ويمكن يكون مجد هو الفارس اللي طول الوقت بندور عليه، خصوصاً إن بوادر الخلاف اللي بدأت تحصل دلوقت في المنظمة محتاجة لرمز

يسأله شخص أخر:

– تفتكر؟

يزداد الغموض في نبرة "مظلوم" وهو يقول:

– هيبان في اجتماع النهارده، بلغتوا كل الأعضاء إنهم لازم يحضروا؟

– كلهم اتبلغوا

"حكيم المنصة" يوزع نظراته على وجوههم قبل أن يقول:

– عظيم، يبقى لازم نستعد من دلوقت لمحضر الاجتماع، وكل حاجة هتبان الليلة

* * *

الفصل الرابع عشر

على المسرح الكبير بدار الأوبرا المصرية نشاهد "رحمة" في مقدمة فرقتها التي تراصت على هيئة صفوف على خشبة المسرح الغارق في ظلام دامس، بينما تحيط الفرقة إضاءة زرقاء خافتة، في حين يدخل "مجد" المسرح متأخرًا ليسير في الظلام باحثًا عن مقعد، وما أن يلمحه "براء" حتى يرفع له شاشة موبايله المضيء ليشير له بالجلوس إلى مقعد خالي إلى جواره، فيذهب "مجد" له ويجلس إلى جانبه، في حين يرمقه "براء" بنظرة نارية تمنى فيها لو نهشه بأسنانه جزاء اجترائه على الاقتراب من قلب حبيبته، لكنه وجده نفسه مضطرا أن يجلسه إلى جواره حتى يراقب حركاته وخلجاته، ويستكشف سر جاذبيته لقلب "رحمة"!

وفي تلك الأثناء عاد القدر مرة أخرى لصنع فوتومونتاج جديد في حياة "مجد" و"رحمة" و"براء"، ليرتبط ما يحدث في المسرح الكبير على دار الأوبرا، بما يتم في منظمة «نبض العدالة» السرية في نفس اللحظة، كأنه فيلما سينمائيا يقوم مخرج القدر بالتقطيع بين ما يحدث في كلا المكانين في وقت واحد

– المسرح الكبير

مايسترو الفرقة يطرقع أصبعيه الإبهام والوسطى، فيبدأ أعضاء الفرقة في حك أياديهم أمام ميكروفونات موضوعة أمامهم لتعطى أياديهم المحتكة أصوات تشبه صوت حفيف الرياح،

– منظمة نبض العدالة

"حكيم المنصة" يقف فوق أعلى درجة في مدرج بساحة المنظمة ناظرًا إلي باقي الأعضاء، وعلى الدرجة الأسفل منه يقف السبعة مستشارين الملقبين بـ"حماة الأوشحة" ناظرين أيضًا إلي باقي

الأعضاء، ثم يقف في الدرجة الأسفل منهم 10 من القضاة الملقبين بـ "أعوان العدالة المفقودة"، في حين يقف على الأرضية باقى أعضاء المنظمة الملقبين بـ "حراس الكلمة العليا" بأعدادهم الكبيرة في صورة صفوف عديدة تنظر إلى "حكيم المنصة" و"حماة الأوشحة" و"أعوان العدالة المفقودة"، وقد ارتدوا جميعًا زي المنظمة.

– المسرح الكبير

لا زال أعضاء الفرقة يحكون أياديهم أمام ميكروفونات موضوعة أمامهم لتعطى أياديهم أصوات تشبه صوت حفيف الرياح، في حين بدأ جزء أخر من أفراد الفرقة في طرقعة أصابع الإبهام مع أصابع الوسطى بطريقة تعطى صوت بداية نزول الأمطار واصطدامه بالأسفلت

– منظمة نبض العدالة

فجأة يقتحم ساحة المنظمة مجموعة من الملثمين يرتدون ملابس تشبه ملابس النينجا، ويحمل أصحابها السيوف البتارة القوية

– المسرح الكبير

أنقسم أعضاء الفرقة إلى ثلاث أقسام، قسم لا زال يحك أياديه أمام الميكروفونات لتعطى إنطباع حفيف الرياح، والقسم الثانى تزداد أصوات طرقعة أصابعهم الإبهام والوسطى بشكل يشبه سرعة هطول الأمطار، في حين يبدأ القسم الثالث بالخبط على ركبتيه بشكل يعطى صوت زيادة هطول الأمطار وقوة ارتطامها بالأرض

– منظمة نبض العدالة

أعضاء المنظمة يلتفتون للمقاتلين الملثمين الذين أقتحموا منظمتهم، ليعقد "مظلوم غلاب" حاجبيه، في حين ينقض المقاتلين بعنف مطلقين صيحات قتالية عنيفة

– المسرح الكبير

الآن تحول المشهد إلى سيمفونية بشرية لصنع صوت المطر، وقد تحولت أصوات أيادى الفرقة إلى ما يشبه أصوات سيول تهطل بشدة، قبل أن يقفز جزء من أعضاء الفريق ثم يقفز الجزء الثانى ثم الجزء الثالث على ثلاث حركات متتالية لتصنع أصوات قفزاتهم صوت هزيم الرعد في نفس لحظة توالى إضاءة المسرح باللون الأبيض ليصنع صورة البرق في مشهد سيول ورعد بشرى يسرق الألباب ويخطف من الجمهور شهقات الإعجاب والتصفيق الحار

– منظمة نبض العدالة

سيوف المقاتلين الملثمين تضرب الأعناق، وتنغرس في البطون، وتطيح بالرؤوس، لتسيل الدماء بعنف شديد

– المسرح الكبير

أعضاء الفرقة عادوا لعمل صوت المطر الذي يهطل بشدة قبل أن يتقافزون مرة أخرى بطريقتهم المتتالية لصنع صوت هزيم الرعد البشرى، وسط الإضاءة الخاطفة التي تشبه البرق، مع تزايد صوت تصفيق الجمهور

– منظمة نبض العدالة

أجساد أعضاء المنظمة تغرق الساحة وقد سبحوا في دمائهم، بينما يجرى عدد قليل منهم ليطاردهم المقاتلين الملثمين ويبيدونهم بسيوفهم

– المسرح الكبير

أعضاء الفرقة يتقافزون مرة أخرى بطريقتهم المتتالية لصنع صوت هزيم الرعد وسط الإضاءة الخاطفة التي تشبه البرق قبل أن يظلم المسرح

– منظمة نبض العدالة

الآن نرى المقاتلين الملثمين يقفون في أماكنهم بتشكيل معين رافعين سيوفهم في قوة وفخر لتقطر منها الدماء، وقد تجمدوا كتماثيل بشرية، بينما خر كل أعضاء المنظمة صرعى لتملأ جثثهم الساحة التي تحولت لبحيرة من الدم

— المسرح الكبير

"مجد" و"براء" يصفقون بشدة وحماس شديد وقد توقف جميع أعضاء الفرقة لتلقى التحية

* * *

الآن يقود "مجد" سيارته على طريق صحراوى مرتديًا سماعته البلوتوث، ليسمع "رحمة" التي تحدثه في الموبايل وهى تقول:

- ولما العرض تحفة وعجبك أوى، مشيت بسرعة ليه؟

يجيبها وهو ينحرف بسيارته في الصحراء:

— عايز أقول لك إنى مرتبط بمعاد مهم جدًا، ولأول مرة بتأخر ف جياتى عن معادى عشان خاطرك

لا يرى تلك الابتسامة الرقيقة التي ارتسمت على ملامحها حين قالت:

— عموما الأيام جاية كتير، وأعمل حسابك المرة الجاية محدش..

تصرخ فجأة قبل أن يتوقف صوتها، بينما يسمع "مجد" صوت فرامل سيارة عنيف يعقبه صوت إرتطام، لتنتهى معه المحادثة بشكل مفاجئ، في نفس لحظة وصوله إلى مقر منظمة نبض العدالة، فيغادر سيارته وهو يصيح بقلق:

- آلو، رحمة

ثم يحاول الإتصال بها لكنه يسمع صوت الشبكة الذي يخبره أن الهاتف مغلق، فيعقد حاجبيه في قلق وهو يتجه لداخل المنظمة

قبل أن يفجعه هول المنظر !!

الجميع تحولوا إلى جثث تسبح في حمام من الدم،

وعندما ينحنى لفحص أقرب الجثث إليه بعينين متسعتين، يجدها بلا أدنى أثر للحياة، ثم ينهض ويتأمل المشهد بإرتياع غير مصدق ما يرى،

وفى غمار ذلك يلمح على الحائط صورته الملثمة مرسومة بحجم كبير، فيتأملها بذهول، ثم ينظر إلى الأرض فيجد الدماء قاربت من ركبتيه من كثرتها، وأثناء ذلك يلمح قنبلة زمنية تنخفض الأرقام بسرعة على شاشة مؤشرها، 20،19،18، فينظر خلفه ليكتشف أنه توغل وابتعد عن باب الدخول إذ لا يسمح الوقت الكافى ليغادر المنظمة، بينما يجد على يساره باب تسيل من خلفه الدماء، فيفتحه لتظهر خلفه جثث متراصة على سلالم تؤدى لأعلى، فيجرى على السلالم مسرعًا وهو يتجه للسطح،

الآن يصل "مجد" إلى سطح منظمة «نبض العدالة»، ليجد به خفاشا طائرا، فيمسك به ويجرى بأقصى ما لديه من سرعة وقوة قبل أن يقفز في نفس لحظة وصول المؤشر للرقم صفر، لتنفجر المنظمة بكل من فيها ويطارد لسان من اللهب خفاش "مجد"، إلا أن "مجد" يدير الخفاش يمينًا ليتفادى لسان اللهب في اللحظة الأخيرة، ليبتعد ومن خلفه تنهار المنظمة ويختفى داخلها أي أثر للوجود!!

* * *

فى منزل "رحمة" نسمع صوت طرقات على الباب، بينما يتجه عمها العجوز "رءوف البدرى" لفتحه، وما أن يفتحه حتى يجد شابًا طويلًا ذو بشرة بيضاء حليبية، وتقاطيع وجه صغيرة، وشفتين ورديتين، وشعر كستنائى ناعم مسرح للأمام رغم طوله، ليبدو في

ملامح شكله الوسيمة أشبه إلى الأمريكان من المصريين، وقد ارتدى نظارة طبية ذو إطارات سوداء زادت من وسامته، وجاكت بذلة فاخر على بنطلون جينز، وما أن يشاهده العم حتى يقول بفرحة:

- مالِك؟ حمد الله على سلامتك يا إبنى

العم يعانق "مالك" إلا أن عيني "مالك" يطل منهما التساؤل، ليقول بنبرة متوترة وهو يتطلع في وجه عمه غير مهتم بالعناق:

— خير يا عمو، رحمة مالها؟

العم ينظر له بحيرة ويقول بعدم فهم:

— مالهاش يا إبنى، ما هي كويسة وزى الفل وكان عندها عرض النهارده في الأوبرا بس صحتى ما ساعدتنيش أحضره

يزداد إنعقاد حاجبى "مالِك" الذي يسأل:

— أومال ليه بعتت لي إيميل قالت لي فيه لازم تسيب أمريكا وتنزل مصر حالًا؟

التوتر والذهول يرتسمان على ملامح العم وهو يسأل للتأكيد:

- هي قالت لك كده؟!!

- أيوة، ولما اتصلت بيها عشان أفهم فيه إيه قالت مش هينفع في التليفون، ولما تيجى هقولك كل حاجة، ودلوقت بكلمها موبايلها مقفول

فجأة تدوى طرقات عنيفة على باب المنزل، فيهرع العم، و"مالِك" لفتحه، وما أن يفتحه "مالِك" حتى تدخل "رحمة" وهى تتحسس طريقها بلهفة ورعب وقد تناثر شعرها وصنع التراب والعرق طينا شوّه ملامحها، فيسألها "مالك" بتوتر لا مثيل له:

— مالك يا رحمة، فيه إيه؟

"رحمة" تتحسس وجهه وتقول بسرعة ولهفة:

— مالِك، الحمد لله إنك جيت، إحنا لازم نمشى من هنا دلوقت حالا

فيسألها عمها بقلق لا حدود له:

— فيه إيه يا بنتى؟

لتجيبه بتوتر ورعب:

— مش وقته يا عمى، نمشى من هنا الأول وهفهّمكوا كل حاجة بعدين

ثم تضع يدها على كتفى "مالك" وعمها وهى تتوسطهما لتتجه بهما نحو باب الشقة، وما أن يصبح "مالِك" أمام باب الشقة حتى يندفع الباب في وجهه فجأة ليطير بعنف شديد للخلف، قبل أن يطل شخصا ملثما بالسواد، ليندفع نحوه العم العجوز متساءلا في هلع:

- إيه ده؟ إنت مين؟ وعايز.

قبل أن يقاطعه الشخص الملثم بلكمة قوية بظهر يده، قبل أن يقتحم النافذة شخصين ملثمين أخرين، ويتجه الشخص الملثم الأول الذي صفع العم، نحو "رحمة" التي ترفع يدها نحو صدرها وقد غاصت رأسها بين كتفيها في رعب، ليطل من عينيه بريق مرعب وهو يقول بصوت أجش، ولغة عربية فصحى:

- حياتك أنتى وعائلتك مقابل الـ CD يا أنسة رحمة

"رحمة" ترتجف وتظل صامتة، فيقبض على عنقها بشراسة دون أن يكترث بحشرجة حنجرتها، ليضغط على حروف كلماته وهو يخرج مسدسا مزود بكاتم صوت يلصقه في رقبتها، قائلًا:

— ربما لا تشاهد عيناكى مسدساتنا الموجهة للرؤوس، لكن حتمًا بصيرتك تدرك ذلك

تجيبه وهى تحاول أن تستجمع شجاعتها التي هربت إلى سويسرا كأموال مهربة لن تعود:

— بصيرتى ماتعرفش غير إننا كده كده هنموت ف كل الأحوال

فيضغط بمسدسه على رقبتها بعنف أقوى قائلًا:

— فلتموتوا بسرعة إذن بلا أدنى ألم، اعطنى الـ CD وهذا وعد

"مالِك" ينهض بضعوبة وقد أغرقت الدماء وجهه ليقول بضعف وهو يرفع يديه باستسلام:

- الـ CD ف جيب الجاكت

الشخص الملثم الذي يوجه مسدسه نحو "مالِك" يقترب منه بحذر، ثم يمد يده داخل الجاكت الذي يرتديه "مالك" ويخرج علبة CD، ثم يستدير ليسلمها إلى الشخص الملثم الأول، فيترك الملثم الأول يده القابضة على عنق "رحمة" ليأخذ العلبة، فينتهز "مالِك" الفرصة ويخرج مسدس يلقى الصواعق الكهربية من جاكت بذلته ويوجهه نحو الملثم الأول الذي كان يمسك "رحمة"، والملثم الثانى الذي أخذ علبة الـ CD منه، فيصعق كلاهما بضغطة زر لتتألق على صدريهما شرارات كهربية زرقاء، ويسقط كلاهما تحت تأثير الشلل المؤقت، بينما يصوب الملثم الثالث المتبقى مسدسه نحو "مالِك" وفى نفس لحظة ضغط الزناد، يتحرك العم العجوز وينقض عليه فيتلقى الطلقة بدلًا من "مالِك"، لكن العم العجوز يتشبث بيد الملثم الممسكة بالمسدس ويأبى أن يتركها وهو يحتضر، في حين يقفز "مالِك" نحو الملثم الثانى الذي سقط بفعل الصدمة الكهربية، ليلتقط مسدسه ويصوبه نحو رأس الملثم الثالث الذي قتل عمه، فيلمح الملثم الثالث "مالك" وهو يصوب نحوه المسدس، ويعلم أنه سيموت خاصة وقد تشبث العم بيده الممسكة بالسلاح، فيضغط بيده الثانية على زر في ملابسه فيطلق أزيزًا خافتًا، في نفس اللحظة التي يطلق فيها "مالِك" الرصاصة التي تخترق منتصف جبهته، لتنفجر منها الدماء وتتناثر على وجه "رحمة" التي تصرخ برعب، ثم يقترب "مالك" من عمه فيجده قد فارق الحياة، قبل أن يلمح من النافذة مجموعة من الملثمين يغادرون سيارة تقف في تأهب أمام المنزل، ويتجهون بسرعة نحو مدخل العقار، فيحمل "رحمة" مسرعًا نحو باب الشقة، ويوجه مسدسه نحو رأسي الملثمين الأخرين ويفجرهما برصاصتين وعلى وجهه الغل والغضب، قبل أن يغادر الشقة

* * *

"مالِك" الذي غادر الشقة حاملًا "رحمة"، يقترب من باب المصعد ويفتحه ثم يضغط زر النزول للطابق الأرضى ويسجله، قبل أن يغلق الباب فيتجه الأسانسير لأسفل خاليا من البشر، بينما يصعد "مالِك" الذي لا زال يحمل "رحمة" على السلالم متجهًا لأعلى،

وفى مدخل العقار نشاهد 4 ملثمين يقتحمون مدخل العقار، فيلمحون لوحة الإضاءة المصاحبة للأسانسير التي تشير إلى نزوله، فيتخذون مواقعهم لمباغتة الأشخاص الذين ينزلون فيه، وما أن يصل المصعد، حتى يقتحمه أولهم بعنف بينما يصوب الثلاثة الأخرين أسلحتهم لداخله، غير أنهم يجدوه خاليًا، فيصيح أولهم لأقرب ملثم له:

- أنت تعال معى، وانتما قوما بتأمين المكان

2 من الملثمين يبقيان في مدخل العمارة، قبل أن يتجه الإثنين الأخرين للسلم ويصعداه بسرعة حتى يقتحما شقة "رحمة" فيجدا زملائهم الثلاثة صرعى، وفى يد أحدهم علبة CD، فيقترب أحدهما من يد زميله المصروع، وينتشل علبة CD منها ويفتحها بلهفة، فيجد بها اسطوانة يتأملها، قبل أن يغلق العلبة بغيظ شديد ويتركها

تسقط من يده، وهو يصيح في زميله المتبقى:

- ليست هذه الـ CD المطلوبة، فلنتبعهم إلى السطح قبل أن يهربا

ثم يغادرا الشقة مسرعين لأعلى العقار

* * *

الإثنان الملثمان يصلا إلى السطح، ويديرا عينيهما بنظرة متفحصة للأسطح المجاورة القريبة، وما أن يهمان بالتقدم حتى يومض ضوء أحمر في زي أحدهما مطلقًا أزيزًا خافتًا، فيخرج من جيبه جهاز إتصال ينبعث منه صوت أحد زملائه الملثمين الذي يقول بلهجة تحذيرية:

— هناك سيارة شرطة قادمة من بعيد، الوقت الباقى يكفى فقط لإخفاء جثث زملائنا وتنفيذ خطة الطوارئ

ومع آخر حروف كلماته، ينبعث صوت سارينة شرطة، فيتبادل الإثنان الملثمان النظر، قبل أن يعودا أدراجهما للأسفل.

وفى تلك اللحظة كان "مالِك" و"رحمة" يجلسان على الأرض في جنح الظلام فوق أحد الأسطح المجاورة، ويستندان بظهريهما إلى جدار السور، وقد وارتهما عن الأنظار غرفة الأسانسير وبعض أطباق الدش، إذ يمسك "مالِك" المسدس الذي أخذه من الشخص الملثم بتحفز وتأهب، وما أن تصك مسامعهما سارينة الشرطة، حتى تتنفس "رحمة" الصعداء وتقول في لهجة بها شيء من الإرتياح وقدر من القلق في الوقت نفسه:

— الحمد لله، براء بلّغ البوليس من ساعة ما المطاردة بدأت وأخيرا وصلوا

"مالِك" ينهض وهو ينظر لها بحزن خالطه الغضب قائلًا:

— مش معنى إنهم وصلوا إننا ماخسرناش حاجة، عمك مات

تبكى "رحمة" وهى تقول بألم:

— ربنا يستر ومايكونش براء حصّله، أنا ساياه بيجرى منهم عشان يلفت نظرهم ويسيب لي فرصة أهرب

"مالِك" بغضب شديد:

— وأنا ضحيت بـ CD عليه Project مهم كنت جاييه معايا من أمريكا عشان أقنعهم إن هو ده الـ CD اللي بيدوروا عليه، أنا عايز أفهم إيه اللي بيحصل؟

"رحمة" تمد يدها إليه ليعاونها على النهوض قائلة:

— خدنى لعمك بسرعة، وإحنا ف الطريق هحكيلك كل حاجة

* * *

على سلم منزل "رحمة" ينزل "مالِك" وهو يأخذ بيدها، وفى يده الأخرى المسدس الذي يشهره في حذر بعد أن عادا من السطح في حين تتابع "رحمة":

— وبعد ما أقنعت القاضى المرتشى أنه يثق فيا، عرفت منه مكان النسخة التانية من الـ CD اللي مخبيه عشان يأمن نفسه، وعرفت إن عليها أسرار عدد كبير من القضاة المرتشين والقضايا اللي خدوا فيها رشوة من رجال أعمال، ولما وصلت أنا وبراء للنسخة التانية من الـ CD لاقينا المعلومات اللي عليه كلها متشفرة ف صورة أرقام، عشان كده بعت لك ف أمريكا وقولت لك لازم تيجى بأقصى سرعة لأن ماحدش هيعرف يفك الشفرات ولا نقدر نثق فيه غيرك

يسألها "مالِك" وهو يلتمس طريقه لأسفل في حذر دون أن ينظر إليها:

— وما رجعتيش للقاضى المتهم ف سجنه ليه عشان تعرف منه مفتاح الشفرة؟

— هو وقابيل الهراس هربوا من سجنهم، واتعرّضت أنا وبراء لمطاردة من الناس اللي إنت شوفتهم

الآن وصل كلاهما لشقة العم، ليجد "مالِك" عددا من الجنود والمخبرين واقفين على بابها، فيضع المسدس في جيبه، ثم يقول لها بصرامة قبل الدخول:

— فين الـ CD؟

"رحمة" تخرج الـ CD من طياتها، وتلوح به دون أن تتفوه بحرف واحد، فيأخذه منها وهو يتابع بحزم:

- البوليس لازم يعرف التفاصيل دي كلها، كفاية عليكِ دور شارلوك هولمز لحد هنا

فى تلك اللحظة يتقدم نحوه أحد المخبرين الواقفين عند باب الشقة ليسأله:

— رايح فين؟

فيجيبه "مالِك" وهو يزيحه:

- إحنا صحاب الشقة

"رحمة" و"مالِك" يدخلان شقتيهما، فيرى "مالِك" عددا من رجال الشرطة والمباحث، وقد انتشروا في المكان ليقوم البعض بتفتيش الشقة، بينما يجمع فريق أخر بعض المتعلقات في كيس، ويقف المقدم "أمل" ليتابع الموقف مرتديًا بذلة مدنية، وما أن يلمح "رحمة" تدخل هي و"مالِك" حتى يخرج مسدسه من جيبه ويصوبه على "رحمة" صارخًا فيها:

— أقفى عندك، ولا حركة

"مالِك" يعقد حاجبيه في دهشة بينما تقول "رحمة" بإرتباك:

— في إيه؟

المقدم "أمل" يلتفت لإثنين من المخبرين يرتديان ملابس مدنية ويأمرهما:

- أقبضوا عليها

المخبرين ينقضان على "رحمة" ويهمان بجذبها بعيدًا عن "مالِك"، فيقاومهما وهو يصيح فيهما:

- هو مين ده اللي هيقبض عليها، إنتوا اتجننتوا؟!

فوهة مسدس تلتصق بصدغه فيترك "رحمة" للمخبرين اللذين يديرا يديها خلف ظهرها ويضعان بها الكلابشات، بينما يسمع "مالِك" صوت المقدم "أمل" الصارم من خلفه:

— اللي اتجنن فعلًا هو اللي بيقاوم السلطات أثناء تأدية عملها

"مالِك" يلتفت للمقدم "أمل" ويسأله بذهول امتزج بالغضب:

— وهو عمل السلطات إنها تقبض على المجني عليه وتسيب الجاني؟

تلتقط "رحمة" طرف الحديث وتتابع:

- إحنا اتعرّضنا قبل ما تيجوا لمحاولة قتل، مات فيها عمى وإحنا الإتنين نجينا بمعجزة

المقدم "أمل" يعقد حاجبيه بدهشة ويسألها:

— عمك مين اللي أتقتل؟"**يلتفت لمالِك ويسأله**" وإنت تطلع مين؟

فيجيبه "مالِك":

— أنا دكتور مالِك البدرى أخو رحمة، خبير شفرات بجامعة «هارفارد»، وأول ما رجعت من السفر ودخلت الشقة هجم علينا ناس شكلهم غريـــــ...

«فين جثة عمك؟»

يقاطعه "أمل" بالسؤال، فينتبه "مالِك" لأول مرة أن جثة العم غير موجودة وكذلك اختفت جثتا المقاتلين اللذين قتلهما، فيتأمل المكان بدهشة، بينما تقول "رحمة":

– موجودة هنا أهيه، إنتوا مش شايفينها ولا إيه؟

"أمل" ينظر لعينيها الثابتتين، ثم يتابع بصرامة:

– إحنا مش شايفين غير إنك متورطة ف قضية تهريب قاضي ورجل أعمال من الحبس، وتزويدهم بخريطة فيها المعلومات اللازمة للهرب

««أنا؟»»

تقولها "رحمة" بصدمة شديدة، في حين يمد المقدم "أمل" يده ليناوله أحد رجاله كيس تم تحريز المتعلقات فيه، وتكون المتعلقات عبارة عن مبلغ نقدى وخريطة ورقية تم طيها، ليلوح "أمل" بالكيس أمام "رحمة" و"مالِك" ويتابع:

– إحنا حرّزنا خريطة تفصيلية للسجن، ومبلغ 150 ألف جنيه، كانوا محطوطين ف شنطة عليها شعار شركات الهراس، وجواها كارت فيه أرقام كل المساعدين بتوعه.. تقدرى تقولى الحاجات دي بتعمل ايه عندك؟ ده غير إنك كنتي آخر واحدة تزور القاضي في السجن قبل ما يهرب

"رحمة" وقد برقت عينيها بذهول:

– مش عارفة، وجثة عمى فين هو والناس اللي..

"مالِك" يمد يده ليضعها على فمها في اللحظة الأخيرة قبل أن تكمل كلامها قائلًا:

– مش وقت أي كلام يا رحمة، من حقك ما تتكلميش غير قدام النيابة

"رحمة" تسأل بعينيها الجامدتين:

– أنهى نيابة؟

يجيبها المقدم "أمل" بتحدى:

– النيابة اللي هتحقق معاكي الصبح بعد ما تشرفينا الليلة دي

ثم يشير المقدم "أمل" لرجاله بصرامة ويتابع:

– خدوها

الرجال ينقضون على "رحمة" ليصطحبوها إلى الخارج فيعترضهم "مالِك" الذي يقول إلى المقدم "أمل":

– آخر سؤال هسألهولها لو سمحت

"مالِك" يلتفت لـ"رحمة" ويسألها قبل حتى أن يسمع رد المقدم "أمل":

– اسمه إيه القاضى اللي حكيتي لي عنه قبل كده؟!

* * *

الفصل الخامس عشر

في منزله الذي لا زال به أثار للحريق، يتأمل "مجد الدين" وجه "مالِك" بإهتمام شديد، بينما يزفر "مالِك" زفرة حارة قبل أن يقول بلهجة تجيش بما يعتمل في نفسه من صراع حاد:

— هى دي كل الحكاية، ومافيش قدامي حد أقدر أثق فيه غير حضرتك

يصمت "مجد" قليلًا وهو لا زال يمسح "مالِك" ببصره، ويحلل في أعماقه ما سمعه من كلام قبل أن يسأله:

— بس اللي إنت عملته مع المُقَنَّعين ده حسسنى إنك ظابط شرطة، مش خبير شفرات عاش معظم حياته ف أمريكا

فيرد عليه "مالِك":

— أنا اضطرتنى الظروف أعيش فترة من الوقت في حى «هارلم» المليان بالعصابات والبلطجية وكل أشكال العنف، وهناك اتعلمت إن مفيش رفاهية الإختيار، يا تكون فارس،أو فريسة

"مجد" ينهض وينظر من النافذة، ليقول وهو ينظر إلى الشارع دون أن يلتفت لـ "مالِك":

— تفتكر حد منهم ممكن يكون جه وراك؟

— ما أعتقدش، أكيد اهتموا يداروا أي أثر ليهم بدليل إنهم خبوا جثث زمايلهم وجثة عمي

"مجد" يلتفت له، قبل أن يقترب منه ويعود ليتأمله فيصطدم بصره من جديد بالصورة الموجودة على السلسلة المعلقة في صدر "مالِك"، فيمسكها ويتأمل ملامح السيدة التي قتلها في طفولته، قبل أن يقول بحزم:

— إنت حياتك ف خطر، م اللحظة دي مش مسموح تخرج من هنا تحت أي ظرف من الظروف غير لما تفك شفرة الـ CD، ويا ريت ده يكون في أسرع وقت لو كنت عايز تقف فعلا مع اختك

"مالك" بتردد:

— بس،

"مجد" مقاطعًا بصرامة وهو يميل نحوه:

— كنت بتقول مفيش قدامك غيرى تقدر تثق فيه، إثبت لي إن كلامك ماكانش مجرد مجاملة، وخلينى أثبت لك إنى قد الثقة دى

* * *

أمام منظمة نبض العدالة يقف المقدم "أمل" وسط 5 سيارات شرطة وإسعاف تضىء سارينناتها المكان، وقد انتشر رجال الإسعاف والفحص الجنائي من حوله، بينما يقترب منه أحدهم حاملًا كيس بلاستيك أسود وقطعة صخر في يده، ليقول في أسى:

— ده كل اللي أتبقى منهم يا فندم بعد الإنفجار

الرجل يفتح الكيس، فينظر "أمل" داخله قبل أن يشيح بوجهه بإمتعاض، ثم يمد الرجل قطعة من الصخر أمام "أمل" قائلًا:

— ودى قطعة لقيناها ف الحطام وعليها صورة غريبة

"أمل" يأخذ منه القطعة، ويتأملها، إنها قطعة من الجدار الذي كانت عليه صورة "مجد" في زيه الملثم، حيث تبقت عليها بقايا ملامح وجهه في هيئته الغامضة التي ينتحلها في عالم الجريمة، لتتسع عيني "أمل" في دهشة فور أن يقع بصره على الصورة، قبل أن يعقد حاجبيه ويبعد قطعة الجدار عن وجهه ليتأمل بقايا الإنفجار في شرود

* * *

"نديم" الضابط متقاعد، وزميل "مجد" السابق في جهاز الداخلية

يجلس في حجرته الخاصة بمنزله، على كرسيه المتحرك، أمام جهاز الكمبيوتر، ليتأمل مقطع فيديو صممه لنفسه خصيصًا، ويستعرض المقطع صور متفرقة له وقت أن كان ضابط شرطة على خلفية موسيقية حزينة،

فى مقطع الفيديو تتوالى صور مختلفة،

صورة يتلقى بها "نديم" التدريبات الشاقة، وصورة أخرى يتناقش فيها مع أشخاص أجانب أمام أجهزة إتصالات لاسلكية متطورة، وصورة أخرى وهو يجلس على كمبيوتر ويؤدى عمله بإنهماك، بخلاف صورة له وهو يمسك جهاز تصنت وأمامه على المكتب أجهزة مختلفة، ثم صورة له هو و"مجد" الذي يضع يده على كتفه وكلاهما يبتسم ببراءة، ثم صورة له وهو يصافح الوزير في حفل التكريم الأخير الذي حضره على مقعد متحرك بعد أن فقد قدميه، لتسيل دموع "نديم" الساخنة على وجنتيه عند هذه النقطة، وهو يثبت مقطع الفيديو على هذه الصورة ويتأمل شاشة الكمبيوتر في حسرة،

عندها تهوى يد على كتفه لتخرجه من أحزانه،

"نديم" يلتفت فيفاجأ أنها يد "مجد" الذي ينظر له بابتسامة تحمل كل الود، بينما تلمع عينيه بالدموع فيقول "نديم" غير مصدق نفسه:

— مجد؟!

"مجد" يركع على ركبتيه ليصبح وجهه في مواجهة وجه "نديم"، ويتبادلا عناقا حارا تنهمر فيه دموعهما، ويقول "مجد" وهو لا زال حاضنًا "نديم" وقد تطلعت عينيه إلى شاشة الكمبيوتر التي تعرض مقطع الفيديو قائلًا:

— ما رضتش حد يخش لك يقولك إنى هنا عشان أعملهالك مفاجأة، بس إنت اللي فاجأتنى يا نديم

* * *

الآن يجلس "مجد" و"نديم" وهما يرتشفا الشأي بعد أن فرغ "مجد" من الحكى، في حين ينظر "نديم" لـ "مجد" بكل فرحة وسعادة الدنيا قبل أن يقول بحماس:

— دى أحلى حاجة إنت عملتها ف حياتك، ياه يا مجد، بجد مش عارف أشكرك إزاي

"مجد" بدهشة:

— ما تخيلتش إنك هتـفرح بالشكل ده بعد اللي حكيتهولك، إنت مش مستوعب أبعاد الموضوع؟

"نديم" بحماس أكبر:

— بالعكس، ده موضوع حياة أو موت، إنت داخل على مواجهة خطيرة ماحدش عارف هتنتهى على إيه، وهو ده سر سعادتى، **"يسرح ببصره ثم يناجي نفسه"** بعد اللي حصل لي أنا بقيت مجرد حطام بنى آدم ماحدش حاسس بيه، وياما جت عليا أيام فكرت فيها في الإنتحار، **"ينظر لمجد ويتابع بحماسة"** وأخيرا جت لي فرصة أنى أرجّع أمجاد زمان، وأثبت لنفسى قبل ما أثبت لأي حد تانى أن قوتى وذكائى ما اتأثروش لما رجلى طارت، تـفتكر مش من حقى أفرح حتى لو كانت نهايتى بعد الفرحة دى؟

يسرح "مجد" ببصره متأثرا بكلمات "نديم" الأخيرة، وهو يتخيل خاتمة تلك القصة المعقدة التي صار بطلها رغم أنفه؛ وقد احتملت أحداثها ألف نهاية

* * *

كعصفور مبلول، جلس اللواء "ماجد بهجت" أمام رئيس

الجمهورية الذي قال غاضبا:

— معناته إيه ده يا بهجت؟ إزاي تسمحوا لأكتر رجل سرق ونهب البلد واتمتع من خير بلدها في عهد النظام السابق إنه يهرب بالسهولة دي؟

يتنحنح رئيس جهاز الأمن الوطني قائلا:

— فخامتك مسئولية هروبه بتقع على مأمور السجن يا فندم، لو كان محبوس عندي كان حقك تشنقني لو حبيت

— لأ إنت المسئول قدامي، واللا نسيت الحوار اللي دار بيني وبينك من كام يوم ساعة ما وصل لنا خبر إنه معاه CD عليها معلومات خطيرة عن منظمة سرية فيها عدد كبير من القضاة والمستشارين

ينظر اللواء "بهجت" للأرض في خجل، بينما يتابع الرئيس:

— اسمع يا بهجت، إنت عارف بنفسك حجم الضغوط والحرب القذرة اللي بيمارسها علينا فلول مبارك وخصوصا بعض القضاة اللي عيّنهم ورباهم على إيده، وهما بدورهم ردوا ليه الجميل وعملوا قوانين تفصيل على مقاس نظامه، عشان كده لا يمكن هنعرف نحارب الدولة العميقة ونطهر القضاء غير لو مسكنا عليهم ذلة تخلينا نعرف ننفذ اللي إحنا عايزينه من غير ما متواطيء فيهم يفتح بقه.. الوصول للـ CD اللي قابيل الهراس اتكلم عنه مهمتك الفترة الجاية، ولو نجحت، ساعتها هعرف إنك فعلا يعتمد عليك، واوعدك إن فيه كرسي أهم هيكون في انتظارك، فاهمني يا سيادة الوزير؟

تتهلل أسارير العميد "بهجت"، لتتراقص الفرحة في عينيه وهو يردد بسعادة مراهق وافقت نانسي عجرم على إضافته في الفيس بوك:

— وزير؟

— ولسه اللي جاي أحلى، بس تنفذ اللي قولت لك عليه

اللواء "ماجد بهجت" يزدر ريقه ويردف:

— أنا خدامك يا فندم، رقبتي قصاد الـ CD اللي سيادتك عايزه

* * *

في مكتبه بجهاز الأمن الوطنى يضرب اللواء "ماجد بهجت" سطح مكتبه بعنف قائلًا في لهجة غاضبة للمقدم "أمل":

— معناه إيه اللي بيحصل ده؟ انت بتتقدم ولا بترجع ميت خطوة ورا وترجعنا معاك؟!

ليقول المقدم "أمل" بضيق شديد:

— حضرتك عارف يا فندم إن الموضوع شائك ومش هيخلص بسهولة، إحنا كنا خلاص وصلنا للعناصر المخربة اللي دخلت البلد وهربوا من إدينا على آخر لحظة بعد ما حد سرب لهم معلومات إنهم هيتقبض عليهم، وقابيل الهراس بعد ما طلب إعادة التحقيق معاه وقال إن معاه CD فيه معلومات خطيرة هرب فجأة، وحتى المنظمة السرية اللي رصدنا مكانها وبدأنا نراقب أعضائها اتدمرت من مجهولين

يصرخ فيه اللواء "بهجت" قائلا بعنف:

— ما هو لو كنت شايف شغلك كويس ومركز فيه بدل ما بتدور في ملفات مالهاش علاقة بالمهمة اللي إنت مكلف بيها ما كانش كل ده حصل

يعقد "أمل" حاجبيه وقد جاءت كلمات رئيسه على الجرح، فيسأل بصوت مخنوق:

— ملفات إيه اللي بدور فيها؟

تبرق عيني رئيس الأمن الوطني وهو يقول بصرامة شديدة وبلهجة أهدأ لكنها تحمل غلظة وحزم لا حدود له:

- إنت عارف كويس أنا أقصد إيه، ومش وقت الكلام في الموضوع ده عشان هنتحاسب بعدين، **"يرفع سبابته في وجه أمل ويلوح بتهديد:"** اللي يهمني دلوقت إن خبراء الاقتصاد أكدوا إن هروب الهراس بشركاته والأسهم اللي بيملكها في البورصة ممكن يهز اقتصاد البلد، ودلوقت بعد الانفجار اللي حصل وقتل عشرات رجال الشرطة والقضاء سمعة البلد كمان ممكن تتهز، عشان كده لازم نلاقي الهراس ونكشف سر الانفجار ده ف أسرع وقت، حتى لو اضطرينا نعمل صفقة مع ابنه

— صفقة؟

يميل اللواء "بهجت" للأمام ليتطلع إلى عيني "أمل" قائلا:

— أسمعني كويس ونفذ اللي هقولهولك بالحرف الواحد

* * *

في وكره السري، يفتح "مجد" الباب ليدخل "نديم" على كرسيه المتحرك، و"مجد" يدفعه أمامه، بينما يحمل في يده حقيبة صغيرة، وما أن يدخلا حتى يضيء "مجد" المكان، فينقض عليهما "ماكس"، فيتراجع "نديم" في قلق، بينما يقول "مجد" للكلب في هدوء:

- Stop ماكس

الكلب يتجمد في مكانه فجأة وكأنه رأي عيني «ميدوسا»، فيتقدم نحوه "مجد" ويربت على عنقه بحنان قائلا:

— ده نديم صاحبى، دافع عنه بحياتك

تتسع عينى "نديم" بإنبهار وهو يرى الكلب يومىء برأسه وكأنه يقول «حاضر»، قبل أن يقول "نديم":

لو عايزنى أعرف اشتغل كويس إنقل ماكس لشقتك التانية على الأقل عشان يحمى مالك، أنا مفيش عمار بينى وبين الكلاب رغم إني كنت ظابط سابق

يبتسم "مجد" بلا تعليق وهو يضع الحقيبة التي في يده على ترابيزة صغيرة بجوار كرسى "نديم" الذي يتأمل المكان حوله، ليجده شقة صغيرة تتكون من غرفة وصالة، لكنها مفروشة بعناية وذوق رفيع يتسم بالأناقة والبساطة، كما يجد "خفاش طائر" من النوع الذي يستخدم في الطيران من الأماكن المرتفعة، ويكون معلقا على الحائط، وجهاز كمبيوتر متطور موضوع على ترابيزة مخصصة له، قبل أن يسأل "نديم" في دهشة:

— إحنا فين يا مجد؟

— مكان متواضع ماحدش يعرف عنه حاجة، أجرته بعد اللي حصل وجهزته ليوم زي ده، ودلوقت بإعتبارك خبير إتصالات، إزاي أقدر أزرع عيون وودان ليا ف مؤسسة الهراس من غير ما حد يحس

"نديم" يفتح الحقيبة، ويبدأ في تفريغ محتوياتها التي تكون عبارة عن أجهزة إلكترونية تستخدم في التصنت والتجسس، وما إلى ذلك،

"نديم" يلتقط أحد الأجهزة ثم يلوح به أمام "مجد" قائلًا:

— دى أجهزة تصنت أنا اللي مصممها بنفسى من أيام شغلى بالداخلية، فكرة عملها بسيطة جدًا وبتعتمد على،

"مجد" مقاطعًا:

— المهم هتوفق بالغرض؟

"نديم" بثقة مفرطة:

- بكل تأكيد

* * *

فوق سطح أحد أبراج كورنيش المعادى، في ليلة غير قمرية، نرى "مجد" الملثم بمظهره المثير للرعب والرهبة وقد رفع منظارا إلى عينيه، ومنه أخذ يراقب مقر شركة "الهراس" من بعيد، لنرى من خلاله مشهد بانورامى للشركة من الخارج، وشعار الشركة الضخم فوق سطحها، وقد اصطبغ المشهد باللون الأخضر الناجم عن نظارة الرؤية الليلية، قبل أن يترك "مجد" المنظار المقرب ثم يحمل "الخفاش الطائر" ويفرده ليكون مستعدًا للطيران.

"مجد" يجرى بالخفاش الطائر بسرعة نحو حافة السطح قبل أن يقـفز بجرأة، وبلا تردد، لنرى "مجد" بعدها من مسقط أعلى ممسكًا بالخفاش الطائر، ويطير به في الهواء متجهًا نحو سطح شركة "الهراس"، ليهبط بالخفاش الطائر فوقه في براعة، قبل أن يتجرد من الخفاش ثم يفتح حقيبة صغيرة كانت مربوطة حول جسده، ويخرج منها حبلا غليظا

* * *

من داخل مكتب "قابيل الهراس"، نرى من واجهته الزجاجية الأنيقة المطلة على الكورنيش، "مجد" في زيه الملثم ممسكًا بحبل يهبط به من السطح، قبل أن يعالج النافذة بعناية وحرص ثم يدخل المكتب بهدوء،

وما أن يدخل "مجد"، حتى يبدأ في زرع أجهزة التصنت بعناية وحرص، ثم يعود للنافذة ويمسك بالحبل ليصعد من جديد ويعود من حيث أتى

* * *

فى مكتب "أبيّ" بنيابة أمن الدولة طوارىء، تبكى "رحمة" في إنهيار، بينما ينظر هو إليها بصرامة دون أن يتأثر بدموعها، ويقول بلهجة من إعتاد انهيار الجميع أمامه حتى لم يتبق في قلبه مكانًا للشفقة:

– حتى لو صدقت كلامك، طالما مفيش أثر لجثة عمك ولا المقنعين التانيين مش هقدر أساعدك، أنا هنا بتعامل مع قوانين

"رحمة" تلمع عينيها بالدموع وتقول وقد طفح الكيل بها:

– القانون لازم يكون ليه نبض يحس بالناس عشان يحقـق العدالة السليمة، إنتوا بتحكموا بين بنى أدمين مش حيوانات

فيقول ببرود:

– ده كلام يتـقال ف رسالة دكتوراة والناس تسقف لك عليه، لكن مش هيفيدك هنا

وفجأة يسمع "أبيّ" صوت "مجد" الصارم يتردد بجانبه:

– بس أكيد اختفاء زميلها وعمها من إمبارح هيدعم كلامها على الأقل

"أبيّ" يلتفت إلى "مجد" الواقف أمامه بطلته المهيـبة ونظراته الصارمة، ليقول بدهشة:

– مجد؟!

"رحمة" تنـتـفض في مكانها وتقف كالمشدوهة وهى تسمع صوت "مجد" الذي يقول:

– أنا لسه جاي من جريدة المستقبل اللي شغالة فيها رحمة وزميلها براء، وعرفت إنه ماراحش الشغل النهارده وتليفوناته كلها مقفولة

فيقول له "أبيّ" بمزيج من الخجل والحرج:

— إنت أكتر واحد عارف اللي بينى وبينك يا مجد، بس اعذرنى لو أضطريت أقولك إن هنا مش مجال ترد لها فيه الجميل، لا إنت المحامى بتاعها ولا وجودك هنا ليه صفة قانونية أصلا

فيسأله "مجد" بغموض:

— حتى لو كنت شاهد؟

"رحمة" تتسع عينيها الكفيفتين بذهول، بينما ينظر "أبيّ" بحيرة لـ "مجد" ويسأله بدهشة:

— شاهد على إيه؟

"مجد" بغموض أكتر:

— الإجابة مش هتعرفها النهارده، بس أوعدك إن الأيام اللي جاية هكون فيها طرف رئيسى ف القضية، وإنت بنفسك اللي هتستدعينى

فى نفس اللحظة يرن هاتف المكتب فيرفع "أبيّ" السماعة ليرد على المتصل:

— آلو، أؤمر يا فندم

يستغل "مجد" إنشغال "أبيّ" بالمكالمة، فيمد يده ليمسك بكف "رحمة" أسفل المكتب حتى لا يلاحظ "أبيّ" ذلك، ويحرك "مجد" سبابته على راحة يدها وكأنه يكتب لها رسالة خفية يقول فيها بإصبعه:

— مالك عندى ف البيت بيفك شفرات الـ CD، بس مش هقدر أعلن ده إلا لما نفك الشفرة حفاظًا على حياتك وحياته

"رحمة" تتسع عينيها بمزيج هائل من الدهشة والفرحة، وكأنها لا تصدق، قبل أن تحذو حذو "مجد" وتحرك بدورها إصبعها على

كفه لترد عليه بتلك اللغة الحركية:

— مش هتصدق لو قولت لك انى كتبت اللي كتبته عنك، عشان أرد لك مقدمًا جميل كنت واثقة إنك هتعمله فيا ف يوم من الأيام

"مجد" يتأمل السلسلة المعلقة على صدرها، ويدقق النظر في صورة والدها ووالدتها، ثم ينهض وهو يمنحها ابتسامة رقيقة وكأنها تراه، وبالفعل أحست به هي الأخرى لتبادله البسمة بدورها وقد بدأ التوتر الجاسم على صدرها في التفتت، قبل أن ينهى "أبيّ" المكالمة لينهض ويمد يده لـمصافحة "مجد" قائلًا بإحراج:

— نتقابل بعدين يا مجد، في كارثة جديدة هضطر أروح أحقق فيها بعد ما أخلص التحقيق مع المتهمة، أشوفك ف ظروف أحسن من كده

ينهض "مجد" بدوره ليمد يده ويقول لـ "أبي" بسخرية مريرة وهو يصافحه:

— يبقى مش هنتقابل

* * *

الفصل السادس عشر

في منزل "مجد" ينهمك "مالِك" بالضغط على لوحة مفاتيح اللاب توب، الموصل بهارد ديسك خارجي «External"، بينما نرى على الشاشة مجموعة من الأرقام المتراصة التي تتبدل وتتغير مع ضغطات "مالِك" لتتحول إلى حروف بعدة لغات سواء العربية والأنجليزية والصينية بجانب حروف غير لغوية مثل * و# و@، فيزفر زفرة حارة تعبر عن ضيقه، في الوقت الذي يدخل فيه "مجد" من الشقة مرتديًا قميصًا أسودًا مجسمًا، وبنطلونا ذو لون أسود مشحم، تقف خامته بين الجينز والقماش ويسأله باهتمام:

– إيه الأخبار؟

"مالِك" وهو لا زال يضرب أزرار الكيبورد بإصرار:

– الـ CD مكتوب بشفرة مالهاش أي علاقة بشفرات الكمبيوتر، أنا جربت كل الأنظمة الكمبيوترية، من أول النظام العشرى التقليدى، لغاية نظام أسكى والـ Unicode Worldwide Character Standard وبرضه مفيش فايدة

يقترب منه "مجد" ليلقى ناظرة عابرة على شاشة اللاب توب وهو يتساءل:

– والعمل؟

يتوقف "مالِك" عن ضرب مفاتيح الكيبورد، قبل أن يخلع نظارته الطبية ويفرك عينيه ثم ينظر لـ "مجد" قائلا:

– أنا معايا برنامج على الهارد الـ External يقدر يفك أي شفرة ف دقايق، بشرط إنك تعرف مفتاحها

يعقد "مجد" حاجبيه ويسأل:

– يطلع إيه مفتاح الشفرة ده؟

– أي شفرة ف الدنيا لها نظام معين هو اللي بيحدد طريقة تحويل حروفها وكلماتها لمصطلحات متفق عليها بين اللي بيستخدموا الشفرة دى، النظام ده بيطلق عليه مفتاح الشفرة

– والمفتاح ده نعرفه إزاي؟

– لازم تكون عندنا معلومات كافية عن الناس اللي شفّروا الـ CD عشان نقدر نستنبط مفتاح الشفرة

"مجد" يسرح مع الكلمة دون أن يعلق بحرف واحد

* * *

داخل مقر شركة "الهراس" نرى "آسر" إبن "قابيل الهراس" بجسده الطويل، وعوده الرشيق، مرتديًا ملابس كاجوال غالية الثمن، وسلسلة ذهبية تزين عنقه، وقد جلس على مكتب والده، بينما تدخل عليه السكرتيرة قائلة:

– المقدم أمل يا آسر بيه

"آسر" يزفر زفرة حارة، قبل أن يقول بإمتعاض:

– خليه يدخل

المقدم "أمل" يدخل بخطوات واثقة، وفى عينيه نظرة حادة تمسح أرجاء المكتب، قبل أن يجلس على المقعد المواجه المقابل لمكتب "آسر" قائلًا بسخرية:

– هايل، اللي يشوف حالة المكتب بعد ما فتشناه وإحنا بندور على والدك، يفتكر إنه مش هيرجع زي ماكان قبل شهر

"آسر" بسخرية مماثلة:

– ما إحنا ف عصر السرعة يا أمل بيه

المقدم "أمل" بنظرة ثعلبية:

— عشان كده أنا جاي لك بعرض هيخلينا نفتح صفحة جديدة بعد كل اللي حصل

"آسر" بنظرة ثعلبية مماثلة:

— يا ريت

— نص الثروة، والتنازل عن كل الأسهم والسندات المملوكة للشركة لصالح الدولة، مقابل السماح لقابيل بيه بالخروج م البلد والسفر لأي دولة يختارها

"آسر الهراس" يضحك ساخرًا قبل أن تنقلب سحنته وهو يقول:

— قصدك تقول إن ده العرض اللي بابا عرضو عليكوا، وعرض فوقيه كمان يسلمكوا CD عليه أسرار صفقات مشبوهة بين قضاة مرتشين ورجال أعمال تقيلة ف البلد، وإنتوا خليتوا بيه بعد ما سلمكوا رقبته

المقدم "أمل" بصرامة:

— إحنا كلمتنا واحدة وما بنخلاش بحد

وفى تلك الأثناء كان "مجد" و"نديم" يستمعان لهذا الحديث في الوكر السرى لـ "مجد" أمام أجهزة الاستماع لمتابعة الحديث حين قال "آسر":

— واضح، بدليل إنكوا هيّجتوا الرأي العام عليه واتهمتوه إنه حاول اغتيال قاضى وقتل أمه، مع إنكوا عارفين كويس إن مش هو اللي عمل كده

— هو اللي اعترف على نفسه

— تحت ضغط، وانتوا بنفسكوا اتأكدتوا إن ناس هددوه ف السجن عشان يقول الكلام ده مع إنه لا قتلها ولا ليه دعوة باللي حصل ورغم كده كتّمتوا ع الموضوع

يلتقط المقدم "أمل" نفسا طويلا قبل أن يقول بحزم:

— ما تنساش إن اعترافات أبوك اتنشرت ف الجرايد، ولو كنا قولنا حرف واحد عن إنه برىء من التهمة دى، كان الرأي العام هاج أكتر ما هو هايج وآديك شايف حال البلد عامل إزاي، كله بيخوّن كله، وبعدين ماتنساش إن مش دي القضية الوحيدة اللي متهم فيها، رشوته للقاضى كانت صح وإنت كمان عارف كده كويس

"آسر" غاضبا:

— وعشان غِلِط في قضية تشيّلوه باقى المشاريب؟

"أمل" بنبرة أهدأ:

— ماحدش قال كده، إحنا كنا مستنيين الموضوع ينام وكل حاجة تتم زي ما اتفقنا، بس أبوك اتسرع وهرب

"آسر الهراس" ببرود:

— صدقنى أنا معرفش مكان بابا عشان أبلغك الرد بلسانه

المقدم "أمل" يعود لعصبيته وهو يقول بصوت صارم ونبرة أعلى:

— مفيش داعى للف والدوران، إنت عارف كويس إن ماحدش هيصدقك

لكن "آسر" لم تهتز له شعرة، وهو يواصل الحديث بنفس البرود:

— الحال من بعضه يا أمل بيه، إنتوا كمان صفقاتكوا مبقتش تتصدق

فى وكره السرى يعقد "مجد" حاجبيه أكثر وهو ينتظر رد "أمل" الذي تأخر لثوانى قبل أن يقول:

— عموما أنا مش هاخد منك الرد دلوقت، فكر كويس وبعدين

كلّمني، بس اعمل حسابك إن كل لحظة بتعدى بتعقد الدنيا أكتر، واللي مش هترضى بيه النهارده ممكن بكرة تحلم بربعه وماتطلهوش

يسمع "مجد" بعدها صوت خطوات "أمل" وهو يغادر المكتب دون أن ينبس بعدها "الهراس" الصغير ببنت شفة، في حين يرتسم الوجوم على ملامح "نديم" الذي ينظر لجهاز الاستماع غير مصدق نفسه قبل أن يتساءل بصدمة:

– لو الهراس فعلا مش هو اللي قتل والدتك الله يرحمها، مين اللي ممكن يكون له مصلحة ف كده؟

لكنه لا يسمع سوى صمت "مجد"، وعندما ينظر إليه ليكرر السؤال، لا يجد له أدنى أثر!

* * *

"للأسف يا فندم توقعاتك طلعت في محلها، كل ملفات الإخوان اختفت من الجهاز"

هكذا يقول الرائد "مجدي" وعلى ملامحه الضيق والاحباط، فيما يشيح "أمل" بوجهه وهو يجلس على مكتبه ليردد بخفوت وقلة حيلة:

– رغم إنه كان متوقع، بس كان نفسي أطلع غلطان، إحنا كده عاملين زي العبيد الرومان اللي بيصارعوا الأسود من غير سلاح جوه قفص حديد

يتنحنح الرائد "مجدي" في حرج ويبدو أنه يحمل داخله حملا ثقيلا على صدره، لكنه في الوقت نفسه أثقل من أن ينطقه لسانه، فينظر له "أمل" بتساؤل قائلا:

– مالك يا مجدي؟ عايز تقول حاجة؟

– أصل.. أصل يا فندم وأنا بدور على ملفات الإخوان لقيت في نفس المكان ملفات تانية خالص بس بتخص السيد الوالد

– أبويا أنا؟

– أيوة يا فندم

– ملفات إيه دي؟

– ملفات مكتوب عليها إنها سرية، وفيها تقارير بتقول إنه حاصل على مجموعة من أراضي الدولة بمرسى مطروح بشكل غير قانوني كنوع من الـ... إحم

– كنوع من الإيه، انطق

يبتلع "مجدي" ريقه وهو يغمغم بصوت مبحوح متردد:

- كنوع من الرشوة

يهب "أمل" واقفا كالممسوس قبل أن يصرخ غاضبا:

– أنا أبويا أشرف من كل الكلاب اللي كتبوا عنه الكلام الفارغ ده.. أكيد دي رسالة منهم بتقول إني لو حاولت أنبش وراهم هيشوهوا عيلتي ويضروا أقرب الناس ليا، وبكده يبقى مفيش فرق بينهم وبين النظام اللي فات في تشويه الخصوم، عشان كده هيلاقوا نفس المصير قريب أوي

* * *

في منزله، يدخل المقدم "أمل" ليجد زوجته تجلس مع والده المستشار "أحمد العبد" في الريسبشن، قبل أن تنهض الزوجة وتقبله قائلة وهي تشير لوالده:

– إيه رأيك بقى في المفاجأة الحلوة دي؟

ينظر "أمل" لوالده في انكسار، حتى أن ذراعيه تجمدت حين احتضنه والده، ولم يقو على مبادلته بالعناق حين قال له المستشار "أحمد العبد":

— لقيتك مختفى وما بتسألش على أبوك فجيت لك بنفسى

يجيب "أمل" بلهجة ثقيلة وهو بين أحضان والده:

— غصب عنى والله يا سيادة المستشار، إيش حال إنت أدرى واحد بطبيعة شغلى

الأب يشير تجاه شاشة التلفاز التي يظهر عليها الإعلامي "محمود سعد" قائلا باهتمام:

— فريق الإعداد لسه قافل معايا وهعمل مداخلة خلال دقايق مع محمود سعد عشان أرد بيها على غيبوبة شوية القضاة اللي عاملين فيها زعماء سياسيين، أقعد شوف أبوك هيعمل إيه

تقوم زوجة "أمل" بمعاونته على خلع جاكت بذلته، وتأخذ منه سلاحه الميرى لتدخله في غرفة النوم، بينما يجلس "أمل" على مضض بجوار والده في إنتظار تلك المكالمة التي لا يقتنع بجدواها، قبل أن تأتى زوجته من غرفة النوم لتجلس معهما في الريسبشن وتلاعب لـ "أمل" حاجبيها في شقاوة دون أن يلحظ الأب ذلك، ليكتم "أمل" ابتسامته، قبل أن يرن هاتف المستشار في الوقت الذي يقول فيه "محمود سعد" على الشاشة:

— ويا ترى إيه تبعيات انقسام القضاء المصرى لتيار حكومى وتيار أخر مستقل له توجهات مختلفة عن توجه الحكومة؟ وهل فيه صراع بينهم؟ ولصالح مين الصراع ده؟ معانا على الهاتف المستشار أحمد العبد للإجابة على هذه التساؤلات، سيادة المستشار اتفضل

المستشار قائلا بخيلاء وثقة:

— فى الحقيقة يا محمود بيه أنا في غاية الإندهاش من اللي بيحصل من بعض الزملاء من القضاة والمستشارين، اللي بيطالبوا باستقلال القضاء

"محمود سعد":

— سيادة المستشار الصوت مش واضح، يا ريت توطى التليفزيون

المستشار "أحمد" يوجه الريموت كنترول للتلفاز ليخفض الصوت ويتابع مجددًا:

— بقول لحضرتك قضاء مصر الحقيقى برىء من بعض القضاة اللي لجأوا لتشويه صورته إعلاميًا، وتوجيه الإتهامات بدون أي دليل

"محمود سعد":

— سيادة المستشار أرجوك يا ريت توطى الصوت تانى

المستشار يوجه الريموت كنترول للتلفاز ليخفض الصوت مرة أخرى ويتابع:

— بقول لحضرتك هؤلاء القضاة استخدموا لغة العنف في الحوار، بخلاف عدم إتفاقهم فيما بينهم على كلمة واحدة، مما يؤكد انتهاجهم لمنهج الفوضى، ده غير إنهم جت لهم عروض مالية لتحسين أوضاعهم، لكنهم رفضوها بحجة إن ده بيؤثر على نزاهتهم، رغم أنها كانت عروض مشروعة وقانونية، ثم عادوا ليؤكدوا أن هناك عدم إهتمام من الدولة بتحسين أوضاع القضاة، وللأسف كل همهم إنهم يلبسوا ثوب البطولة فقط مش اكتر

نسمع صوت يشير إلى إنتهاء المكالمة في حين يقول "محمود سعد":

— واضح إن فيه مشكلة في الاتصال

بينما يغلق المستشار موبايله غاضبًا، قبل أن يمنحه "أمل" نظرة حزينة قائلا:

— قول لي يا بابا، ما خوفتش وإنت بتصارع خصومك تكون لك نقطة ضعف حد ممكن يمسكها عليك ويستغلها في ضربك تحت الحزام؟

— لسه ما اتخلقش اللي ممكن يضرب أبوك تحت الحزام، ثم إني ماليش نقطة ضعف، إنت ليه بتسأل السؤال ده؟

— عشان أنا وإنت النهارده في نفس الخندق قصاد خصم واحد حتى لو اختلفت المسميات، خصمك مسمي نفسه تيار القضاء المستقل اللي اتضح إن معظم أفراده خلايا نايمة لها ميول إخوانية، وخصمي الإخوان جندوه عشان يشغـّل الداخلية لحسابهم، ولما حس إني كشفته ساب لي رسالة فيها ملفات سرية بتقول إن عندك أراضي حصلت عليها بشكل غير قانوني كنوع من الرشوة

يمتقع وجه المستشار "أحمد العبد" لثوان اصطبغت فيها بشرته باللون الأزرق قبل أن يقول:

— مين الخصم ده؟

— رئيس جهاز مباحث الأمن الوطني

— ده آخر واحد ممكن يتكلم عن الفساد، أنا لو حكيت لك عن الـ...

"أمل" مقاطعا:

— ما يهمنيش هو إيه، اللي يهمني هل كلامه عليك صح واللا غلط؟

يتلعثم المستشار قبل أن يقول:

— اتطمن يا ابني، أبوك ما يخطيش خطوة واحدة غير وهو واخد كل احتياطاته كويس، وكل الأراضي اللي معايا ورقها قانوني

— قانوني قدام الحكومة بس؟ واللا قدام الحكومة وربنا؟

— إنت هتحاسبني يا ولد؟

— العفو، بس لو كان فارق معاك اسمك وسمعتك قدام الحكومة والمجتمع بس، أحب أنبه حضرتك إن عدالة السما أهم بكتير، وبعدين عمرك ما جيبت لي سيرة عن الأرض دي

المستشار "العبد" بعصبية:

— عشان أجمل هدية ممكن تهاديها لولادك هي اللي بيكتشفوا إنها من ريحتك بعد ما تموت، لكن للأسف إبني بيحقق معايا بتهمة إني كنت عايز أأمن مستقبله

— ابنك خايف عليك من عقاب أخطر بكتير من قفص حديد وحبس بين أربع حيطان وفضيحة هتلازمك طول العمر، وإذا كان أبويا المستشار الكبير اللي بيحاكم الناس وقع في نفس غلطهم، يبقى نسيبنا بقى من النضال والكفاح ومداخلات التوك شو وخلينا ف روتانا سينما

قال "أمل" جملته الأخيرة وهو يوجه الريموت كنترول نحو التلفاز ليجلب قناة "روتانا سينما" بالفعل، ليوجه القدر رسالته حين ظهر على الشاشة "أحمد ذكي" في فيلم "ضد الحكومة" وهو يصيح:

— كلنا فاسدون، كلنا فاسدون، لا استثنى أحدًا، حتى بالصمت العاجز الموافق قليل الحيلة.. سيدي الرئيس، كل ما أطالب به أن نصلى جميعًا صلاة واحدة لإله واحد.. إله العدل، الواحد، الأحد، القهار.. لست صاحب مصلحة خاصة، وليس لديّ سابق معرفة بشخوص الذين أطلب مساءلتهم.. ولكن لديّ علاقة ومصلحة في هذا البلد، لديّ مستقبل هنا أريد أن أحميه، أنا لا أدين أحدًا بشكل مسبق، ولكني أطالب المسئولين الحقيقيين عن هذه الكارثة بالمثول أمام عدالتكم لسؤالهم واستجوابهم.. فهل هذا كثير؟ أليسوا بشرًا خطائين مثلنا؟ أليسوا قابلين للحساب وللعقاب مثل باقى البشر؟ سيدي الرئيس، أنا ومعي المستقبل كله نلوذ بكم، ونلجأ إليكم، فأغيثونا، أغيثونا، أغيثونا والله الموفق

ليتوارى الوالد خلف كلمات المشهد، وينصرف من المنزل في خجل،

بينما يدخل "أمل" غرفة نومه ذات الإضاءة الخافتة وهو يزفر في سخط مغمغما:

— إمتى هنخلص من وجع القلب ده بقى؟!

فتأتيه الإجابة بصوت "مجد" من الجانب المظلم في غرفته:

— لما ما يكونش فيه فرق بين القانون والعدالة

"أمل" يلتفت للصوت، فيخرج "مجد" من الجانب المظلم بشخصيته المقنعة

- إنت؟

قالها "أمل" وهو يقفز نحو مسدسه الموضوع على الكومودينو، قبل أن يلتقطه ويصوبه نحو "مجد" الذي لم تجاهل المسدس تماما وهو يضغط على زر في ملابسه ليعيد تشغيل مقطع من ذلك الحوار المسجل مع "آسر الهراس"، ليتردد صوت "أمل":

— نص الثروة، والتنازل عن كل الأسهم والسندات المملوكة للشركة لصالح الدولة، مقابل السماح لقابيل بيه بالخروج م البلد والسفر لأي دولة يختارها

المقدم "أمل" تتسع عينيه بصدمة، قبل أن يحاول تمالك أعصابه ليقول بنبرة غاضبة ووعيد صارم:

- أرفع إيدك فوق وإلا هضربك بالنار

"مجد" ساخرا:

— تضربنى بالنار وتعرض على المجرمين إنهم يخرجوا برة البلد؟

"أمل" بتحدى:

- لو راجل شيل القناع اللي على وشك

"مجد" بتحدى مماثل:

— لو راجل أعلن صفقتك مع آسر الهراس قدام الرأي العام

"أمل" يصمت وقد عجز عن الكلام بينما يتابع "مجد":

— كلنا ف رحلتنا للحقيقة بنلبس ماسكات، بدليل إنك ظابط صالح ورط نفسه ف صفقة وسخة عشان توصل لهدفك

يعقد "أمل" حاجبيه وهو يمسك بالمسدس أكثر وقد تنافرت عروق يديه وهو يتساءل:

— إنت عايز إيه؟

— بما إنك ليك في الصفقات، أنا جاي اعرض عليك صفقة

— صفقة إيه؟

— التسجيل اللي معايا هيدينك إنت وجهاز الأمن الوطني بحاله لو وصل للصحافة ومواقع النت والفضائيات، وإنتوا مش ناقصين، عشان كده أنا بعرض عليك نكفي على الخبر ماجور مقابل إني أعرف إجابة سؤال مهم بالنسبة لي

يعقد "أمل" حاجبيه في إنتظار السؤال، قبل أن يسأل "مجد":

— ليه سكت لما آسر الهراس قال لك إن أبوه بريء من قضية القتل؟ ومين الناس اللي هددوه جوه السجن عشان يعترف تحت ضغط؟

يصمت "أمل" بدون جواب للحظات فيقول "مجد" بصرامة:

— صدقني أنا عارفك كويس، وعارف إنك أنضف من قياداتك اللي وروطوك في الصفقة دي، وأكيد إنت كمان مهما كنت مختلف معايا لاحظت من خلال تحرياتك إني في صف الحق وماليش أي نشاط مشبوه، جاوب على سؤالي بدل ما نصنع عداوة مالهاش مبرر

يلتقط "أمل" نفسا عميقا قبل أن يقول بتردد:

– لما قابيل الهراس حب يعيد التحقيق من جديد، قدم C.D قال إن عليه معلومات خطيرة عن منظمة اسمها نبض العدالة فيها قضاة ومستشارين وظباط شرطة بيشكلوا تنظيم سري، وحكى كل اللي حصل له من ضغوط وتعذيب جوه السجن عشان يعترف إنه حاول يقتل القاضي مجد الدين مهران مع إنه مالوش علاقة باللي حصل، لكن للأسف فجأة اختفى وكيل النيابة اللي فتح التحقيق من جديد في ظروف غامضة واختفت معاه الـ C.D اللي عليها المعلومات، وبعدها بيومين هرب قابيل الهراس وكل الخيوط اللي توصلنا لشيء اتقطعت

– ومين اللي هيكون ليه مصلحة في محاولة اغتيال مجد الدين وتفجير المنظمة غير الهراس؟

– الجريمتين متورط فيهم عناصر إجرامية لها نشاط دولي، دخلوا البلد لجهة مجهولة أوهمتنا إن لها علاقة بقابيل الهراس، بس طلع ف الآخر مالهمش علاقة بيه

يستدير "مجد" متوجهًا للنافذة وهو يقول:

– يبقى لازم تواجه اللي بيحصل بخطة مش تقليدية، اللي بيحصل حوالينا جنون مايوقفهوش غير جنون أكبر منه

"أمل" وهو يصيح فيه ملوحا بمسدسه:

– أقف عندك

"مجد" يستمر ف السير فيكرر "أمل":

– قولت لك أقف

لكن "مجد" يستمر ف السير، فيضغط "أمل" على زناد الضرب موجها المسدس إلى قدميه، لكن المسدس لا يصدر سوى تكة معدنية، فيتسمر "مجد" في مكانه ثم يستدير ليخرج من جيبه خزنة الرصاص الخاصة بمسدس "أمل" قائلًا:

– أبقى أتأكد إن مسدسك متعمر قبل ما تضرب يا سيادة المقدم، ولما تضرب، أضرب عدو، مش واحد معاك ف نفس الفريق

"مجد" يلقى خزنة الرصاص تحت قدمى "أمل"، ثم يقفز من الشباك، فيجرى "أمل" إلى النافذة وينظر منها، فلا يجد له أدنى أثر بعد أن ذاب في الظلام

* * *

الفصل السابع عشر

في مجلس الشورى، وقف وزير الدولة للشئون القانونية والمجالس النيابية سابقا، ليلقي خطبته العصماء التي يسعى من خلالها لاستمالة باقي أعضاء المجلس للموافقة على تعديل قانون السلطة القضائية قائلا:

– ولأن الشعب هو صاحب المحكمة العليا لهذا الوطن، ولأن مجلس الشورى هو نتاج هذا الشعب، وهو صاحب الحق الأصيل في التشريع في ظل غياب مجلس النواب، وليس لأي جهة في الدولة حق التشريع غيره، فها نحن اليوم نستند إلى حقنا القانوني والدستوري في تحريك المياه الراكدة. والبحث عن إصلاح وتعديل لما أصاب قضائنا الشامخ من عطب وآفات سياسية في عصر اتسم بالفساد، وبما أن نقطة البدء يجب أن تكون تشخيص المشكلة قبل طرح علاج لها، فلا ريب أن السلطة القضائية كانت هي الأكثر استقلالا من باقي السلطات في عصر مبارك إذا ما قُورنت بالسلطتين التشريعية والتنفيذية، فعلي خلاف السلطتين المشار إليهما فإن القضاء وحده استطاع أن يواجه كثيرا من قرارات السلطة التنفيذية بالإلغاء أو التعويض، ومن بين ذلك أحكام بطلان بعض عقود التخصيص أو الخصخصة، وكذلك رأينا أحكاما صدرت عن قضاة عظام بإلغاء إحالة المدنيين لمحاكم عسكرية، بل ولن ينسي أحد عندما يؤرخ للقضاء المصري وللمحكمة الدستورية العليا بالذات تصدي هذه المحكمة لكثير من التشريعات الظالمة فقضت بعدم دستوريتها، بخلاف فريق الاستقلال من القضاة الشرفاء الذين نزلوا من علياء منصاتهم إلي الشارع للدفاع عن استقلال أحكامهم، لكن، الحقيقة أن هذه الصورة الوردية في مجملها أصابتها الشوائب المتطايرة في عصر اتسم بالفساد والتدخل بإفساد كل صالح

في تلك الأثناء كان هناك مجموعة من الملثمين يتسللون بخفة واحتراف في أروقة الدور الثالث بمحكمة جنوب القاهرة، وقد حمل كل منهم جركنا من البنزين، ليوزعوا أنفسهم على الغرف المليئة بالملفات والأوراق، ثم يبدأ كل منهم بموقعه في سكب البنزين وتوزيعه في كل جنبات الغرفة، بينما يواصل وزير الدولة السابق للشئون القانونية والمجالس النيابية إلقاء كلمته بمجلس الشورى قائلا:

– إن الاستقلال والحيادية التي اتسم بها القضاء كانت نسبية في كثير من المراحل والحالات، إذ لم يخلُ الأمر من محاولات للنظام السابق للتدخل في شئون العدالة مستخدما العصا والجزرة، وكان مدّ سن الإحالة للمعاش جزءا من الجزرة، كما تعامل النظام السابق مع منصب النائب العام باعتباره وظيفة تنفيذية لا قضائية، فكان يعينه ويقيله بنقله لوظيفة أخرى دون أدنى احتجاج من أحد

أحد الملثمين يدس في الفيشة سلكا ذو طرفين مكشوفين، ثم يقربهما من البنزين المسكوب على الأرض قبل أن يلامسهما ليصدرا شرارة كهربائية سرعان ما تتحول إلى حريق ينتشر في ثوان بجنبات الدور الثالث، فيما يواصل وزير الدولة السابق للشئون القانونية والمجالس النيابية كلامه:

– وأهم ما قام به النظام السابق هو إغماض عينه عن معايير التعيين في القضاء فترك الأمر كاملا بيد القضاة ورجال مباحث أمن الدولة، بغض النظر عن وجود معايير موضوعية أو تخلفها، ونأمل أن يحقق مشروع قانون السلطة القضائية العدالة لأوائل خريجي كليات الحقوق والشريعة والقانون بعد أن حرموا من أحقيتهم في التعيين بالقضاء المصري بناءً علي جدارتهم، لصالح أبناء القضاة و أقاربهم الذين لم يمتلكوا لا الكفاءة ولا الجدارة، وكانت تكفيهم

صلات القرابة والمصاهرة لأعضاء الهيئات القضائية حتى يتم تعيينهم، وبذلك أُهدرت معايير العدالة في اختيار وتعيين القضاة الذين من واجبهم أن يحققوا العدالة، فهل هناك عبث أكثر من ذلك؟

في تلك الأثناء، كان المستشار "حسين مكي" يتقدم بتحفز في القصر الجمهوري نحو مكتب رئيس الجمهورية، قبل أن يصل إليه ويفتح الباب بغضب، لتتلاقى عينيه بعيني الرئيس قبل أن يقول بصرامة وحزم:

– برضه سيادتك نفذت اللي في دماغك من غير ما تدرس مع النائب بتاعك تبعيات قانون زي ده، ونسيت إن البلد مقسومة ومش مستحملة غليان أكتر، أنا بحملك المسئولية

ليجيبه الرئيس بعينين يطل منهما الصلف والعناد:

– يظهر إنك نسيت إزاي المفروض تتكلم مع رئيسك يا حسين، من هنا ورايح لازم تراعي اللهجة الرسمية في كلامك، ولو إن الكلام والمقابلات هتقل بحكم المنصب الجديد اللي رشحتك ليه

تضيق عيني نائب رئيس الجمهورية متساءلا:

– منصب إيه؟

– سفير مصر في الفاتيكان

لتتسع عيني نائب الرئيس غير مصدق نفسه، بينما لا زال وزير الدولة السابق للشئون القانونية والمجالس النيابية يواصل إلقاء بيانه تحت قبة مجلس الشورى قائلا:

– لقد انتشرت الوساطة والمحسوبية على حساب الجدارة والكفاءة لسنوات طويلة حتى منّ الله علينا بدستور يعيد الأمور إلى نصابها الصحيح بتولي أصحاب الكفاءة والجدارة للوظائف العامة، ولذلك فإن من المحزن أن نسمع اتهامات للقائمين على السلطة التنفيذية بالعمل على أخونة القضاء لمجرد طرح مشروع تعديل قانون السلطة القضائية للنقاش، وكأن القضاة من الإخوان موجودون بالمئات ينتظرون أن يتولوا الوظائف العليا في القضاء بمجرد خلوها، في حين تسعى السلطة التنفيذية بمعونة السلطة التشريعية على إصلاح أخطاء الماضي ورد حقوق المظلومين لأهلها في بلد كان الظلم فيها أساس الحكم، فإذا بالعدل فيها يصبح أساس المـــُلك

ومع انطلاق حروف كلماته الأخيرة، اهتزت القاعة بتصفيق الأعضاء الحاد، لنرى في نفس اللحظة "مجد" وهو يجلس في منزله، يتابع ما يبث على الهواء مباشرة، وقد انقسمت شاشة التلفاز إلى نصفين،نصف يذيع وقائع جلسة مجلس الشورى، والنصف الأخر يبث حريق محكمة جنوب القاهرة التي كانت تنظر دعوى اتهام جماعة الإخوان المسلمين بتزوير انتخابات رئاسة الجمهورية، وقد امتد حريقها إلى عنان السماء، ليداري دخانه الأسود على ميزان العدالة المنحوت على واجهة المحكمة

* * *

فوق هضبة المقطم، وقف المستشارين "حسام البسطاويسي" و"حسين مكي"، وقد ارتدى كل منهما معطفا ثقيلا تحركه الرياح القوية، ليقول الأول بلهجة حزينة حملت حروفها الهواء الساخن الذي يخرج من شفتيه كدخان سجائر في قلب ليلة باردة:

– لو سألتني إيه أكتر كلمة بتكرهها في حياتك، هقولك ما أكرهش أكتر من جملة "مش قولت لك"، لكن المرة دي مش لاقي جملة غيرها ممكن أقولها

يرد عليه نائب رئيس الجمهورية السابق بحزن يقطر من كلماته:

– قول كل اللي عايز تقوله، أنا جاي النهارده اتطهر بكرباج كلامك

لحد ما أكفّر عن ذنوبي وأعرف أرجع تاني لمحراب العدالة

– من الغباء إنك تتوب في لحظة المجتمع بيخوّن فيها الشرفاء، ويرمي التهم على اللي مالهمش ذنب، فما بالك باللي غلطوا بالفعل، نصيحة مني ليك يا حسين أقبل المنصب الجديد وروح توب هناك في الفاتيكان،أرض سيدنا الحسين وستنا زينب مابقاش عليها ناس ممكن تسامح، خصوصا مع اللي حط ايده في إيد خونة لحد ما طردوه من جنتهم بعد ما خدوا منه اللي هما عايزينه

تلمع عيني نائب الرئيس بالدمع ليقول جاهدا وهو يمنعها من الانفلات:

– خايف بعد العمر ده كله أموت برة مصر

– موت براها أحسن ما تعيش فيها وهي اللي تموت جواك، الإخوان خلاص أيامهم معدودة وكل اللي حط ايده في اديهم هيتحط عليه

– كنت فاكرك هتاخدني بالحضن وتقول لي يالا نرجّع أيام زمان ونقف في وش النظام لحد ما نجيب للعدالة حقها

– لو حطيت ايدي في إيدك يبقى هحكم بالإعدام على القضية اللي عيشت طول عمري أناضل عشانها، الناس ممكن تصدق إن واحدة شريفة بقت رقاصة، لكن مستحيل تقتنع إنها رجعت شريفة تاني

– والناس برضه كانت مستحيل تصدق إن قاضي شريف زيك ياما حارب نظام مبارك وكل القضاة المنتمين ليه، فجأة يقبل إنه يحط إيده في إيد المستشار أحمد العبد اللي وجّه لنا التهم ووقف مع نظام مبارك ضد استقلال القضاء

– حتى الظابط الفاسد اللي كل فضايحه معروفة، ممكن في لحظة تبوس إيده عشان يحميك من حرامي بيهدد حياتك، وساعتها هتنسى له كل بلاويه وتحلف بحياته لمجرد إن مسدسه نجح إنه ينقذك، إنما إنت وقضاة الاستقلال رميتوا سلاحكم على بوابة القصر الجمهوري ومبقاش معاكم حاجة ممكن تطمن الناس أو تحميهم

نائب الرئيس السابق بضيق ونرفزة:

– لكن اللي حطوا إديهم في إيد مبارك كانوا ملايكة، مش كده؟

– الإخوان أثبتوا إن مبارك مش هو أصل كل الشرور، وعملوا لنظامه وأعوانه دعاية هو نفسه ما كانش يحلم بيها، وكل اللي كانوا بيتشتموا عشان انتمائهم ليه، النهارده الشعب مستعد يحط إيده في إديهم عشان يخلصوه من كابوس أكبر، وحاشية فاشلة ماعندهاش القدرة إنها تخلي الناس تاكل وتشرب زي ما كانوا بياكلوا ويشربوا في عز الطغيان والجبروت والفساد

يصمت المستشار "حسين مكي"، وقد فرت الحروف من على لسانه، بينما لا زالت الرياح تحرك معطفه، قبل أن يستطرد المستشار "البسطاويسي":

- أشوف وشك بخير يا حسين، أنا والمصريين خلاص هنعتبرك في حكم المسافرين، حتى لو استنيت

ثم يوليه ظهره وينصرف.

* * *

في منزل "مجد الدين"، يتصفح "مالِك" شقيق رحمة كتابا عن فك الشفرات، وبجواره عدد كبير من الكتب التي تتحدث عن الجماعات السرية على مر التاريخ، بخلاف كتب أخرى عن علم التعمية والترميز، ثم يدون بقلمه بعض الملحوظات في ورقة بيضاء إلى جواره، قبل أن يضرب أزرار كيبورد اللاب توب وبجواره "مجد"

الذي يتابعه بإهتمام ثم يلتفت "مالِك" لـ "مجد" قائلًا:

– أشهر الحركات السرية اللي ظهرت على مر التاريخ، زي الماسونيين، والخناقين، والحشاشين، والماوماو، اختلفت ف طقوسها وطريقة إختيار أعضاءها، لكن كلها اتفقت على ضرورة وجود مبادىء روحانية بتقوم عليها الجماعات دى، يعنى كل أهدافها الدنيوية والمادية، كانت ف الأصل لخدمة أهداف روحانية أكبر، مش أي عضو بيعرفها غير لما بيوصل لمستوى معين من التأهيل والثقة، عشان كده رؤساء الجماعات دي كانوا بيلجأوا لشفرات سرية تحمى أسرار جماعاتهم وتعمى عنين أي متطفل، وعدد كبير منهم كان بيشفر معلوماته ف صورة أرقام

"مالِك" يخرج الـ CD من اللاب توب ويلتفت لـ "مجد" وهو يلوح به قائلًا:

– يعنى اللي عمل الـ CD ده غالبا جماعة سرية، مش قابيل الهراس زي ما إنتوا فاكرين، ولو كان معاه نسخة منه، يبقى حصل عليها منهم بالسرقة،أو حد منهم هربهوله

تتسع عينى "مجد" غير مصدق ما سمع، لتنهال على عقله ألف مطرقة، فيبحث عن مُسكّن في ذلك السؤال الذي يطرحه على "مالِك":

– ولو قابلت عضو من الجماعة دى، إيه أول سؤال هتسألهوله عشان تفك الشفرة؟

يخلع "مالك" نظارته الطبية وهو يقول بحسم:

– ساعتها هسأله: إيه درجة التأهيل اللي وصلت لها معاهم، يعنى كنت عضو ثقة قدر يوصل لمفتاح الشفرة؟ واللا لسه مبتدىء؟

يصمت "مجد" مع الإجابة، قبل أن يرن هاتفه المحمول حاملا

اسم "نديم"، فيرد على الفور، وما أن يضغط على زر الإجابة ويضع الهاتف على أذنه حتى يأتيه صوت "نديم" مشحونًا بالانفعال:

– مجد، أطلع دلوقت حالًا على مؤسسة الهراس، وإنت ف السكة هفهمك كل حاجة

* * *

على طريق كورنيش المعادى يقود "مجد" سيارته بسرعة شديدة، ليأخذ العديد من الغرز متفاديا العديد من السيارات التي تعترض طريقه، وقد ارتدى سماعة بلوتوث يسمع منها ذلك الحوار الدائر بين "براء" و"آسر الهراس"، وينقله له "نديم" من مكتب "الهراس" عبر الموبايل:

– أسمع يا براء، أنا أقدر ما أخرجكش من هنا غير جثة متشوهة تقرف كلاب السكك إنها حتى تشخ عليها

– ساعتها هدمر إمبراطورية الهراس وأنا ف قبرى بالتسجيلات اللي معايا يا آسر بيه

– تسجيلات إيه؟

– تسجيلات عن كل نشاطاتك المشبوهة في التهريب والدعارة وتجارة السلاح

وداخل مكتب "الهراس"، نرى "آسر" يقف أمام "براء" وجهًا لوجه بعيدًا عن مكتبه الخشبى، حيث زاره "براء" في هيئة تنكرية وهو يرتدى شاربا مستعارا، وطاقية ضخمة تخفى نصف وجهه، ليخرج هاتفه المحمول من جيبه ويلوح به في وجه "الهراس الصغير قائلا:

– ده غير طبعا تمويلك السري لمدحت أبو عابد عشان يؤسس تنظيم البلاك بلوك ويضرب بيه خصومك السياسيين، وينشر الفوضى والخراب في الوقت اللي عايز تلهي بيه الرأي العام عن مخططات تانية بتنفذها في الخفا، ودي عينة بسيطة تحت الحساب

قال جملته الأخيرة وهو يضغط على زر في الموبايل لتدور مكالمة هاتفية بين "آسر الهراس" و"مدحت أبو عابد":

صوت "آسر الهراس":

– بتقول إيه يا روح أمك؟ أومال أبويا راح فين؟

صوت "مدحت أبو عابد":

– والمصحف يا فندم ما أعرفش حاجة

– والمصحف؟! كنت عارف م الأول إنك أولعبان ونصاب.. بس شوية النصب اللي ضحكت بيهم ع المسيحيين مش هياكلوا معايا

– يا آسر بيه والله العظيم أبوك هرب من قبل حتى ما أعرض الخطة على رجالتي، وعرفت الخبر من الجرايد زي أي واحد في مصر، أنا حتى ساعتها استغربت وقولت ليه دفعتوا لي المبلغ ده كله طالما انتوا كده كده قادرين تهربوه بمعرفتكم

– أومال هيكون راح فين إذا كان من ساعة ما هرب ما كلمنيش ولا فيه عنه خبر؟

– معرفش

– بقول لك إيه، الكلام مش هينفع في التليفون، انا مستنيك تعدي عليا في مكتبي دلوقت حالا

وبعد انتهاء تشغيل المكالمة المسجلة، يعقد "آسر الهراس" حاجبيه بشدة، قبل أن يقول لـ"براء":

– وإيه طلباتك؟

– رحمة تخرج من السجن فورا، إنت عارف كويس إنها مستحيل تكون هربت أبوك

– وإنت سمعت بنفسك إني ما أعرفش مكانه

– المكالمة دي متسجلة من يومين.. ومن ساعة ما قابلت أبو عابد ومفيش مكالمات تانية تمت بينكم، أكيد لما اتقابلتم وصلت لحاجة جديدة

– ولا الهوا

– يبقى على الأقل تثبت للبوليس إن الأوراق اللي لقيوها في شقة رحمة حد حطها لها عشان يورطها، إزاي بقى دي مش قصتي، المهم إنها تطلع بأي تمن، يا إما مش هتبقى جوّه لوحدها

يتأمله "آسر" للحظات قبل أن يقول:

– وإيه اللي يضمن إنها لو طلعت ما يفضلش صباعي تحت درسك وتبتزني كل شوية؟

– إنك بتجهز من دلوقت للهروب برة البلد، وكده كده لو سلمت التسجيلات اللي معايا مش هيلاقوك عشان تتحاكم

– يبقى أخرّج لك حبيبة القلب في نفس اليوم اللي حهرب فيه

"مجد" يتوقف بسيارته أمام مقر شركة "الهراس"، ليتابع نهاية الحوار الذي ينقله لها "نديم" عبر سماعة البلوتوث، حيث يقول "براء":

– اتفقنا، وبالمناسبة، يا ريت تقول لرجالتك إن مراقبتهم ليا معناها إنهم بيحكموا على ولى نعمتهم بالإعدام

الآن يسمع "مجد" صوت خطوات تبتعد، ثم صوت باب ينغلق، فينظر إلى مدخل الشركة في إنتظار خروج "براء"، وما أن يغادر "براء" الشركة حتى يتلفت حوله في حذر، قبل أن يدخل في أحد الشوارع الجانبية، وخلفه يسير "مجد" بخفة شديدة وحذر،

"براء" يدخل في أول يمين، ثم ينظر خلفه ويتلفت بحذر، قبل أن يدخل في أول شمال، ثم ينظر لأحد الأبراج نظرة طويلة، قبل أن

يواصل الدخول والخروج في أكثر من شارع، ويظل على هذه الحالة لتضليل أي شخص يراقبه، حتى يعود مرة أخرى للبرج الذي نظر إليه، والموجود في أحد الشوارع الجانبية القريبة من مقر الشركة، ويدخله مسرعًا

* * *

الآن يغادر "براء" الأسانسير ويتلفت حوله في حذر، قبل أن يخرج مفاتيح الشقة ويدسها في الباب ثم يدلف إلى شقته المظلمة وهو ينهج من المجهود الذي بذله، قبل أن يضغط زر إضاءة الريسبشن لكنه يسمع من خلفه صوت "مجد" الصارم قائلًا:

— احتياطاتك مش ف محلها

"براء" يلتفت خلفه في فزع، فينتفض في مكانه عندما يرى "مجد" في هيئته المُقَنَّعة وهو يقف على مقربة منه، فيخرج "براء" مسدسًا لكن قبل أن يصوبه على "مجد"، يكون "مجد" كأنما اختفى من مكانه، ليظهر أمامه مباشرة وهو يركل المسدس من يده، ثم يهوى على فكه بلكمة ساحقة، غير أن "براء" يتلقاها على ساعده، ثم يغوص لأسفل ليلكم "مجد" في معدته، في اللحظة نفسها التي يدور فيها "مجد" حول نفسه وهو يقبض على ساعد "براء" الأيمن ليلويه خلف ظهره ويجبره على التأوه بآهة ألم، بينما يقول "مجد" وهو يزيد من الضغط على ساعد "براء":

- كفاية لحد كده

"براء" يتأوه أكثر، قبل أن يقول من بين آلامه:

— تبقوا غلطانين لو أفتكرتوا..

يقطع كلامه وهو يدفع رأسه فجأة بعنف للخلف لترتطم بوجه "مجد" وهو يتابع:

— إنى فريسة سهلة

"مجد" يفلت "براء" الذي أخرج خنجرا من جراب ملفوف حول ساقه، قبل أن ينقض به بعنف على "مجد"، فيقفز "مجد" في الهواء كبهلوان ليصبح خلف "براء" الذي يجد نفسه يطعن الهواء ليسقط أرضا، ثم يلمح مسدسه الذي سقط على الأرض ليمد أصابعه نحوه وما أن يمسكه حتى يشعر بيد "مجد" تقبض على شعره وتدفع وجهه بعنف في الأرض، قبل أن يجثم فوق ظهره ويأخذ منه خنجره ويضعه على رقبته قائلًا في غضب شديد:

— كلمنى بلغة المفرد لأنى مش مع حد

"براء" متألما والدماء تنزف من وجهه:

— يظهر إن الهراس الصغير اختار واحد غبى عشان يلعب معايا، كنت حاسس م الأول إنك تبعه

"مجد" بصرامة تجمد الدماء في العروق:

— التسجيلات اللي بتهدد بيها الهراس موجودة معاك هنا، إدينى سبب يخلينى أبقى على حياتك بعد ما لعبتك اتكشفت لو كنت أنا من طرفه

"براء" تتسع عينيه بهلع، وتخمد مقاومته تماما وهو يقول بحيرة:

- إنت مين؟

"مجد" يتركه وينهض قائلًا بحزم:

— واحد بيخطط زيك عشان ينقذ رحمة،بس بطريقة مختلفة

"براء" ينهض ويمسح بساعده بعض الدماء التي تغرق وجهه قائلًا:

— وعرفت منين إنى هنا؟

— مش إنت لوحدك اللي بيعرف يتصنت ويراقب

"براء" ينظر له بإنبهار لبرهة من الوقت لا يعرف ماذا يقول، فيقول "مجد":

- خش أغسل وشك وسد النزيف عشان نعرف نكمل كلامنا

* * *

بعد أن تخلص من اللون الأحمر الذي كان يزين وجهه منذ لحظات، دخل "براء" إحدى الغرف وخلفه "مجد"، قبل أن يشير "براء" لكمبيوتر في الغرفة قائلًا:

– كل محمول في العالم ليه Serial Number، وكل مكالمات المحمول بتتم من خلال نظام محادثة اسمه G S M، النظام ده متوصل بأقمار صناعية بتمر منها المكالمات، كل اللي عليك إنك تدخل لنظام الـ GSM عن طريق الإنترنت وتدخّل الـ Serial Number بتاع المحمول اللي عايز تتصنت عليه وساعتها كل المكالمات اللي بتتم هتتسجل عندك على جهاز الكمبيوتر

يعقد "مجد" حاجبيه من خلف قناعه متساءلا:

– والـ Serial بتاع المحمول، بتعرفه إزاي؟

"براء" يلتفت إلى "مجد" ويتابع:

– من فترة بسيطة عرفت أجيب من الصين جهاز توصله بالموبايل بتاعك، وتعمل من عليه مكالمة للموبايل اللي عايز تجيب الـ Serial Number بتاعه، يقوم يظهر لك ع الشاشة

يتأمله "مجد" لبرهة قبل أن يسأل:

– وليه اختفيت عن الأنظار من ساعة اللي حصل؟

يقول "براء" بلهجة تصدق على كلامه وتقر بما فيه:

– عشان اكتشفت إني كنت حمار لما تخيلت إن حال البلد هينصلح بالنضال والكفاح، إحنا وصلنا لمرحلة التاريخ نفسه هيقف عاجز عن وصفها والحكم عليها، ومحدش من اللي هييجوا بعدينا هيقدر يفهمها، عشان كده الأجيال الجاية هتجرّيها بسرعة وتدخل على اللي بعدها، لكن اللي عاش حلوها ومرها زي حالاتي هيوصل لقناعة إن الأنبيا والرسل هما بس اللي كان عندهم Option مواجهة الشر بالخير، لكن دلوقت ما عادش ينفع نواجه الشر غير بشر أكبر منه.

يلتقط جريدة من على ترابيزة الكمبيوتر، ويشير إلى خبر منشور فيها بالبنط العريض: **مصرع اللواء ياسر حجازي كبير ياوران القصر الجمهوري في حادث سيارة مروع**، ويتابع:

– اللي هيعمل فيها فارس أو مثالي هيموت مهزوم من غير ما موته يصنع أي فرق، حارب شرهم بنفس سلاحهم، اتجسس عليهم، أحرقهم، خرّب ممتلكاتهم، جمع كل الأدلة اللي ممكن تدينهم وحطها في بلاعة ما يكونش مع حد مفتاحها غيرك، ولما البلاعة تتملي على آخرها بأوسخ وأقذر فضلات في الدنيا أفتحها مرة واحدة، ساعتها كل الناس هتجري وتتلم عشان تمنع الريحة اللي طالعة وهيقفوا جنب بعض كتف بكتف لحد ما يتخلصوا من الوساخة والتلوث، لكن لو فضلت تحارب بالقطعة وتسرب الوساخة اللي بتجي لك أول بأول، الناس هتقول إف في كل مرة وبعدين هينسوا ويكملوا حياتهم عادي جدا، بعد ما الكبار يحطوا لهم المسكنات ومكسبات الطعم والرائحة اللي زيفوا بيها الحقايق ولعبوا بيها في دماغنا طول السنين اللي فاتت

"مجد" ينظر لـ "براء" بدهشة قائلًا:

- ما تخيلتش إن عندنا صحفيين ف مصر ممكن يفكروا بالشكل ده

فيتابع "براء":

- إلا لو كان الموضوع بالنسبة لهم تار

"مجد" يحملق في وجهه عاقدًا حاجبيه بتساؤل، بينما يعود "براء" بذاكرته للخلف وهو يحكى شاعرا أن ذكرياته تتجسد أمام عينيه،

والد "براء" يسير وسط الزراعات ليلًا، وفجأة يخرج من وسط الزراعات شخص يحمل مدافع ألي يفرغه فيه بعنف!

الشرطة تلقى القبض على والد "رحمة" وسط صرخة زوجته، وبكاء الصغيرة "رحمة" والرضيع "مالك"

"من وأنا صغير، قابيل الهراس قتل أبويا ولفق التهمة لأبو رحمة، بعد ما كشفوا سر مصنعه اللي اتسبب في إصابة قرية بلدنا بمرض التيفود"

"قابيل الهراس" يخرج من النيابة بثقة وسط حراسة أمنية مشددة، وينظر لتجمعات الأهالى بسخرية

"كان أبويا وأبوها من كبار القرية وعندهم تلت أرضها، ولما استنجد بيهم الأهالى عشان يقفوا ف وش الهراس، بمكر الشياطين اتحالف مع وكيل نيابة مرتشى، خفى كل الأدلة ولعب ف القضية لصالحه، وحوّل الجريمة لخلاف بين أبويا وأبو رحمة على الأرض"

ملثمون يقتحمون منزل والد "رحمة" ليلًا مستغلين حبسه، لينهالون بالضرب على والدة "رحمة" بعنف قبل أن تتلقى الصغيرة "رحمة" ضربة عنيفة على عينيها، ثم يفتحون الخزنة ويأخذون الأموال والذهب والأوراق

الصغيرة "رحمة" تسير وهى مكفوفة وسط الزراعات، وقبل أن تسقط يأخذ الصغير "براء" بيدها ويعاونها على السير

"كل الأوراق اللي كانت بتدين الهراس بعت رجالته يسرقوها من بيت أبو رحمة بالقوة وهو محبوس، عشان ما يلحقش يديها للمحامى بتاعه ويثبت إنه برىء من دم أبويا، وفعلا، خرج الهراس من قضيته زي الشعرة من العجينة، واتعدم أبو رحمة ظلم بعد ما اتحرمت رحمة من نور عنيها، وبعد ما اتعدم أبوها قبضت الشرطة على الراجل اللي قتل أبويا واعترف إن الهراس هو اللي سلطه، بس قبل ما يتسجل اعترافه في الأوراق الرسمية لاقوه ميت في زنزانته وقالوا إنه انتحر"

صورة الصغيرة "رحمة" التي يساندها الصغير "براء" على السير، تتحول إلى صورتيهما بعد أن كبرا، ولا زال "براء" يساندها، بينما يعود "براء" من ذكرياته قائلا لـ "مجد":

– ومن ساعتها أنا ورحمة مالناش ف الحياة غير هدف واحد، أظن مش محتاج أقوله

يتأمله "مجد" بتأثر قبل أن يسأله:

– يا ترى لسه فاكر اسم وكيل النيابة المرتشى اللي اتحالف مع قابيل الهراس؟ واللا بعد السنين دي كلها،

"براء" مقاطعا:

– مظلوم غلاب، عمرى ما هنساه

"مجد" بصدمة شديدة:

– مين؟

"براء" مكررا:

– مظلوم غلاب

يصمت "مجد" بعد أن ألجمته المفاجأة، فيما يتابع "براء":

– وزي ما حرمتني قوانين مبارك وديناصورات الفساد اللي كبرت في عهده من إني انتقم لأبويا، حرمتني جماعة الإخوان من حضن أمي، لحد ما عشت يتيم الأب اللي فضل عايش جوايا، ويتيم الأم

اللي ماتت وهي لسه عايشة، وآدي النتيجة، وصلنا لنقطة خيار بين نظامين أوسخ من بعض، وكل واحد عامل التاني فزاعة وخيال مآتة عشان يمنع عنا خير بلدنا ويحتفظ بيه لنفسه هو والاضيشه، وحدش بيدفع التمن غير الغلابة

يجز "مجد" على أسنانه وتمتليء ملامح وجهه من تحت القناع بغضب رهيب يكفي لإشعال الكون قبل أن يقول:

– لحد هنا ودورك انتهى، هدف عمرك جزء صغير من هدف أكبر أنا ندرت نفسى ليه

"براء" بغضب:

– تطلع مين إنت عشان تقرر توزيع الأدوار، إنت مجرد واحد جبان متدرأي ورا قناع، أما إحنا وأهالينا حاربنا بوش مكشوف ودفعنا التمن ولسه بندفعه

"مجد" فجأة يقبض على عنق "براء"، ويكبل حركته بيده اليسرى، بينما ينزع شاربه المستعار بيده اليمنى قائلًا بحزم وصرامة شديدة:

– و ف الآخر اضطريت تـتـنكر زيى، طول ما ماحدش عارفك مالكش نقطة ضعف تـتمسك منها، ده قانون الغموض بتاعى اللي مالوش ثغرات

"براء" بتحدى وهو يحاول التملص:

– تطلع مين أنت عشان تصنع القوانين؟

مجد:

– مجرد بنى آدم، بس ماتنساش إن اللي حط القوانين اللي إحنا عايشين بيها، كانوا برضه مجرد بشر

"براء" يحاول التملص بلا جدوى، فتبدأ الدنيا تغيم حول عينيه وهو يفقد الوعى من جراء ضغط "مجد" على عنقه ليمنع وصول الأكسجين إلى مخه، في حين تتردد كلمات "مجد" الأخيرة:

– كلٍ مُيسَر لما خُلق له، أرجع لوشك المكشوف

ما أن يفقد "براء" الوعى حتى يحمله "مجد" برفق ويضعه على السرير ثم ينصرف

* * *

فى مكتبه بجهاز الأمن الوطنى، يجلس المقدم "أمل" ليتابع تلك المواجهة الساخنة في التلفاز بين المستشار "حسام البسطاويسي"، ووزير الدولة للشئون القانونية والمجالس النيابية ومعهما الإعلامي "وائل الإبراشي" الذي يقول:

– سيادة المستشار حسام البسطاويسي، أنت هاجمت نظام مبارك وأكدت أنه حاول ترويض السلطة القضائية وتفصيل قوانينها على مقاسه، فلماذا تعارض اليوم تعديل قانون السلطة القضائية إذا كانت القضية التي أفنيت فيها عمرك هي استقلال القضاء؟

يجيبه المستشار "البسطاويسي" بثقة وثبات:

– في نظام مبارك كانت 60% من الأحكام الصادرة عن المحاكم الجزئية بتتلغى في الاستئناف، و90% من أحكام الجنح المستأنفة بتتلغى في محكمة النقض، يعنى 96% من إجمالى الأحكام القضائية الصادرة عن المحاكم الجزئية بتصدر بالغلط، دي مش أرقامى أنا، دي أرقام الصحف القومية، يعنى الحكومية، وبالتالي كان من واجبي إني أطالب بتعديل القوانين والسيستم القضائي من جذوره، لكن تبقى المشكلة الرئيسية في التوقيت وطريقة التطهير، قبل ثورة يناير قام الرئيس المخلوع بمد السن القانونية للقضاة حتى يشتري بعضهم، ولجأ النظام إلى رشوة القضاة بانتدابهم في الجهاز التنفيذي كمستشارين عشان يحصلوا على المزيد من المنافع والمبالغ المالية بشكل قانوني ظاهريا، والنهارده بيحاول نظام مرسي

وجماعته عن طريق مشروع قانون السلطة القضائية تخفيض سن القضاة لإزاحة أكثر من 3 آلاف قاضي، وتعيين 3 آلاف قاضي جديد، ماحدش عارف معايير اختيارهم وتعيينهم، ولا إيه هي ميولهم وانتماءاتهم السياسية، لتبقى مصلحة النظام الحاكم سواء في عهد مبارك أو عهد مرسي هي المصدر الرئيسي لرفع وتخفيض السن القانونية، وليس مصلحة القضاء أو تطهيره أو العمل على خدمة الشعب المصري، وبناء عليه، فالأزمة الحقيقية ليست في تطهير القضاء من عدمه، بقدر ما تكمن في كيفية تطهيره، ومن الذي يقوم بهذه المهمة المقدسة، الأزمة الحقيقية فيمن يقدر على صنع نقطة نظام، ويفصل بين السلطات، ويدعو المؤيدين والمعارضين إلى مائدة حوار للوصول إلى كلمة سواء، في وقت احترف فيه كل فصيل تخوين الآخر وتشويهه وكَيل الاتهامات، فهل تعتقد معي أن الرئيس مرسي على قدر من الثقة والحكمة للعب هذا الدور؟ إن كانت إجابتك بنعم فدعني أختلف معك بناء على أنه خالف القانون أكثر من مرة، وحاول التمرد على أحكام القضاء في أكثر من واقعة، سواء محاولة إرجاع مجلس الشعب المنحل أو الإعلان الدستوري المعيب، بالإضافة إلى تعيين نائب عام بطريقة غير قانونية، فضلا عن صمته المعيب وغض الطرف عن حصار أنصاره للمحكمة الدستورية لإرهاب أعضائها، ومنع أي حكم بحل اللجنة التأسيسية لوضع الدستور، وفي النهاية الكل يشيد بالقضاء الشامخ إذا ما توافقت أحكامه مع أهوائه ومطالبه، والكل يسب ويلعن هذا القضاء الفاسد وأعضاءه الفلول الذين عيّنهم مبارك إذا ما صدر حكم يخالف ما يتوقعونه، إنها لعبة المصالح، والحكم بأكثر من معيار، ليصبح لكل طرف قولان وذمتان حتى يتم استخدام إحداهما وقت الحاجة، بينما تبقى الأخرى لموقف آخر حسب مقاس المصلحة، حتى القضاة أنفسهم فقدوا حصانتهم، وتلاعبت ببعضهم الميول السياسية والأهواء، ليهووا من فوق منصّاتهم الحصينة، إلى الخناقة السياسية التي تهين كل المشاركين فيها، ويفجُر فيها المتشاجرون بالقول والفعل، فصار هناك قضاة إخوان، وقضاة فلول، وقضاة مستقلون، في أكبر لحظة عبث انسحبت فيها الألقاب والأوصاف التي يتقاذفها البعض على المؤسسة القضائية التي يفترض أن تكون آخر مؤسسة من المسموح أن يطالها اللغط، حيث تتعلق بقراراتها وأحكامها مصائر الأمم طبقا للحكمة الراسخة بأن العدل أساس الملك، والخلاصة، إن العيب في القوانين ونظام العمل نفسه قبل أن يكون في الأشخاص، وسيبقى التطهير وإعادة الهيكلة أمانة في عنق القضاة المحترمين الشرفاء، الذين عليهم أن يقودوا هذه المهمة وحدهم لتطهير محراب العدالة المقدس من أي دنس أو مخلّفات نظامية سابقة، وبمعزل عن الرئيس الحالي وجماعته وقوى المعارضة أيضا لضمان نزاهة هذا التطهير بيد أبنائه المختصين بهذا الشأن وحدهم، ليكون التعديل والإصلاح منهم فيهم، إذ أن باقي الوجوه التي تحيط بهم وتريد التدخل في اللعبة غير مؤهلين للقيام بهذا الدور، وغير أمناء على هذه المسئولية، وفقد الشعب ثقته فيهم وصار يبحث عن أمل جديد، ووجوه جديدة غير محروقة

مساعد المقدم "أمل" يطرق مكتبه، فيصوب "أمل" الريموت كنترول ويكتم صوت التلفاز في لحظة دخول مساعده الذي يسلمه تقريرًا وهو يقول:

— بكل أسف يا فندم مضطر أقول لك إن آسر الهراس فعلًا ما يعرفش مكان أبوه فين، كل تحرياتنا ومتابعتنا أكدت ده

"أمل" يرفع عينيه من التقرير لينظر إلى المساعد ويسأله:

— وعملتوا إيه مع الصحفي اللي اسمه براء؟

المساعد ساخرًا:

— ده طلع نمرة بجد يا فندم، افتكر انه لما يحط شنب مستعار ويلبس طاقية مش هنعرفه

— عرفتوا مكانه؟

— تمام يا فندم، هو ماجر شقة مفروشة جنب مقر شركة الهراس عشان يراقب رد فعل آسر إبنه ويحاول يوصل لأبوه

فيقول "أمل" بلهجةِ آمرة:

— يفضل تحت عنيكوا هو وأي حد يدخل شقته

المساعد يخرج صورة يسلمها للمقدم "أمل" قائلًا:

— هو واحد بس يا فندم اللي راح له

"أمل" يأخذ الصورة ويتأملها، ثم يصعق عندما يجد بها "مجد" مرتديًا قميصه الأسود المجسم، وبنطلونه الأسود بلا قناع، ليعقد حاجبيه، وقد فجرت الصورة في عقله عاصفة من التساؤلات

* * *

في منزل "مجد"، يضرب "مالِك" أزرار الكيبورد، قبل أن ينظر لشاشة الكمبيوتر بإنبهار، وترتسم سعادة الدنيا كلها على وجهه غير مصدق عينيه، ليمسك الموبايل ويتصل بـ"مجد" قائلا بلهجة طفل في دريم بارك:

- أيوة يا مجد، عرفت مفتاح الشفرة

ليرتسم في تلك اللحظة انفعال مشحون على ملامح وجه "مجد" الذي يصمت لبرهة غير مصدق نفسه وهو يقود سيارته، قبل أن ينتزع نفسه من صمته قائلًا:

- إيه هو؟

فيقول له "مالِك" بحماس:

— أبجد هوز حطى كلمن، سعفص قرشت ثخذ ضظغن، ده النظام الأبجدى المعروف للغة العربية، واستخدمه العرب زمان كنظام عددى مرتبط بالحروف الأبجدية

"مالِك" ينظر إلى جدول على الشاشة مكتوب فيه الحروف الأبجدية وأسفل كل حرف الرقم الذي يوازيه وهو يتابع بسعادة:

— النظام ده كان اسمه الترتيب على حساب الجمل، وكانوا بيرمزوا فيه لكل حرف برقم،

"مالِك" يسير بأصبعه على الشاشة التي يظهر بها جدول يعطى لكل حرف قيمته الرقمية متابعًا:

— الـ أ مثلًا= 1، ب=2، ك=20، غ=1000 وهكذا

في سيارته ينصت "مجد" لـ "مالِك" بإهتمام شديد بينما يتابع "مالِك":

— وكان العرب لما يحبوا يسجلوا رقم حسابي بيسجلوه ف صورة حروف، فمثلًا 950 دينار كانوا بيكتوبها ظن، لأن الـ ظ =900 والـ ن=50

وفي منزل "مجد" يضرب "مالِك" أزرار الكيبورد وهو يتابع:

— القاعدة دي لما طبقتها على الأرقام الموجودة في الـ CD

في نفس اللحظة نرى الأرقام المتراصة على الشاشة تتحول إلى كلمات مفهومة و"مالك" يتابع:

— اتفكت الشفرة واتحولت الأرقام لحروف وكلام مفهوم

"مجد" يتنفس الصعداء متابعًا بصوت مشحون مفعم بالمشاعر المختلطة:

— هايل يا مالك، ما تعملش أي حاجة تانى غير لما أجى لك

وفي تلك اللحظة يسمع "مالِك" صوت طرقات على الباب يصل صداها إلى هاتف "مجد" الذي يسأل بتوتر:

— فيه حد جه واللا إيه؟

"مالِك" ينظر من العين السحرية فيجد المقدم "أمل" قبل أن يجيب "مجد" بهمس:

— ده المقدم أمل

ليأتيه صوت "مجد" بانفعال:

— ماتفتحلوش، ماحدش يعرف إنك عندى

"مالِك" هامسًا:

— حاضر

قبل أن يؤثر "مالِك" الصمت ولا يفتح الباب لبرهة، فيعيد "أمل" الطرق مجددا ثم ينصرف.

* * *

المقدم "أمل" يغادر العمارة منصرفًا، في حين نرى من أعلى شبح أسود لأحد المقاتلين وهو يقفز من سطح العمارة المقابلة إلى سطح عمارة "مجد"، فيسمع "أمل" صوت فحيح في الظلام، فينظر خلفه متطلعا لأعلى لكنه لا يجد أي شيء

* * *

"مالِك" لا زال يضرب أزرار كيبورد اللاب توب بإهتمام، بينما نرى من خلفه شبح مقاتل ملثم يحمل سيفًا ويقترب منه في حذر، في نفس لحظة فراغ بطارية اللاب توب، لينطفىء الجهاز وتصبح شاشته المظلمة بمثابة مرآة عاكسة لما يحدث خلفه، فيرى "مالِك" الشبح وهو ينقض عليه ليطيح رأسه بسيفه، فيخفض "مالِك" رأسه بسرعة، ليمرق السيف من فوقها، قبل أن يدفع "مالِك" مقعده للخلف ليرتطم بالمقاتل الملثم، قبل أن ينقض عليه "مالِك" ويشتبك معه، في نفس لحظة إندفاع مقاتلين أخرين من المطبخ والشرفة فيصيح "مالِك":

— كسَّر يا ماكس

فيظهر الكلب الضخم المملوك لـ "مجد" لينقض بزمجرته المرعبة على أحد المقاتلين قابضا بأسنانه على عنقه، في نفس لحظة إنكسار الباب وإقتحام المقدم "أمل" للمنزل، ليضرب النار على المقاتل الثالث فيرديه قتيلًا، بينما يدفع المقاتل الأول "مالِك" جانبًا قبل أن ينهض ويلقى خنجرا مسموما يستقر في بطن "أمل"، بينما يستل المقاتل الثانى المشتبك مع الكلب خنجرًا يطعن به "ماكس" في لحظة دخول البواب والأمن وتدافع السكان في الشقة، فيندفع "مالك" نحو المقاتل الأول ويشتبك معه، بينما يلوح المقاتل الثانى الذي طعن الكلب، بسيفه أمام الجميع الذين وقفوا في أماكنهم، فيهم أحد رجال الأمن بإخراج مسدسه، فيلقي عليه المقاتل الثانى نجمة مسممة تستقر في بطنه هو الأخر، في حين ينجح المقاتل الأول المشتبك مع "مالِك" في استلال خنجر يطعنه به، قبل أن يتجه لجهاز اللاب توب ويخرج منه الـ CD، وينسحب هو وزميله ليقفزا من الشرفة ويختفيا، في لحظة دخول "مجد" الشقة ومفاجأته بما حدث

* * *

الفصل الثامن عشر

فى المستشفى الذي يعالج فيه "مالِك" و"أمل"، نرى "براء" يسير في الطرقة المؤدية إلى غرفة العمليات ونلاحظ أن الطرقة مكتظة بجنود الأمن والضباط، وما أن يلاحظ "براء" خروج "مالِك" و"أمل" فوق الترولى من غرفة العمليات، حتى يمد الخطى نحوهما ليستوقفه ضابط برتبة رائد قائلا:

— على فين؟

"براء" وهو يشهر كارنيه نقابة الصحفيين:

— براء فاروق، صحفى بجريدة المستقبل

ثم يهم "براء" بتخطى الرائد ليقترب من "مالِك"، إلا أن الرائد يستوقفه بإشارة من يده قائلا في تحدى:

— ممنوع

"براء" بعصبية وتحدى:

— يعنى إيه ممنوع، بأي حق تمنعني من أداء وظيفتي، لو انت سلطة تنفيذية أنا سلطة رابعة

الرائد وهو يقرب وجهه من براء بنظرة مخيفة:

— السلطة الرابعة ما بتخرّجش من المعتقلات، لو فرحان إن قانون الطوارئ اتلغى ماتنساش إن فيه محاكمات عسكرية

قبل أن يسمع كلاهما صوت "مجد" الذي يقول للرائد:

— سيبه يا سيادة الرائد، ده يعتبر ولى أمر دكتور مالِك

"براء" يلتفت لـ "مجد" فيجده مرتديًا قميصه وبنطلونه الأسودين، حاملًا كلبه "ماكس" الذي نجده مصابًا وتم ربط بطنه برباط عليه ميكروكروم، فيقول "براء" وهو يفحص "مجد" بعينيه:

— مصدقتش لما عرفت اللي حصل، مكنتش أتخيل إن مالك كان عندك

— ولا أنا كنت أتخيل إنك تختفى الفترة اللي فاتت وتتخلى عن رحمة

— أنا مستحيل أتخلى عنها، كل ما في الأمر إنى حاولت أساعدها بطريقتي، طمنى على مالك

— نجى بمعجزة هو والمقدم أمل، الإتنين أتصابوا بسلاح أبيض مسمم، لكن ده مش للنشر

في اللحظة نفسها تهبط يد "أُبيّ" على كتف "مجد"، قائلا له بصرامة غير معتادة:

— خلّص عشان عايزك على إنفراد، ويستحسن مايكونش هنا

"مجد" و"براء" يلتفتان إليه ليتأمله "مجد" بنظرة طويلة قبل أن يرد بصرامة مماثلة:

— أوى أوى

ثم يلتفت "مجد" لـ "براء" قائلا:

— نكمل كلامنا بعدين، عن إذنك

"مجد" يهم بالسير مع "أُبيّ" فيستوقفه "براء" قائلًا بإلحاح:

— طب معلش سؤال أخير،الشخص المقنع ليه علاقة بالموضوع؟

يتطلع "مجد" إلى عينيه بنظرة حائرة، وقد حملت عيناه كما هائلًا من الغضب والحزن

* * *

في ردهة منزل المستشار "حسام" يجلس "مجد" و"أُبيّ" على إنفراد، وخلفهما شاشة التلفاز التي تعرض قناة "الجزيرة مباشر

مصر" دون أن يصدر التلفاز صوتا بعد أن تم ضبطه على وضع الـ Mute، بينما يقول "أبيّ":

– من فترة بقيت أنا والمقدم أمل صحاب بحكم إننا شغالين في قضية مشتركة، ماصدقتوش لما كلمني بشكل شخصي وحكى لي عن شكوكه فيك، بس لما ربطت الأحداث ببعضها وعرفت إن مالك أخو رحمة كان في بيتك بدأت أصدق، لأول مرة ف حياتي بحس إنك مخبي عليا حاجة يا مجد

فيرد عليه "مجد" بضيق:

– وأنا لأول مرة بتأكد إنك ياما خبيت عليا، إنت عرفت إن الهراس مش هو اللي قتل أمي وما قولتليش

"أبيّ" بإصرار:

– كل حاجة خبيتها عليك كانت ف مصلحتك، القاضي من سلطاته إنه يحكم ف أي قضية، إلا قضيته الشخصية، لأنه ساعتها هيبقى الخصم والحكم، وده مش قانوني

"مجد" بتحدي:

– لو القانون ضد العدالة يبقى من حقي أخرج عليه

"أبيّ" بعصبية:

– الخروج على القانون عمره ما يحقق عدالة

"مجد" صارخًا بتحدي وإصرار أكبر:

– والقانون اللي ما يحققش العدالة عمره ما يَصلُح قانون

يهب "أبيّ" واقفا ليقول بغضب وانفعال:

– محدش بيهرب من ذنوبه، كل ما جريت من سيئاتك كل ما فضلت تِنهَج أكتر وهي بتقبض عليك، أنا أخوك وبنصحك، واللي بيرفض النهارده نصيحة ببلاش، بكرة يشتري الأسف بأغلى سعر

فيهب "مجد" واقفا بدوره ليرد بانفعال مماثل:

– قولتهالك قبل كده وبكررها النهارده، قبل ما تكلمني عن بكرة علمني الأول إزاي أقطع صلتي بالماضي، طول مافيه أسئلة في مصر مالهاش إجابات يبقي إحنا ماشين غلط

"أبيّ":

– سيب القانون ياخد مجراه وهو كفيل بكده

يصرخ فيه "مجد" بكل غضب الكون:

– أنهى قانون؟ القانون اللي بنحكم بيه على الفقرا والغلابة؟ واللا القانون اللي رجال القانون نفسهم بيخرجوا عليه؟

ثم يقترب "مجد" منه حتى تتلامس أنفاسهما، وتتلاقى عينيهما الغاضبة قبل أن يتابع بنبرة أهدأ لكنها تحمل كل المقت والتحدي:

– بقالك كام يوم بتحقق ف إنفجار مكان مجهول، مات فيه ظباط ووكلاء نيابة وقضاة، قدرت تعرف إنه تنظيم سرى كان بيتـزعمه مستشار اسمه مظلوم غلاب؟

عندها يسمع "مجد" من خلفه صوت المستشار "حسام البسطاويسي" الذي يقول:

– ما دام عرفت مظلوم غلاب، يبقى أنضميت لـ"نبض العدالة"

يلتفت "مجد" للمستشار "حسام" الذي يدخل بوقار وشموخ، وقد وقع كلامه عليه وقع الصاعقة، قبل أن يقول "مجد" بدهشة غير مصدق إذنيه:

– ماتقوليش إن انت كمان كنت عضو

– كنت هبقى، بس ربنا وفر لي خيار الرفض اللي مابـيتوفرش لأي ضحية بيرموا شباكهم عليها

لتتجسد ذكريات المستشار "حسام" أمام عينيه وهو يعود للماضي،

ويحكى لـ "مجد" ما حدث،

"القصة بدأت بإتصال من واحدة ست طلبت منى أقابلها ف بيتها لموضوع مهم، لكن أنا أصريت إن المقابلة تبقى ف نادي القضاة"

سيدة أنيقة تدخل نادي القضاة وعلى بوابته ترى العديد من الناشطين السياسين والحقوقيين الذين يحملون لافتات، وداخله تشاهد اعتصام عدد كبير من القضاة ووكلاء النيابة، لتتأمل السيدة ما تشاهد بإنبهار غير مصدقة عينيها

"ولما جَت لي النادي وشافت الإعتصامات والزخم السياسى، وإزاي الصحفيين سموا النادي وقتها بيت الأمة، انهارت واعترفت"

السيدة الأنيقة تنظر للمستشار "حسام" في مكتبه الذي تجلس فيه معه على إنفراد وتقول من بين دموعها:

– أرجوك سامحنى

فيسألها بدهشة:

– أسامحك على إيه؟

– أنا كنت جاية استدرجك لبرة النادي، وساعتها كانوا هيخطفوك ويخدروك، وبعدها يصوروك عريان ف أوضاع مخلة عشان يقنعوك إن الحكومة هي اللي عملت فيك كده بسبب معارضتك ليها، فتقبل تنضم لهم

– هم مين دول اللي انضم لهم؟

– منظمة نبض العدالة، اللي بيديرها المستشار مظلوم غلاب

المستشار "حسام" يسألها وهو يجذب منها خيط الحقيقة:

– وإيه اللي خلاكى تصارحينى؟

فتقول له السيدة بلهجة صادقة يشعر أنها تخرج من القلب:

– اللي شوفته هنا عرّفنى قد إيه إنت راجل شريف وقلبه ع البلد، مش عارفة إزاي اعترفت لك بالسهولة دى

ليسير بعدها المستشار "حسام" مع السيدة على السلالم الخارجية للنادي، ثم يصفعها ويوبخها قبل أن يعود أدراجه إلى الداخل!!

"ساعتها اتفقنا نخرج لغاية باب النادي، وبعدين أتخانق معاها لأي سبب وأدخل تانى عشان ماحدش يشك فيها"

المستشار "حسام" ينتهى من ذكرياته، ليهز راسه بقوة قائلا في ندم:

– وندمت بعدها إنى ماخدتش تليفون الست دى، لأنها كانت الدليل الوحيد اللي ممكن يدعم كلامى ضد مظلوم اللي اختفى تماما بعد ما استقال من شغله، بس الأكيد إن كل المنظمات السرية بتحاول دايما تصنع مخاوف وهمية ترعب بيها أعضائها عشان يحسوا إن إنضمامهم لها هو الأمل والأمان

الذهول يرتسم بأعتى صوره على وجه "مجد" وهو يتذكر أحاديثه المليئة بالرعب والمخاوف مع "مظلوم غلاب"، وكيف كان ذلك سببا لاقتناعه بأهمية انضمامه للمنظمة والسير على مبادئها، ثم يقول بصدمة من سمع أنه من أهل النار:

– معنى كده إن مظلوم غلاب هو اللي قتل أمى عشان يقنعنى أنضم لمنظمته، وإن العناصر الإجرامية اللي دخلت البلد وبتدوّر على الـ CD تبعه مش تبع قابيل الهراس، بس مين اللي دمر المنظمة؟ وإيه اللي على الـ CD يخليهم يعملوا كل ده؟

فيقول له "أبيّ" بتأثر وحسرة:

– للأسف يا مجد، إنت اتورطت ف قضية أكبر منك ومش هتقدر تحلها لوحدك، أسلم حل إنك تسلم نفسك وتقول كل اللي تعرفه

ف التحقيق

"مجد" بسخرية مريرة:

– مش قولت لك م الأول إنى طرف ف القضية دى، وإنك إنت بنفسك اللي هتستدعينى؟

فيقول له المستشار "حسام" باحثا عن أي شيء يدعو للأمل:

– الصورة مش سودا للدرجة دي يا مجد، لسه فيه أمل ف بكرة، وإذا كنت عملت اللي عملته عشان هدفك إن مايكونش فيه فرق بين القانون والعدالة، أحب اطمنك إن فيه مؤتمر شعبى معمول النهارده عشان نعلن للعالم كله إن القضاة اللي كانوا مختلفين في عهد مبارك رجعوا إيد واحدة ضد أخونة القضاء واللعب في قوانينه، المؤتمر ده هديره أنا والمستشار أحمد العبد، أخيرا عرفنا نتفاهم بعد ما الإخوان حطونا في خندق واحد

فجأة تتسع عينا "مجد" بذهول وهو ينظر لشاشة التلفاز، ليلتقط الريموت كنترول ويوجهه نحوه ليعلى من صوته، في حين يلتفت مع نظرته المصدومة "أبيّ" والمستشار "حسام" لمتابعة التلفاز، ليشاهد ثلاثتهم تقريرا يفيد بعثور الشرطة على جثث القاضى المرتشى، و"قابيل الهراس" و"رءوف البدرى" عم "رحمة" في الصحراء، بينما يمسك أحدهم صورة ورقية للبطل المقنع، في حين نسمع صوت المراسلة التي تقول:

– وبالمصادفة، عثر أحد رجال عمال الحفر والتنقيب، على جثة رجل الأعمال الهارب قابيل الهراس، والقاضى المتهم معه في قَضيتِه، بخلافِ جُثةٍ ثالثة لم يستدل بعد على هويتها، ومع الجثث صورةٍ ورقيةٍ للشخص المقنع الذي ظهر في الآونة الأخيرة، كطرف في العديد من القضايا

"مجد" يلتفت لـ "أبيّ" و"حسام" قبل أن يقول بعينين دامعتين:

– أنا هعترف بكل حاجة، اللي بيحصل فعلا بقى فوق طاقتي

"أبيّ" بتأثر:

– وأنا هقف جنبك ومش هسيبك

المستشار "حسام البسطاويسي" لإبنه "أبيّ":

– مش أنت لوحدك اللي هتقف جنبه

فينظر "مجد" لعينى المستشار الذي يعتبره بمثابة والده متساءلا:

– تسمح لي يا سيادة المستشار أحضر معاك المؤتمر؟ على الأقل أودعك على خبر حلو بيدى الأمل ف البلد

المستشار "حسام" يبتسم ابتسامة جاهد ألا تخرج حزينة، حتى تعطى الأمل لـ "مجد" على الرغم من دقة الموقف

* * *

فى ميدان التحرير نرى حشدا كبيرا جدًا من الناشطين الحقوقيين والسياسيين، والشباب المنتمى لمختلف الأحزاب والقوى السياسية، وأعضاء العديد من الجمعيات الأهلية، والمحامين، بينما في الصفوف الأولى عدد كبير من القضاة والمستشارين الذين يرتدون أوشحة القضاة، في حين تناثرت كاميرات الفضائيات والمصورين الصحفيين في مختلف أرجاء المكان، ونرى "براء" يشق الصفوف ليتابع المؤتمر، وكذا انتشر رجال الشرطة والجنود، بينما نجد منصة تعلو فوق رؤوس الحضور بمترين،

وعلى المنصة، توجد ميكروفونات عديدة تحمل مختلف شعارات القنوات الفضائية والأرضية، ويقف بجواره كلا المستشارين "حسام البسطاويسي" و"أحمد العبد" الذي يقول:

– وطبقا لما تمر به الأمة الآن من مرحلة حرجة، وحالة تمزق في الصف الوطنى بين مختلف القوى السياسية، وفى ظل دعواتنا الدءوبة للجميع لرأب الصدع وإعادة الإلتئام في أسرع وقت قبل

أن يقضى علينا الخلاف، كان لزاما علينا أن نضرب المثل بأنفسنا لأن فاقد الشيء لا يعطيه

تصفيق حاد يدوى بين الحضور، قبل أن يقول المستشار "حسام" بدوره:

— محدش بينكر إن الفترة اللي فاتت شهدت انقسامات حادة بين رجال القضاء، دفع تمنها المجتمع والناس الغلابة، عشان كده النهارده قررنا ننسى كل خلافتنا، واتفقنا نجتمع على كلمةٍ سواء، ونحط إدينا ف إيد بعض ضد أي خطر ممكن يهدد استقرار البلد، القضاء المصرى ليس حكرا لتيار داخله على حساب تيار أخر، لكنه الحصن الحصين لكل المصريين ليفصل بين الجميع في أوقات الخلاف، ويزود عنهم في أوقات الخطر

من جديد يدوى تصفيق الحضور الحاد، ليتابع الموقف "مجد" و"أبيّ"، بينما تنهمر أضواء فلاشات الكاميرات على المستشارين الخصمين اللذين وحدتهما الظروف والأحداث، قبل أن يلمح "مجد" في السماء خفاش طائر يقوده شخص ملثم يشبهه تمامًا في الزى والهيئة، وتلمحه الجماهير التي تنظر للسماء

الآن يصرخ "مجد" وهو يحاول أن يشق الصفوف متجهًا نحو المنصة لحماية المستشارين "البسطاويسي" و"والعبد" مطلقًا صرخات التحذير، بينما يتقدم الخفاش الطائر نحو المستشارين، وما أن يطير فوقهما حتى تنفجر المنصة وتطيح بكلا المستشارين ومعهما القضاة والمستشارين الواقفين في الصفوف الأولى، في حين يصرخ "أبيّ" صرخة ملتاعة على والده، بينما تتفرق حشود الجماهير في فوضى عارمة وقد أخذ كل فرد يجرى في إتجاه مختلف، في محاولة للهرب والنجاة، في الوقت الذي يقتحم فيه "مجد" النيران

* * *

بعد ساعات مضت على الإنفجار، عاد المشهد لطبيعته في ساحة المؤتمر الشعبى، حيث عم الهدوء المكان وقد خلى من الجمهور، بينما تناثر الحطام وشظايا اللهب في كل مكان، لنرى جثث القضاة والمستشارين، بينما يركع "أبيّ" على ركبتيه أمام جثة والده وقد سيطر الوجوم على وجهه، أما "مجد" فأخذ يتأمل المشهد بعيون لامعة وقد بكى قلبه بالدم، في حين أحاط رجال المعمل الجنائى وسيارات الإسعاف بموقع الحادث، وقد تم عمل كوردون حول المكان بالكامل لمنع اقتراب أي شخص، في حين أحاط رجال الإعلام والصحافة بالكوردون في محاولة للدخول والتقاط الصور.

وفى بلكونة تطل على الميدان وترصد المشهد المأساوى عن قرب، نرى "براء" جالسا على مقعد يتأمل الكارثة، وعلى حجريه يضع جهاز اللاب توب الخاص به ليكتب تغطيته لما يرى، وهو يردد ما يكتبه بصوت عال:

"وأنكشف الشخص المقنع على حقيقته، لم أشعر يومًا بالإرتياح إلى شخصيته الغامضة والسواد الذي يعتريه، رجال الصاعقة أيضًا يخفون ملامحهم بالسواد، ويرتدون الزى المموه في أرض المعركة، لكنهم على الأقل لهم قادة يرجعون إليهم، ونظام يسيرون عليه، أما هذا المختل فلا أحد يعرف من أين أتى وإلى أين يذهب، وها هو يؤكد إثمه بجريمته النكراء، التي أضافت لفوضى القضاء فوضى جديدة، في اللحظةِ التي كنا فيها على مشارفِ عصرٍ جديد، وأملٍ مشرقٍ في غدٍ أفضل، أيها السادة، فلنعلن الحرب على الغموض"

* * *

الفصل التاسع عشر

قامت الدنيا ولم تقعد وقد اختصرت كل ما حدث ويحدث في صورة الشخص الملثم الذي فاق في شهرته ذلك الملثم الذي يفجر خط أنابيب الغاز!

صار هو المسئول عن فاتورة كل ما يحدث، بعد أن تطوع البعض في تحميله مسئولية باقى المصائب والخراب الذي يحدث في البلد.

فى الصحافة طاردته المانيشتات الساخنة، وتحت قبة برلمان مجلس الشورى تفانى الأعضاء في شن الحرب عليه في جلسة استثنائية اكتظ فيها الأعضاء تحت القبة بينما قال أحد الأعضاء بحماس شديد:

– لذا اتقدم باستجواب إلى وزير الداخلية، لمعرفة كيف فشلت الدولة في كشف هوية هذا المجرم

عضوة أخرى تقف تحت المنصة وتقول بصرامة وعصبية شديدة:

– المرة دي إحنا قصاد جريمة واضحة، ولا هتقولولنا الفاعل طلع ماس كهربائى المرة دي كمان؟

بينما نرى عضو أخر ملتحى، وعلى جبهته زبيبة الصلاة، ويتكلم بهدوء لا يخلو من الحسم:

- إما القبض عليه، أو يقدم وزير الداخلية استقالته

وعلى قناة "الفراعين" أطل "توفيق عكاشة" قائلا بطريقة كلامه الشهيرة:

- طب هقول إيه تاني بعد اللي حصل؟ بقى حتة واحد لابس اسود في اسود زي مطاريد الجبل يطلع منه كل ده؟ **"يغلظ من نبرة صوته ويبرق عينيه وهو يمد في حروف كلماته بايقاع بطيء"** فين وزير الداخلية؟ وفين المخابرات؟ وفين الجهات السيادية؟ البلد بتتخرب ومحدش عارف يوقف البتاع داهون عند حده، **"تزداد درجة انفعاله وغضبه ليتابع بصوت عالي عصبي"** ده أنا لو خدت عشرة من القرية بتاعتي ونزلت أدور عليه، هجيبه من قفاه وأعلقه على عمود نور وأخليه عبرة للي يسوى واللي ما يسواش، حسبنا الله ونعم الوكيل

* * *

داخل مكتب قيادة وحدة التأمين والاشتباك، تحدث "صهيب البنجاوي" مع القيادي الإخواني البارز دكتور "محمد التاجي" قائلا بلهجة واثقة:

– أنا عايزك تطمن تماما يا دكتور وما تشيلش هم شوية الأذناب دول، هما شافوا العين الحمرا في الاتحادية ومحدش منهم هيقدر يعمل حاجة مع رجالتنا اللي نازلين بكرة في جمعة تطهير القضاء، أيوة يا دكتور كلهم جاهزين، ومعاهم ليستة جديدة باسماء الكلاب اللي يستحقوا التصفية

قال جملته الأخيرة دون أن يدري أن هناك من يتصنت على مكالمته في مخبأ قرر أن يدخر فيه كل قاذورات الوطن قبل أن يخرجها بالجملة في لحظة الحسم، وأن هذا المتصنت كان أخوه "براء" الذي ارتسمت على ملامحه أعتى علامات الغضب والكراهية وهو يستمع للمكالمة وينظر إلى صورة "الحسيني" المعلقة على الحائط وعليها شريط أسود، في حين راحت أظافر يده تنهش خشب المائدة التي يستند عليها وهو يقرر أن يثأر لأخوه الذي لم تلده أمه، من أخيه الذي تبرأ منه وحال بينهما الدم رغم أنهما من بطنٍ واحدة!

* * *

في حديقة إحدى المصحات النفسية، تجلس "فاطمة" خطيبة "الحسيني" على أحد المقاعد، وهي تنظر إلى اللا شيء، وقد تجمدت الدموع في عينيها، وارتسم المجهول على ملامح وجهها، بينما يجلس

إلى جوارها "براء" ليتأمل ملامحها البائسة قائلا:

– قالوا لي إن حالتك فضلت تدهور بعد موت الحسيني الله يرحمه لحد ما أضطروا يحطوكي في مصحة نفسية، بس أنا مصدقتش ولسه مش مصدق حتى وأنا شايفك قدامي هنا

تظل على صمتها وسرحانها فيتابع بعيون حزينة ولهجة بذل قصارى جهده لتخرج مرحة:

– فاكرة لما قال لك مرة لو مت ولاقيتك بتضيعي من بعدي هطلع من قبري أضربك وبعدين هرجع تاني؟

تلتفت إليه فجأة، وتسمح بوابات عينيها للدمع بالمرور قائلة بصوت تهدجت نبراته:

– عشان كده مخصوص تعمدت أضيع، بس هو ما طلعش زي ما قال

تلمع عينيه بالدموع قبل أن يقول بلهجة غامضة:

– يظهر إن طلوعه فيه مشكلة، عشان كده حبيت أسألك النهارده إذا كان عندك رسالة حابة توصليها له معايا لما أنزل له قريب

– تنزل له فين؟

– أنزل له فوق، أصلي زهقت أوي من العيشة مع اللي طلعوا لتحت

تجيبه بالمزيد من الدموع الساخنة التي كادت أن تحرق وجنتيها، دون أن تنبس ببنت شفة، فيخرج كارت Memory من جيب بذلته ليفتح يدها اليمنى ويدسه فيها قائلا:

– بكرة الإخوان عاملين مليونية لتطهير القضاء على طريقتهم، وبما إن حق حسيني لسه ما رجعش فأنا كمان هطالب بتطهير القضاء على طريقتي، واللي قتل الحسيني لازم ياخد جزاته قبل ما يتحط في قفص والقاضي يدي له براءة أو حكم مخفف بعد شهور طويلة من المحاكمة، لو ما رجعتش كمّلي المسيرة بالكارت اللي ف إيدك، مش هلاقي حد يؤتمن عليه أكتر منك بعد ما ضاع مني كل اللي بحبهم، يا بالموت يا بالسجن

ينهض من مكانه قائلا:

– خلي بالك من نفسك

وما أن يوليها ظهره ويهم بالإنصراف حتى تنادي عليه بصوت باكي:

– براء

يستدير نحوها ببطء، وما أن تتلاقى عينيهما حتى تنهض بدورها وتقترب منه قائلة:

– طول الوقت كنا فاكرين حسيني مالوش في الحب والرومانسية، بس عيد ميلادي كان من فترة، وفوجئت بالباب بيخبّط، ولما فتحت لقيت واحد شايل بوكيه ورد، سلمهولي وهو بيقول البوكيه ده من أستاذ حسيني، خدت منه البوكيه وأنا مش مصدقة نفسي، وروحت معاه لصاحب المحل استفسر وقولت له إن حسيني مات، فرد عليا صاحب المحل وقال لي خطيبك دفع تمن بوكيهات كتير عشان نبعت لك بوكيه كل سنة، عارف كان مكتوب في البوكيه إيه؟

– إيه؟

– كل سنة وإنتي طيبة، حبي ليكي هيفضل أبدي، من ساعتها وأنا مش قادرة اتلم على أعصابي وجابوني لحد هنا عشان ارتاح، لكن مفيش فايدة

قالتها ثم تحول مطر عينيها إلى سيول، قبل أن تضع كفها على فمها لتمنع صرخة عارمة تكاد أن تخرج من أعمق أعماق قلبها،

لتهب واقفة وتركض مبتعدة في محاولة يائسة للهروب من الدنيا والبشر، بحثا عن حضن لم يعد موجودا على الأقل في هذا العالم.

* * *

ولأن التاريخ يعيد نفسه، استدعت أحداث جمعة "تطهير القضاء" نفس خصوم الأمس في موقعة مشابهة، حين خرجت مسيرة من الإخوان المسلمين ومؤيديهم من باقي الأحزاب الإسلامية وتيارات الإسلام السياسي متوجهة من مسجد "الفتح" بميدان "رمسيس" إلى محيط وسط البلد لحصار دار القضاء العالي، والمطالبة بسرعة تعديل قانون السلطة القضائية وعزل قضاة مبارك،

وفي قلب التجمع كان هناك "صهيب البنجاوي" الذي أمسك بميكروفون وأخذ يصيح في الحشد بلهجة قائد يهم بجيشه لملاقاة الأعداء في غزوة جديدة، والكل يردد خلفه:

– يا قضاء يا عرة، الثورة مستمرة

– يا قضاء فينك فينك، دم الشهداء بنا وبينك

– يلا ياريس طهر طهر، وإحنا وراك نبني ونعمر

– الشعب يريد، تطهير القضاء

– يا أماني قولي للعبد، المصريين ما يجوش بالعند

وفي ذات الوقت وبمكان قريب، توجهت جموع أخرى من شباب حركة 6 أبريل وباقي القوى الثورية في مظاهرات مضادة لمنع أخونة القضاء، ليقف "براء" في مكان هادىء نسبيا يتابع المشهد من على بعد وهو يضع على عينيه منظار مقرب، وبجواره زميلته في حركة 6 أبريل التي تتابع بدورها المشهد أيضا قبل أن يقول لها "براء" من خلف منظاره:

– آخر حاجة كنت أتوقعها إني أبقى ضد شعار تطهير القضاء وأنا اللي عيشت عمري كله بحلم بتطهيره من وكلاء النيابة والقضاة الفاسدين اللي فيه

لترد عليه زميلته بتحفز:

– ما هو لو سكتنا هيفسدوا بتطهيرهم آخر جزء نضيف، ويموت معاه الأمل إن البلد دي ينصلح حالها في يوم من الأيام

إلا أنه بتر حديثه معها وهو يمعن التركيز في متابعة المشهد عبر العدسات المكبرة، ليراقب مظاهرات القوى الثورية المناهضة للإخوان، ويلمح في قلبها رجل يمسك بخروف صغير ويصيح بأعلى ما تملكه حنجرته من صوت:

– يا خروف قولها قوية، الإخوان باعوا القضية

– يا خروف قولها قوية، الإخوان طلعت حرامية

بينما راح عقله يردد جزءا من قصيدة "الأحزان العادية" للشاعر عبد الرحمن الأبنودي، وبصوت وجيتار فريق "كايروكي الغنائي"

انتوا التوقيف وإحنا السير

انتوا لصوص القوت

واحنا بنبنى بيوت

إحنا الصوت ساعة ما تحبوا الدنيا سكوت

أيوة الصوت ساعة ما تحبوا الدنيا سكوت

إحنا شعبين، شعبين، شعبين

شوف الأول فين ؟؟

والتانى فين ؟؟

وآدى الخط بين الاتنين،

بيفوت

انتوا بعتوا الأرض بفاسها بناسها

في ميدان الدنيا

باتت وش وضهر

بطن وصدر

والريحة سبقت، طِلعِت أنفاسها

أحنا الشعب، بتوع الأجمل، والطريق الصعب

إحنا الشعب، بتوع الضرب ببوز الجزمة، وسن الكعب

وفي حشد وحشد مقابل، تقدمت مسيرتيّ مؤيدي الرئيس والقوى الثورية المعارضة، لتتلاقى كلتاهما عند دار القضاء العالي، قبل أن تنضم إلى أرض المعركة كتيبة من متظاهري البلاك بلوك، ليكون ظهورهم بمثابة بدء الإشارة لإشعال فتيل الحرب.

عندها استل مؤيدو الرئيس أسلحة بيضاء تفوق ما ظهر في فيلم Brave Heart بينما أخرج شباب البلاك بلوك من طياتهم مسدسات الخرطوش وزجاجات المولوتوف لتشتعل المعركة.

ومن خلال المنظار المقرب الذي يضعه على عينيه رأي "براء" أخيه "صهيب" في قلب الأحداث وهو يمسك بأحد شباب البلاك بلوك وينزع عنه قناعه، قبل أن يتكالب عليه هو ورفاقه ليوسعوه طعنا بالسيوف والخناجر والسنج بضربات متتالية لا تعرف الرحمة، حتى تمزق الجلد واللحم إلى شرائح جعلت من الشاب "شاورما بني آدمين"!

بعدها بلحظات قاد "صهيب" مجموعة من شباب الجماعة وقد أمسك كل منهم بعصا طويلة في نهايتها رول لدهان البوية، ليدهنوا حائط دار القضاء التي تحمل جرافيتي صور ضحايا الإخوان وعلى رأسهم "الحسيني"، و"جيكا"، و"كريستي"، بهدف طمس هويتهم ومحو ذكراهم، لتسأل الفتاة الأبريلية "براء" بغضب واستنكار:

– إيه علاقة الصور اللي بيمسحوها لجيكا والحسيني بالمظاهرة اللي عاملينها عشان يطهروا القضاء؟

فيخفض "براء" منظاره بدوره ليجيبها بعينين يطل منها التأهب، ولهجة بدت أنها آخر ما لديه من كلام:

- عشان قوانينهم غير قوانينا، وشهدائنا غير شهدائهم

قبل أن يلقي المنظار ثم يمد الخطا مخترقا حشود المتصارعين دون أن يشعر به أو يشتبك معه أحد، وما أن وصل إلى مكان "صهيب" وأصبح خلفه حتى أخرج من طياته خنجرا ماضيا وصرخ في أخيه:

- صهيب

ليلتفت "صهيب" نحو مصدر الصوت وقد انسدلت خصلات شعره الناعم الطويل على وجهه، في نفس اللحظة التي انقض فيها "براء" ليغرس الخنجر في رقبته، إلا أن "صهيب" مال برأسه لليسار ليتفادى الطعنة في مهارة، وهو يمسك بيد "براء" ويلويها بعنف حتى يسقط الخنجر من يده، ثم يعود "صهيب" برأسه للخلف قبل أن يدفعها بأقصى قوته للأمام لترتطم بأنف "براء" وتنفجر منها الدماء ويشعر الأخير أن الدنيا تميد به، وأن جاذبية الأرض قد تضاعفت ألف مرة فيستسلم للسقوط، قبل أن يمسكه "صهيب" من ياقة قميصه ويركله بأقصى قوته في خصيته، ثم يعقب الركلة بركلتين في بطنه بشكل أجبر "براء" على الإنحناء للأمام وهو يطلق شهقة عنيفة خرجت معها الدماء من فمه ليتركه "صهيب" يسقط أرضا بعد أن خارت قواه وتمنى الموت العاجل ليخلصه من تلك الآلام الرهيبة التي تطارد كيانه، قبل أن ينحني "صهيب" ويلتقط الخنجر من على الأرض ويضعه على عنق "براء" بهدف ذبحه وقد التف حوله عشرات شباب الجماعة

الذين أخرجوا هواتفهم المحمولة ليصوروا ما يحدث فيديو، في حين اتسعت عينا "براء" وقد عجزت أطرافه عن الحركة للفرار من قدره المحتوم ليبدأ الخنجر في ذبحه بالفعل قبل أن تتجمد فجأة حركة "صهيب" وتتسع عيناه في ألم ليسقط فوق "براء" جثة هامدة وقد انغرست سكين ضخم في ظهره خلف موضع القلب تماما، في حين تقف خلفه "فاطمة" خطيبة "الحسيني" وقد أطلت من عينيها نظرة ناقمة تحمل أقصى ما لدى البشر من رغبة في التشفي والانتقام، ومن جانبه، تطلع "براء" إلى عيني "فاطمة" بامتنان، في حين انحدرت من عينيها دمعة ساخنة وهي تنظر لصورة "الحسيني" التي أخفى الطلاء نصفها، لتطلع إلى النصف الأخر، دون أن تبالي بما هو قادم على يد حشود الإخوان التي التفت حولها

* * *

في الطرقة المؤدية لمكتب "أبيّ" بالنيابة، يسير "مجد" ليقدم كل ما لديه من معلومات بعد أن أيقن أن اللعبة انتهت، وحان وقت الحساب، فيفاجأ بـ "رحمة" وهى تسير بصحبة أحد العساكر، وما أن يراها حتى يرمقها بنظرة طويلة، حتى تمر إلى جواره،

عندها ينادي عليها باسمها، وبصوت حزين:

— رحمة

لتتوقف وتلتفت إليه بعينيها الجامدتين وهى تقول بفرحة:

— مجد! والله العظيم كنت لسه بفكر فيك، أنا خدت إفراج بعد ما لقوا جثة عمى مع جثة قابيل الهراس وعرفوا إن القضية متلفقة لي، أول حاجة كنت ناوية أعملها لما أخرج إني أشكرك ع اللي عملته معايا، وأديك هدية بسيطة جهزتها وأنا في السجن

ينظر لها بحزن وتأثر قائلًا:

— مالوش لزوم، "ينظر لصورة والدتها في السلسلة التي ترتديها ويتابع"، أنا مديون لك بكتير

تفتح حقيبتها وتخرج علبة صغيرة تمدها إليه في رقة قائلة:

— دلوقت إحنا متعادلين، لأني أنا كمان مديونة لك، اتفضل

"مجد" يأخذ العلبة ثم يقول لها:

— تعرفي إن شبكية العين بتشوف الصورة مقلوبة، ومركز الإبصار في المخ هو اللي بيعدلها؟ كأن العيون لوحدها مش كفاية عشان نشوف الصورة كاملة، والعقل والقلب هما اللي بيخلوا الرؤية أصدق، وأجمل ما فيكي إن عقلك وقلبك قادرين يشوفوا صح، أكتر من ناس كتير ما بتشوفش حتى ولو كان نظرها ستة على ستة

يتراقص قلبها فرحا من كلماته، في حين يسألها بابتسامة حزينة:

— هو أنا قولت لك قبل كده إني بكتب شعر؟

تهز كتفيها قائلة برقة:

— لأ

فيتأمل عينيها قائلًا:

بسرح كتير أوى في الصور

رغم إني لسه ما شوفتهاش

لسه الأمل، ماسك بريشته

لسه الشاويش، رافع عصايته

والحلم مش عارف نهايته

وآدي الدموع، ألوان جواش

وأيات عظيمة في السوّر

تشرح فؤادى اللي انجرح

وتبكّى عينى من الفرح

وجوّا قلبى ترسم صورة الإله

ألقى الشيطان واقف بعيد

ماسك بأستيكة السراب

عمال بيمسح في الثواب

وصوت بعيد جاي م السما

بيقول في أيات العذاب

أصرخ وأقوله والنبى،

أرجوك بلاش

صوت الكمان قطع ف قلبى

وأغانى صحت فيا ذنبى

من وقت أيام الطفولة

لحد أيام تانية، لسه ما عشتهاش

وسؤال ملوش حل مطاردنى

هو إنت ليه عايز تسيبنى؟

قرب أشوية، هقرب أكتر

دى الدنيا فانية، والجنة أكبر

أمسح دموعك،

كفكف ف قلبك بين ضلوعك

مد الأيادى لفوق أوى

وألمس نجوم مسيرها يوم راح تنطفى

وأهمس بصوت واثق خفى

آخرتها خير

طول ما الدعا دايما بإيد رحمن قدير

لو ننساه يوم، ما بينساناش

تلمع الدموع في عينيها مع كلماته؛ لكنها تبتسم رغم ذلك قائلة بلهجة يملؤها التفاؤل:

– حلوة أوى، فعلا ربنا ما بينساناش ولا عمره هينسانا، استأذنك هنشرها في الجورنال، باسمك طبعا

يتأمل عينيها مجددا قائلا:

– يا ريت، خلّي بالك من نفسك

– وإنت كمان، أشوفك على خير

الدموع تلمع في عينيه والعسكرى يأخذها ويبتعد، بينما يفتح "مجد" العلبة ويخرج ما بها، فيعقد حاجبيه بدهشة غير مصدق نفسه،

إنه "الجوانتي" الذي انتزعته منه وقت أن أنقذها هي و"براء" أسفل منزلها، ومعه ورقة مكتوب عليها بخط ركيك يليق بفتاة مكفوفة: "**إلى عزيزى بتاع الجوانتيات**"!!

ينظر لها وقد ابتعدت من ظهرها، لتتوقف وكأنها شعرت به، قبل أن تلتفت إليه وتمنحه ابتسامة رقيقة كأنها تراه، ثم تستدير وتكمل المسير مع العسكرى

* * *

فى مكتبه يجلس "أبي" كسير الفؤاد، في هيئة رثة على غير عادته، وقد نبتت ذقنه، وتناثر شعره، في حين يظهر تحت بذلته قميصا غير مكوى كصورة حية للبؤس مجسدا في إنسان، أكدها حين وضع رأسه

بين كفيه وقد أسند مرفقيه على المكتب، ليغرق في بحر من الأفكار والتساؤلات دون حتى أن يجيب على طرقات الباب أو يهتم بمن هو قادم، لنسمع صوت خطوات تقترب منه قبل أن يظهر جسد "مجد" واقفا أمام مكتبه بقامة منتصبة لبقايا بطل يستعد لمواجهة مصيره المحتوم قبل أن يهمس:

– وقت الحساب جه يا أبيّ

فيرفع "أبيّ" وجهه بملامح ذابلة، قبل أن ينهض متقدما نحو "مجد" بعد أن سمح لدموعه الساخنة بالإنسياب على وجنتيه قائلا:

– دلوقت بس آمنت بيك وعرفت إنك كنت صح، كمل المعركة يا مجد، العدو الغامض مايوقفوش غير بطل غامض، خلي بالك من نفسك

ثم يحتضن كل منهما الأخر،

وفى اللحظة نفسها، كان الرائد "مجدي" يزور المقدم "أمل" في حجرته وهو راقدًا فوق سريره قائلا:

– البقية ف حياتك يا أمل بيه، والدك استشهد وإنت في الغيبوبة

– استشهد؟

ينظر الرائد "مجدي" للأرض وهو يقول بحزن:

- قتله الشخص المقنع وهو في المؤتمر الشعبي لنصرة القضاء

لنرى بعدها "أمل" مرتديًا بذلته ونظارته الشمسية وهو يغادر المستشفى بوجه مليء بالغضب دون أن يبالى بكلام "مجدي" الذي يصيح:

- تخرج إزاي بس يا فندم، أنت لسه محتاج رعاية، ده غير إن الإدارة استبعدتك من المهمة دي

"الموضوع محسوم يا مجدي، بلغهم في الإدارة إنهم يقدروا يعفوني من القضية، لكن مفيش قوة هتمنعنى أنهش الشخص ده بسناني، حتى لو ماليش صفة قانونية"

قبل أن يركب "أمل" سيارته ثم ينطلق بها فجأة لتطلق إطارتها صريرًا مزعجًا، ينبىء أن اللحظات القادمة ستكون ساخنة لأقصى درجة

* * *

الفصل العشرين

فى مكتب "الهراس" يقف إبنه "آسر" يدخن سيجاره وسط 4 من الرجال ضخام الجثة الذين يحملون الأسلحة، قبل أن يدخل عليه مساعده في المكتب وهو يقول:

– كل حاجة جاهزة يا باشا

"آسر":

– فاضل قد إيه ع الطيارة؟

– ساعتين بالظبط، يعنى يا دوب تلحق

يأخذ "آسر" نفسا أخيرا قبل أن يلقى سيجاره ويفركه وهو يقول:

– عايز أول ما طيارتي تطلع، البت الصحفية هي وزميلها وأخوها يتمحوا م الوجود، هما السبب ف كل اللي حصل

– ماتقلقش يا باشا، أعتبرهم من دلوقت ف سجل الوفيات

وفجأة، يقتحم البطل الملثم نافذة المكتب المطل على النيل، ليصبح وسط رجال "الهراس" الأربعة، وفى يده عصا مثل تلك التي يستخدمها جنود الأمن المركزى، فيستخدمها لضربهم في وجوههم، وسيقانهم وبطونهم وخصيهم بسرعة ورشاقة دون أن يمهلهم الوقت الكافى ليرفعوا أسلحتهم نحوه، بينما نرى "الهراس" الصغير يفتح درج مكتبه ويخرج مسدسا، ثم يسحب أجزاءه، وما أن يرفع مسدسه حتى يجد البطل الملثم أمامه ليركل المسدس من يده، بينما سقط كل من في المكتب فاقدى الوعى، فيتراجع "آسر" قائلًا في رعب:

– كان لازم أهرب، أبويا مات والدور أكيد جاي عليا

البطل المثلم ينقض عليه، ويمسكه من ياقة قميصه ليجبره على الإنحناء بين يديه كدجاجة تنتظر الذبح، قائلا بلهجة تجمد الدم في العروق:

– وعشان ما تحصّلهوش لازم تحكى لي إيه علاقته بالـ CD اللي بيدوروا عليه؟

- وأنا إيش ضمنى إنك مش هتأذينى؟

البطل الملثم يجذب "آسر" من شعره ويضرب رأسه في المكتب بعنف، ثن يحمله ويلقيه من النافذة، فيصرخ "آسر" بهلع قبل أن يمسكه البطل الملثم في اللحظة الأخيرة ليتأرجح خارج النافذة وينظر لأسفل على إرتفاع البرج الذي كاد يناطح السحاب، قبل أن يقول له البطل:

– الحقيقة هي التمن الوحيد لحياتك

فيقول "آسر" بهلع شديد وقد مزق الهواء كلماته:

– طب طلعنى وأنا هقول لك على كل حاجة، إيدك هتتعبك وهقع

– مفيش طلوع قبل ما أعرف

فيقول "آسر" برعب واستسلام:

– ورا باب سرى ف المكتب هتلاقى كل اللي بتدور عليه، طلعنى عشان ما بيتفتحش غير ببصمة الإيد

البطل الملثم يجذبه لأعلى، فيلهث "آسر" بشدة، وهو يتجه لمكتبه، ثم يزيح بعض كتبها جانبًا، ليدس إصبعه الإبهام في ثقب صغير في الحائط فيلتف الجدار حول نفسه كاشفًا خزينة ضخمة بالداخل، فيدخل "آسر" ويضغط على بعض أزرارها لتنفتح ونرى العديد من الأوراق، وعلبة CD يلتقطها "آسر" ويعطيها للبطل وهو يقول:

– ده الـ CD اللي أبويا اتقتل بسببه

فيلتقطه البطل منه متساءلا:

– الـ CD ده وصل لأبوك إزاي؟ وإيه الأسرار اللي عليه؟

"آسر" ينظر للبطل ويفكر لبرهة وكأنه سيلقى بسر ثقيل، قبل أن يتجسد أمام عينيه ذلك التاريخ الذي حكاه له والده قبل رحيله،

الزعيم "عبد الناصر" يسير في جولاته الميدانية في أحد الشوارع بسيارته المكشوفة، والجماهير تلتف حوله بحب جارف لم يصل إليه زعيم مصرى من قبل

"في سنة 1962، عمل الرئيس عبد الناصر تنظيم سرى سماه التنظيم الطليعى، وكان هدفه تجنيد أعضائه عشان يأثروا على الناس بطريقة تحببهم ف ثورة 52 ومبادئها، ويحمى الدولة من أي عناصر خفية ممكن تحاول تعادى الثورة أو تتمرد عليها"

أعضاء التنظيم يجتمعون في مقر سرى ويتشاورون فيما بينهم، قبل أن تتزايد أعدادهم

"وف ظرف أيام انضم للتنظيم 30 ألف عضو من كبار ورموز الدولة، ولما كان قضاء مصر مستقل، شاف أعضاء التنظيم إن الدولة لها توجهات سياسية واجتماعية لازم القضاة يعرفوها، عشان تتوافق أحكامهم مع سياسات وأهداف الدولة، فقرروا تجنيد القضاة، ومن هنا انقسم القضاء لتيار مستقل، وتيار تانى تابع للحكومة، من ضمن تيار الحكومة كان فيه مستشار اسمه غلاب البراجيلى، وكان صديق شخصى لجدى رجل الأعمال رشدي الهراس"

وفاة "عبد الناصر" وتشييع جنازته المهيبة التي سارت فيها الملايين، الخلاف يدب بين أعضاء التنظيم الطليعى حتى أن أحدهم يهب واقفًا ويلوح بيده في وجه الجميع بعصبية وتهديد،

"رشدي الهراس" و"غلاب البراجيلى" عند مقر منظمة "نبض العدالة" في الصحراء وقت أن كانت مجرد فكرة، قبل أن يقوم بعض العمال بإعداد المقر وتجهيزه،

"غلاب البراجيلى" مع إبنه الشاب "مظلوم غلاب" ومعهم عدد من المستشارين والقضاة، ويحضر معهم اللقاء رجل الأعمال "رشدي الهراس" وإبنه "قابيل"،

"غلاب البراجيلى" يجلس وحده في المقر السرى في إضاءة خافتة وأمامه على المائدة لوح ورقى كبير به مجموعة من الحروف المتراصة بشكل هندسى معين،

" غلاب البراجيلى ورشدي الهراس ماعجبهمش حال التنظيم اللي أتغير أعضاؤه بعد وفاة عبد الناصر، وبدل ما كانوا بيكتبوا تقارير عن اللي بيحصل ف البلد، بقوا يكتبوا تقارير ف بعض عشان يتقربوا من السلطة، ومنهم اللي غير مبادئه وقناعاته عشان يتأقلم مع عصر السادات، ساعتها قرر الإتنين يعملوا تنظيم سرى اسمه نبض العدالة، عشان يضموا ليه أكبر عدد ممكن من رجال الشرطة والقضاء، وكان مبدأهم إنهم يساعدوا رجال الأعمال في قضاياهم ويطلعوهم من مشاكلهم، مقابل فلوس نصها بيروح ف أعمال خيرية لخدمة المجتمع، والنص التانى لتطوير إمكانيات المنظمة وتمويلها، واتفق غلاب البراجيلى مع جدي إنهم يمولوا التنظيم وغلاب هو اللي يشرف عليه، كان هدف جدى إنه يضمن ولاء أكبر عدد ممكن من رجال القانون ليه، عشان يسندوه لو وقع، أما غلاب البراجيلى فظهرت مع الوقت أفكاره الغريبة اللي بتعتمد على السحر والروحانيات عشان يوصل للحقيقة، وبدأ يعتمد على الزيارجة"

– تطلع إيه الزيارجة دى؟!

– لعبة روحانية من عصر النبى أدريس، تدخل لها أي سؤال

تديك إجابته

– إزاي؟

– بتعتمد على سر الحرف، يعنى تحول حروف السؤال لأرقام بطريقة معينة، وبعدين تجمع عليهم أرقام تانية خاصة بحالة البرج بتاعك، والناتج الرقمى تحوله لحروف هتلاقى فيها إجابة السؤال اللي سألته

يصمت "آسر" قليلا لالتقاط نفسه، فيصيح فيه البطل بغلظة:

– كمّل

ليبتلع "آسر" ريقه ثم يكمل سرد ذكرياته

"لما مات المستشار غلاب البراجيلى كمّل إبنه مظلوم المشوار، وساعد بابا ف أكتر من قضية، لغاية ما اتورط بابا ف قضية جديدة وإحتاج للمنظمة عشان تخرّجه منها، لكن مظلوم غلاب رفض وأعلن العصيان"

"قابيل الهراس" يجلس في مكتب "مظلوم غلاب" بالمنظمة، ويقول له بغضب هادر:

- إزاي تتجرأ، إنت نسيت أنا مين؟

ليرد عليه "مظلوم" بتحدى:

– إنت اللي نسيت إننا عارفين كل اسرارك ونقدر نمحى امبراطوريتك من الوجود، من النهارده نبض العدالة منظمة مستقلة مالهاش علاقة بيك، وقضيتك اللي ورطت نفسك فيها إنت المسئول عن حلها، ولو فكرت تنطق بحرف، بدل ما إنت متورط ف قضية هتبقى متورط ف قضايا كتير مالهاش أول من آخر

"ساعتها قرر بابا إنه يجند عضو من المنظمة عشان يساعده ف قضيته، ويجيب له كل أسرار نبض العدالة عشان يقدر يرجعها تانى تحت سيطرته، فاستعان بالقاضى المرتشى اللي قدر يسرق CD عليه أسرار المنظمة، بس لما جه يفتحها اكتشف إنها متشفرة، ولما عرف مظلوم غلاب باللي حصل، حط القاضى مجد الدين ف سكة بابا والقاضى المرتشي عشان يكشف قضية الرشوة ويبلغ عنهم، وبعدين ورط بابا ف قضية محاولة قتل مجد هو وأمه عشان يهيج الرأي العام علينا"

يعود "آسر" من سرد ذكرياته ليقول للبطل:

– ده غير إن وكيل النيابة اللي بابا وثق فيه وسلمه الـ CD اللي اتهرب،طلع عضو جديد ف المنظمة، ورجّع الـ CD لمظلوم تاني، ولحسن الحظ كان والدى معاه نسخة تانية عملها احتياطى، النسخة دي هي اللي ف ايدك دلوقت

فيسأله البطل الملثم بدهشة:

– وليه ما قولتش الكلام ده للبوليس وسلمت النسخة اللي معاك؟

– بابا كلمنى أول ما هرب مكالمة واحدة، قال لي فيها ما اتكلمش مع حد أبدًا لحد ما يرتب اموره ويرجع يكلمني، لكن بعد ما اتقتل كتبت كل اللي أعرفه ف جواب، وكنت هبعته مع الـ CD للبوليس بعد ما أسافر

يصفعه البطل الملثم بقسوة قائلا بغضب شديد:

– غبى، الطب الشرعى أثبت إن أبوك اتقتل جوة السجن وهما اللي هربوا جثته، يعنى مش هو اللي كلمك، ودلوقت إنت خسرت كل حاجة

"آسر" تتسع عينيه من هول الصدمة، ثم يضغط فجأة على زر خفى في الحائط فيسقط لوح حديدى من السقف على البطل

الملثم، ليفقد الوعى على الفور، بينما ينظر "آسر" لجسد البطل الملثم بغل شديد قائلا:

— مش آسر الهراس اللي يخسر، أنا خارج برة البلد، وكل حاجة هتتباع لمستثمرين أجانب هيجوا يعلموكوا الأدب.

ثم يمد "آسر" يده لينزع عن البطل قناعه، فيجده المقدم "أمل"، لتتسع عيناه غير مصدق نفسه، قبل أن ينزع من يده الـ CD، ويقول بمقت:

— سلم لي على اقتصاد البلد يا سيادة المقدم، ووروني إزاي القوانين هتأكل الناس وتشرّبها

"آسر" يغادر المخبأ السرى ويضغط على الزر الخفى ليستدير الباب من جديد ويبقى المقدم "أمل" في الداخل حبيسًا فاقد الوعى، وما أن يستدير "آسر" حتى يجد أمامه "مجد" بزيه الملثم فينتفض "آسر" كالممسوس، بينما يقول "مجد" بلهجة ساخرة:

— ماكانش المفروض تصدق إنه أنا لمجرد إنه لبس لبسى، المرة الجاية أبقى شوف بطاقته

ثم يهوى "مجد" على وجه "آسر" بلكمة كالقنبلة فيسقط أرضا،

وفي تلك الأثناء استيقظ أحد رجال "الهراس" من إغماءته ليصوب مسدسه على رأس "مجد" من خلفه دون أن يلاحظه، وما أن يشاهد "آسر" ذلك حتى يمد يده بالإسطوانة لـ"مجد" قائلًا بلهجة ثعلبية:

— إذا كان الـ CD هو اللي عامل المشاكل دي كلها اتفضل خده

"مجد" يمد يده ليأخذ الـ CD، فينقض عليه "آسر" فجأة ليلف ساعديه على خصره ويكبل حركته، وهو يصيح في الرجل الذي يصوب مسدسه على رأس "مجد":

— خلص عليه بسرعة

الرجل يضرب النار بالفعل، في نفس اللحظة التي يستدير فيها "مجد" بأقصى قوته، لتتبدل الأوضاع، فتصيب الطلقة "آسر"، بينما تقتحم قوات من الشرطة المكان فجأة ليقتل أول المقتحمين الرجل الذي كان يهم بقتل "مجد" ويسأل "مجد" وقد ظنه قائده المقدم "أمل":

— إنت بخير يا فندم؟

"مجد" يضع الـ CD في ملابسه، ثم يشير للمكتبة التي تخبىء خلفها المخبأ السرى الذي يرقد فيه "أمل" قائلا:

— الفندم بتاعك اللي أنتحل شخصيتى مغمى عليه جوه، يا ريت تقوله ما يعملش كده تانى حفاظًا على حقوق الملكية الفكرية

الضابط ينظر لـ "مجد" غير مستوعب، قبل أن يفهم معنى كلامه ليقول بلهجة من يفوق من غيبوبة وهو يصوب سلاحه لـ "مجد":

— إثبت مكانك

لكن "مجد" يجرى نحو النافذة ويقفز منها بلا تردد بينما تضرب الشرطة النار عليه من الخلف،

الضابط يجرى نحو النافذة ليبحث عن "مجد" فلا يجد له أدنى أثر، بينما نشاهد من أعلى "مجد" وهو يجرى على السطح نحو خفاشه الطائر، ليمسكه جيدًا ثم يجرى ويقفز من السطح محلقا به بعيدا عن المكان!

* * *

عند غرفة كهرباء المستشفى الذي يعالج فيه "مالِك" أخو "رحمة"، نرى 4 من رجال "الهراس" يضعون المتفجرات عندها، ويضبطونها على التفجير بعد 3 دقائق، ثم يبدأ العد التنازلى للإنفجار، وفجأة يهبط وسطهم البطل الملثم بعصاه التي يديرها بسرعة ومهارة في

مناطق ضعفهم ليفقدوا جميعا الوعى

* * *

فى غرفة المراقبة بالمستشفى نرى موظف الأمن وهو يتابع كاميرات المستشفى التي يرى فيها البطل وهو ينتقل بين طرقات المستشفى وغرفها بسرعة رهيبة، حتى أنه لا يلمح سوى ظله، فيمسك سماعة التليفون وقبل أن يتفوه بحرف واحد، يفاجأ بالبطل يقتحم غرفته مسرعًا قائلًا بلهجة حاسمة:

— ف أقل من 3 دقايق المستشفى هتنفجر، شغل الإنذار حالًا وخلى الكل يــخلى المستشفى فورًا

ثم يستدير البطل مغادرًا الغرفة في حين يفتح الموظف فمه بدهشة غير مستوعب ما رأي،

* * *

سيارات الشرطة تقتحم بوابة المستشفى في نفس اللحظة التي يقفز منها الجنود وينتشرون في طرقات المستشفى، بينما يغادر "أمل" إحدى السيارات مرتديًا نفس ملابس البطل الملثم لكن بلا قناع، بينما ربط رأسه بضمادة، ليدخل المستشفى مسرعًا وفى يده طبنجته، وقد انطلق صوت سارينة الإنذار وصوت موظف الأمن يتردد في الخلفية:

— على جميع النزلاء إخلاء المستشفى فورًا، المبنى هينفجر خلال 3 دقايق

فى حين يغادر المستشفى النزلاء في صورة فوضوية،

فى تلك الأثناء نرى "مجد" يجرى مسرعًا نحو غرفة "مالك"، بينما نسمع في الخلفية صوت صافرة الإنذار، وصوت موظف الأمن، لنرى النزلاء يجرون بشكل عشوائى ومتخبط في طرقة المستشفى، ومنهم

من يحاول الهرب حاملًا "درنقة" الدم، وآخر يحمل قسطرة البول، ومنهم من يتعكز على ذويه وهو عاجز،

وفى غرفة "مالِك" نرى "براء" يحمله بعد أن استرد وعيه، لكن على وجهه علامات التعب، بينما تتعكز "رحمة" على "براء"، قبل أن يقتحم "مجد" الغرفة ويحمل "رحمة" قائلًا:

— يالا بسرعة مفيش وقت، المبنى هينفجر

"مجد" يحمل "رحمة"، بينما ينظر له "براء" شظرًا، لكنه يرضخ للأمر في ظل الموقف الحرج الذي يمرون به، ليحمل بدوره "مالك" ويغادرون الغرفة جميعًا مهرولين في طرقة الدور الثانى لمغادرة المستشفى وعلى وجوههم التقزز من رائحة غريبة يشمونها، بينما تقول "رحمة":

— فيه ريحة غاز رهيبة، أنا هتخنق

قبل أن يظهر في بداية الطرقة المقدم "أمل" ومعه قواته، ثم تظهر قوات أخرى في نهاية الطرقة من الجهة المقابلة، ليصبح "مجد" بين المطرقة والسندان بينما يقول "أمل" بشماتة:

— أخيرًا وقعت

— مش وقته يا سيادة المقدم، المبنى كله هينـ

"أمل" مقاطعا:

— كان هينفجر، قبل ما خبراء المفرقعات يوقفوا مفعول القنابل، الحكومة شايفة شغلها بيك أو من غيرك

فيقول له "مجد" وقد برقت عينيه بتحدى:

— شامم ريحة الغاز؟ أكيد رجالة الهراس فتحوا الأنابيب ف كل أنحاء المستشفى عشان تولع أول ما القنابل تنفجر، لكن طلقة واحدة منك ممكن تأدى نفس الغرض

"أمل" يعقد حاجبيه وقد أدرك صحة كلام "مجد"، قبل أن يقول غاضبًا:

— لو فكرت إن دي نقطة ضعف، أنا أقسمت أنى همسكك حتى لو كت دي آخر حاجة هعملها ف حياتى

"مجد" بصرامة:

— ما أعتقدش إن قواتك بتشاركك نفس الرغبة، **"ينظر للقوات الواقفة في أول الطرقة وآخرها ويتابع"** ده غير إنكوا لو ضربتوا النار هتقتلوا بعض

لكن "أمل" يصوب مسدسه نحوه قائلا في عصبية بالغة:

— أقلع القـناع يا مجد، أنا عارف إنه إنت

لتفجّر كلماته دهشة "براء" العارمة، في حين انتفضت "رحمة" وقد تمنت ألا تأتي تلك اللحظة أبدا، بينما أخذ "مالك" يهز رأسه غير مصدق ما سمع، وقد خيم الصمت على المكان، في الوقت الذي تلاقت فيه عيني "مجد" و"أمل" في تحدي، وقد عزفت في عقليهما أوتار الإثارة وموسيقى الترقب.

الآن حانت لحظة الصراع بين حملة نجوم ونسور الداخلية، وحملة أوشحة القضاء في لحظة عبثية تصارعت فيها السلطات بدلا من التوحد في خندق واحد أمام عدو خفى ينشر خرابه في النفوس، قبل أن ينشره في العالم المادى الملموس،

السلطة التنفيذية تحاول إصدار الحكم، والسلطة القضائية تريد تنفيذه بيدها، وقد تبدلت الأوضاع بعد أن عكستها الظروف!

وفي غمار ذلك الصمت الذي سادت فيه نظرات التحدي، وعلت فيه أصوات المزيكا العقلية التي لو خرجت للوجود لألهبت كفوف الجماهير تصفيقا وحماسا، فجأة انكسر زجاج النوافذ، ليلتفت

"مجد" و"أمل" نحو القادم بدهشة،

إنها القوات الملثمة التي اقتحمت نوافذ الطرقة ليطلقوا نجومهم المسمومة ويصيبوا بعض القوات، قبل أن يندفع "أمل" نحو أحدهم ويشتبك معه بيده العارية، وكذا يحدث إشتباك يدوى وبالأسلحة البيضاء بين الشرطة والمقاتلين الملثمين وقد حرص الجميع على عدم استخدام الطلق النارى حتى لا يفتحون ابواب الجحيم، في حين حمل "مجد" "رحمة" ليدفعها هي و"براء" و"مالك" نحو غرفة جانبية ضمن غرف الطرقة،

داخل الغرفة يجذب "مجد" دولابا داخلها ويحركه بحسم بحيث يجعل ظهر الدولاب نحو الباب، بينما يجعل ضلفتيه نحو شباك الغرفة، ليفتح ضلفتى الدولاب، ويقول لـ "براء" الذي يحمل "مالك" بلهجة صارمة:

— أدخلوا بسرعة ومحدش يخرج تحت أي ظرف، النار ممكن تاكل المكان في أي لحظة

"براء" يدخل حاملًا "مالك"، ثم يجذب "مجد" "رحمة" ويضعها معهم، وما أن يهم بإغلاق الدولاب عليهم حتى يسأله "براء":

— إنت مجد فعلًا؟!

فينظر له "مجد" دون أن ينبس ببنت شفة،

أما خارج الغرفة، نرى الاشتباك وصل إلى أشده، بين قوات الشرطة، وأفراد المافيا، قبل أن يخرج "مجد" من الغرفة الجانبية، في لحظة نرى فيها "أمل" راقدًا على الأرض بينما يهم مقاتل ملثم بغرس سيفه في رقبته، فينقض "مجد" على يد المقاتل ويركل السيف منها، قبل أن يحمل مقاتل أخر ويلقيه على زميل له يهم بطعن شرطى، ثم يتجه "مجد" نحو جثة مقاتل ثالث وينتزع منها خنجرا ليلقيه على مقاتل رابع يهم بطعن ضابط، بينما ينقض "أمل" على "مجد"

من خلفه بغتة محاولًا أن ينزع عنه قناعه، فيستدير به "مجد" قبل أن يقفز ليركل مقاتل ملثم كان يهم بطعن "أمل" في ظهره ليسقط "مجد" و"أمل" أرضًا، في نفس لحظة سقوط ضابط بفعل خنجر أصاب صدره من أحد المقاتلين، ليصوب الضابط مسدسه وهو يحتضر نحو المقاتل الذي قتله، فيصيح فيه "أمل":

– لأ، أوعى تضرب النار

لكن الضابط يطلق طلقـته، لتنفتح أبواب جهنم، وتندلع النيران التي تظهر من بعيد وهى تجرى نحو الجميع،

مقاتلى المافيا يقفزون من النوافذ للهروب من النيران، بينما يقفز خلفهم "أمل" من الدور الثانى ليتعلق من أفريز النافذة هربا من النار، وفى الوقت نفسه يصوب مسدسه نحو المقاتلين ويحصد عددا منهم، وكذا يحذو حذوه بعض رجال الشرطة، بينما يجرى بعض الضباط الأخرين مبتعدين عن الطرقة بأقصى سرعتهم متجهين للأسفل، في حين يقتحم "مجد" الغرفة الجانبية وخلفه تجرى النيران بسرعة وشراهة، فتخرج "رحمة" من الدولاب وهى تتجه نحوه صائحة:

– مجد

فيتلقفها بين ذراعيه، قبل أن يركل الدولاب الذي يوجد به "براء" و"مالك" فيصبحون داخله وقد سقط الدولاب فوقهم ليحميهم من النيران التي تمرق من فوقه، بينما يصعد "مجد" فوق الدولاب حاملًا "رحمة" ويقفز بها من نافذة الغرفة وخلفهما تسعى النيران نحوهما بشراسة،

الآن نرى "مجد" يطير في الهواء حاملًا "رحمة" وخلفهما النيران، لتمسك النيران في جسد "مجد" الذي وجد نفسه يهوى هو و"رحمة" بعنف من الدور الثانى والنيران مشتعلة في جسده، قبل أن يصطدم بـ"تاندة" تخفف من أثر السقوط، ورغم ذلك يصطدم بالأرض في عنف والنيران تأكله، فيتجه نحو "نافورة" بالمستشفى، ويلقى نفسه بها هو و"رحمة" لتطفىء النيران، قبل أ، يظهر "مجد" من تحت الماء، لينهض حاملًا "رحمة" التي فقدت الوعى، وعلى وجهه الألم والمعاناة، ويغادر المستشفى سريعا مستغلا حالة الفوضى.

* * *

على باب شقة الوكر السرى الخاص به، يحمل "مجد" "رحمة" في الطرقة المؤدية إلى شقته، فيكتشف أن الباب مفتوح، ليعقد حاجبيه في قلق، ثم يدخل الوكر، وما أن يدخل حتى يجد صديقه "نديم" مقتولًا، وكذا كلبه "ماكس"، بينما تم تحطيم الشقة من الداخل، لتتسع عينيه في رعب وهو يصيح بحرقة شديدة:

– نديييييم

قبل أن يظهر خلفه فجأة المقدم "أمل" ومعه قواته صائحًا بصرامة وغضب:

– سلّم نفسك يا مجد

وفجأة يظهر من داخل الشقة مقاتلى المافيا الملثمين، الذين ينقضون بسيوفهم على "مجد" مطلقين صيحاتهم القتالية المخيفة، ليشتبك معهم "مجد" في قتال غير متكافىء، لتنقض على جسده السيوف وتسيل منه الدماء، بينما يصيح "أمل" في قواته:

– أضرب

مع حروف كلماته الأخيرة تفتح القوات نيرانها على الجميع في غزارة

* * *

على صوت أذان الفجر تفتح "رحمة" عينيها وهى تصرخ بلوعة:

— لااااااا

قبل أن يندفع نحوها "مجد" في توتر قائلًا:

— رحمة

"رحمة" تتحسس وجهه، قبل أن ترتمى في حضنه دون أن تشعر وهى تبكى قائلة برعشة وتلجلج بعد أن سرت برودة غير عادية في كل أوصال جسدها الهزيل:

— الحمد لله، ألف حمد وشكر ليك يا رب، ألف حمد وشكر

يتأمل ملامحها الرقيقة رغم حالتها المزرية بفعل الحريق والقتال متساءلا بتعاطف:

— كان كابوس؟

تجيبه وقد سال المطر الأسود من عينيها الكحيلتين:

— كان حقيقة محتملة

"مجد" يتأمل ملامحها من جديد قبل أن يقول ببطء:

— كلنا هنموت

— كلنا نفسنا نعيش، **"تبكى وتنهار في حضنه فجأة"**، بالذات لما نلاقى نصنا التانى

من جديد عادت إليسا لتظهر في حياتها بنبرات حزينة، وكلمات تعبر عما تجيش به مشاعرها لتسمع في خيالها صوتها القوي وهي تردد:

يا عالم بكرة يا حبيبي مخبي لنا إيه

يا خوفي بكرة يا حبيبي ما أشوفكش فيه

أيامنا بجد بخاف منها

مهما بتوعدنا بخوّنها

وبخاف تنسى اللي بتوعد بيه

دي الليلة اللي بقابلك فيها

خايفة ما أقابلكش أنا بعديها

والدنيا دي إيه ناوية لنا عليه

يا نعيش مع بعض حبيبي، يا نموت إحنا الإتنين

أوعدنا نكون يا حبيبي، مع بعضنا في الحالتين

ومن جانبه التمعت الدموع في عينيه وقد شعر بالعجز تجاه مشاعر إنسانة أحبها في لحظات كان يهيء نفسه فيها لوداع العالم، ليحتضنها بحب ميئوس منه، وتداعب أنامله شعرها برفق وحنان، وقد عجز لسانه عن الكلام، بينما يتساءل عقله: لِمَ كل اللقاءات الجميلة تأتينا ونحن على أعتاب الرحيل؟! ثم يبعدها عن صدره برفق لينهض في خجل عندما لاحظ دخول صديقه "نديم" على كرسيه المتحرك، وهو يحمل لاب توب "مالك" وهارده الخارجى قائلًا:

— لحسن الحظ اللاب توب والهارد الإكسترنال ماحصلهمش حاجة، دلوقت مالك يقدر يستخدمهم في فك الشفرة

"مجد" يلتقط منه اللاب توب والهارد قائلا:

— طب والـ CD، انا اتحرقت وهو في هدومى

"نديم" مطمئنا:

- الحمد لله النار ما وصلتلهوش

إلا أن "رحمة" تقول من بين دموعها بتوسل واستعطاف:

— كفاية لحد كده يا مجد، طريق البطولة كله هتافات وتسقيف،

لكن ف النهاية ماحدش هيكون شهيد غيرك

"مجد" يستدير إليها ويتأمل ملامحها بتعاطف، قبل أن يقول بمزيج من الحنان والصرامة:

- لو موتـنا هنعيش أكتـر!

* * *

الفصل الأخير

مع بداية شروق الشمس، يتـقلب "براء" على سريره فيصطدم بعلبة تشبه تلك العلب التي يوضع بها القمصان، فيفتح عينيه في دهشة ويتأملها للحظات قبل أن يفتحها، ليجد قميص "مجد" وبنطلونه اللذين أكلت النيران جزءا منهما، فيتأملهما بحاجبين معقودين، ثم يجد تحتهما اللاب توب والهارد الخارجى المزود ببرنامج فك الشفرات، والـ CD، فيضعهم جميعًا في العلبة ويتجه مسرعًا خارج الغرفة، ليدخل على "مالك" الذي غرق في ثبات عميق ليوقظه في عنف صائحا:

– مالك، مالك

"مالك" يستيقظ مفزوعًا:

– إيه!

"براء" يضع العلبة أمام "مالك" على السرير قائلا:

– صاحبك حط العلبة دي جنبى وأنا نايم ع السرير واختفى

"براء" يفتح العلبة ويستعرض محتوياتها لـ"مالك" ثم يستطرد:

– تفتكر ده معناه إيه؟

"مالك" يتأمل المحتويات بإهتمام ثم يقول:

– هدومه المحروقة بيقول لك بيها إنه مش جبان، واللاب توب والـ CD دول ليا عشان أفك الشفرة اللي عرفت مفتاحها قبل ما يهاجمونى

فيقول له "براء" بلهجة متوسلة:

– طب يالا بسرعة قوم اشتغل، الله أعلم اللحظات اللي جاية هيحصل فيها إيه

* * *

فى ساحة المستشفى يتأمل "أمل" جثث المقاتلين الملثمين الذين ضرب عليهم النار هو ورجاله، بعد أن نزع عن وجوههم الأقنعة وتبين ملامحهم الأجنبية، قبل أن يقول له مساعده الذي يقف خلفه:

— للأسف يا فندم كل اللي وقعوا ف إدينا ماتوا برصاص رجالتنا، والشخص الوحيد اللي ماماتش خد حباية قضت عليه ف الحال، واضح إنهم إنتحاريين

فيقول له "أمل" وهو يستدير نحوه:

— اتأكدت إن كل رجالتك مراقبين بيت براء كويس؟

فيجيبه مساعده:

— اطّمن يا فندم، بعد ما وصلناه لشقته هو ومالك، حطينا حراسة مشددة حوالين العمارة والمربع اللي فيه بالكامل

* * *

"براء" يقف بجوار "مالك" الذي نجح في فك شفرة الـ CD، ليقرأ له "مالك" مقطعا من محتواها المعروض أمامه على شاشة اللاب توب:

— سيظل الظلام ممتدًا في الأفق عصرًا بعد عصر، حتى ينقسم أولئك الرجال الذين حملوا على عاتقهم عبء العدالة المقدس، حينها سنقدم أرواحهم فداءًا لعصرٍ جديد تنضبط فيه الموازين، بظهور فارس العدالة الذي سيحقق المجد فعلًا واسمًا، وفقًا لمبادىء العدمية السياسية، التي تنص على أن دمار كافة الأوامر السياسية والاجتماعية هو شرط لازم لأي تطور مستقبلي

"مالك" يلتفت لـ "براء" ويتابع:

— زى ما توقعت، جماعة سرية مبدأها تحقيق العدالة على طريقتهم، وكالمعتاد زي ما بيحصل ف معظم الجماعات السرية، الزعيم المؤسس للجماعة دي تنبأ بطريقة روحانية إن فيه يوم هيحصل فيه إنشقاق بين أفراد الجماعة، عشان كده أكد إن الحل هو إنها تدمر نفسها بنفسها، وساعتها تـتبنى من أول وجديد باللي أتبقى من أعضائها، وتحقق هدفها اللي أتعملت أصلًا عشانه من عشرات السنين، وربط اليوم ده بظهور رمز سماه فارس العدالة، اللي هيحقق المجد اسمًا وفعلا

"براء" يعقد حاجبيه وهو يغمغم:

— مجد!

ثم يتجه "براء" لجهاز الكمبيوتر الخاص به، ويشغل برنامج الدخول على نظام الـ GSM الذي تتم من عليه مكالمات المحمول، قبل أن يدخل رقم هاتف "مجد" المحمول ليتصنت عليه،

فى تلك الأثناء كان "مجد" يدخل وكره السرى، قبل أن يجد كلبه "ماكس" راقدًا بينما تنزف دمائه بغزارة، ويجد حال الوكر مقلوبًا، في حين يرن هاتفه المحمول ليجد على الشاشة عبارة **«مكالمة فيديو، رقم خاص»**، فيضغط "مجد" زر الإجابة ليظهر له على شاشة المحمول وجه "مظلوم غلاب" الذي يقول بهدوء صارم:

— اللعبة انتهت يا مجد

ليتابع "براء" مكالمة الفيديو على شاشة الكمبيوتر الخاص به الذي يتصنت على هاتف "مجد"، ويرى على الشاشة "مظلوم غلاب" وهو يبعد وجهه عن شاشة الموبايل ليظهر خلفه "نديم" و"رحمة" المقيدين على مقعدين منفصلين، ثم يتابع "مظلوم" بصرامة قاسية:

— حياتك قصاد حياتهم، والإختيار دلوقت حالا

"مالك" تتسع عينيه وهو يتابع الموقف بجوار "براء" على الشاشة،

قبل أن يظهر أمام "مجد" 10 من المقاتلين الملثمين ليحيطوا بـه، بينما ينظر "مجد" لشاشة الموبايل ويتأمل "نديم" و"رحمة" اللذان شل منظرهما لسانه ليعجز عن الكلام، فيتابع "حكيم المنصة":

— سلّم نفسك من غير أي مقاومة، النهارده معادنا مع تاريخ جديد هيتولد على إديك

المقاتلين الملثمين يصنعون دائرة حول "مجد" الذي تجمد في مكانه كتمثال، حتى تغطى أجسادهم الشاشة ليعم السواد المكان، ثم تنتهى المكالمة، فيصيح "براء" في "مالك":

— الكلب، هو ده وكيل النيابة المرتشى اللي اتحالف مع الهراس ضد أبويا وأبوك

"مالك" يرتسم على وجهه الوجوم، بينما ينظر "براء" لشاشة الكمبيوتر التي حددت موقع المكالمة، ثم يتأمل ملابس "مجد"، قبل أن يمسك بهاتفه المحمول ويضرب أزراره، فيسأله "مالك":

— إنت هتعمل إيه؟

فيجيبه "براء" بحسم:

— اللي يمليه عليا ضميرى، مجد ورط نفسه

ثم يضع الهاتف المحمول على إذنه

* * *

فى مكان يشبه الغابة، تحيطه الأشجار العالية والأرض المليئة بأوراق الشجر المتساقط، نلمح من بعيد بيتًا صغيرًا يختبىء خلف هذا المشهد، إنه المقر الجديد لمنظمة "نبض العدالة"، وبجواره اسطبل داخله عدد من الخيول يظهر بعضها من نافذة الاسطبل،

وفى الداخل يقف "مظلوم غلاب" وسط السبع مستشارين الملقبين بـ"حماة الأوشحة" وقد أرتدوا الزى الرسمى للمنظمة، وحولهم المقاتلين الملثمين الذين يتراصون في توزيع حربى استعدادًا لأي هجوم، ثم يرن هاتف "مظلوم" المحمول ليلتقطه في لهفة قائلا:

— آلو

فيأتيه صوت أحد المرتزقة الأجانب الذي يقول بلهجته العربية الفصحى:

— لقد فر منا يا سيدى بمعجزة

"مظلوم" بغضب هادر:

— إزاااااااي، 10 مش قادرين عليه؟!

فيقول الرجل بتلعثم:

— لقد استغل،

"مظلوم غلاب" مقاطعًا بغضب:

— خلاااااص، مش وقته، راقبوا بيته وبيت قريبه اللي اسمه أُبيّ كويس، ومحدش ييجى على هنا، ممكن يكون هو اللي مراقبكم

"مظلوم" يغلق هاتفه في غضب، لكنه فجأة يسمع صوت صارم يقول:

— وممكن يكون سبقهم

الآن نرى البطل الملثم وهو يمتطى جوادًا عربيًا أصيلًا، وما أن تغادر الحروف فمه، حتى يهجم بالجواد على "مظلوم" في عنترية مذهلة رغم كل الرجال الموجودين حوله، إلا أن "مظلوم" يقفز بعيدًا، ليتفادى الجواد في اللحظة الأخيرة، بينما يندفع مقاتلى المافيا بسيوفهم وخناجرهم نحو البطل، وسط صرخات "رحمة" و"نديم"، ليبلى البطل الملثم بلاءًا حسنًا في البداية، إلا أنهم يشلون حركته ويحكمون الحصار حوله حتى أنه يختفى وسطهم تمامًا، قبل أن يظهر مرة أخرى بعد أن كبلوه بأياديهم، والدماء تنزف منه وسط صرخات "رحمة" و"نديم"،

ليسحبوه نحو "مظلوم" الذي التقط حقنة ورفعها أمام وجه البطل بتشفى وشماتة، قبل أن يغرسها في ذراعه قائلا:

— من دلوقت مضطر أشل حركتك، عصر الكر والفر خلاص انتهى، والأيام الجاية أيام دمار شامل ع البلد بحالها

البطل الملثم يلهث بشدة، لينزف وهو يبذل مجهودا هائلا حتى يرفع رأسه في وجه "مظلوم" رغم مفعول الحقنة الذي بدأ في السريان داخل جسده، قبل أن يقول بضعف:

— عمرك ما هتنجح ف دمار بلد ربنا نفسه اتعهد بحمايتها ف كتبه السماوية

فيقول له "مظلوم" بتحدى:

— أوقات كتير بيكون الدمار هو البنا الحقيقي لمجتمع مبنى ع الغلط، أرجع للتاريخ وبص لكل الأمم اللي اتقدمت وانت تفهمنى أكتر، ايطاليا ما رفعتش راسها غير من بعد حريق روما، اليابان ما اتقدمتش غير بعد ما انضربت بالقنبلة النووية، وحتى عبورنا ف 73 ما تمش غير من بعد نكسة، العدو مش عايز يضربنا عشان عارف إنه لو ضربك هيفوّقك، يبقى لازم الضربة تيجى منا لو كنا فعلا بنحب البلد دى!

إلا أن البطل يسأله بتحدى رغم قواه التي بدأت تخور:

— والرشاوى اللي أخدتها من رجال الأعمال عشان تنصرهم ع الغلابة والمساكين، كانت برضه عشان حبك للبلد؟

لتبرق عينى "مظلوم" وهو يجيب بلهجة غامضة:

— لو ظلمت الغلابة تبقى ضمنت لهم الجنة والرحمة، لكن لو عدلت بينهم هما اللي هيظلموا نفسهم بنفسهم، واللي مش هيقدر يظلم غيره على الأقل هيظلم نفسه، ثم إن الرشاوى اللي أخدتها من رجال الأعمال بنيت بيها مستشفيات وجوامع وكنايس، وجوزت بيها شباب مش قادر يتجوز، تقدر تقول لي لو كانوا اتحبسوا كانت البلد هتستفاد إيه؟

مع كلماته تخور قوى البطل تماما، في حين تسأل "رحمة" من بين دموعها:

— مادام بتبنى، ليه جاي دلوقتي تهد ؟

فيجيبها "مظلوم" بإصرار:

— عشان اكتشفت إن العمارة اللي أتأسست على أساس غلط وطلعت معووجة ماينفعش ترممها، الحل السليم إنها تتهد وتتبنى من اول وجديد، فولتير قال كده في الثورة الفرنسية وطلع كان عنده حق، ومصر كمان لازم تتهد وتمر بنفس المسار عشان توصل للنور

فيصرخ "نديم":

— بأي حق تحكم حكم زي ده؟

ينظر له "مظلوم" بتحدى ويقول بظفر:

— بحق القوة.. عمر المختار أتعدم بحكم محكمة، عشان قانون القوة ف العصر ده كان إن المظلوم يتعدم لو فكر يدافع عن نفسه ضد الظلم.. والفلاحين الغلابة اللي أتعدموا ف مدبحة دنشواي، أتعدموا بحكم من قاضى مصرى، برضه عشان قانون القوة كان بيقول إن اللي يقول لأ يتعدم.. وصدام حسين اللي عدمه الأمريكان، أتعدم بحكم من قضاة عراقيين.. لكن مفيش قاضى ف العالم كله قدر يحاكم الرئيس الأمريكى على جرايمه.. على مدار التاريخ كله، دايمًا حق القوة أقوى من قوة الحق، وإحنا النهارده معانا القوة

ومع آخر حروف كلماته، يطرقع "مظلوم" إبهامه وسبابته فيتم إظلام المكان، في حين يعمل بروجكتور ينقل صورة لمقاتلى المافيا

وهم يضعون المتفجرات في أسطح العديد من المحاكم ليلا قبل أن يردف:

– دمّر القضاء وإنت تحول المجتمع لمجرمين وقتلة، وساعتها ماحدش هيحكم بينهم مين الظالم ومين المظلوم، لغاية ما المجتمع يتحول لغابة، وبعدين ينهار ويتبنى من جديد على عدل حقيقي، وقوانين مافيهاش ثغرات

"مظلوم" ينظر لجسد البطل الملثم الذي بدا وكأنه في عالم آخر قبل أن يتابع:

– إنت حاولت تصنع من نفسك رمز، فسيبناك تحاول، بس ف الآخر شكّلنا الرمز بمعرفتنا، ماحدش هيعرف خبر موتك غيرنا، لكن قدام المجتمع هتفضل عايش بصورتك الغامضة اللي هتدمّر القضاء، وبعد ما أحقق هدفي هتظهر جثك، والناس هترحم عليك بعد ما يبان أثر اللي عملته ف خدمة مجتمعهم الحيواني اللي هيتحول على إديك لمجتمع بني أدمين، وبكده هنمنحك الخلود ف الدنيا، وهنقتلك شهيد عشان تفوز بالجنة ف الآخرة، زي كل رجالتنا اللي قتلناهم بإدينا قبل ما ينفرط العقد ونضيع كلنا ف لحظة خلاف، وما تقلقش، كل الناس اللي بتحبك هتموت معاك، عشان ماحدش يزعل على حد

"رحمة" باكية:

– مجرم

"مظلوم غلاب" بغضب هادر:

– وبإجرامي هصنع قانون يمنع الإجرام، في المسيحية المسيح إختار يتصلب عشان يفدى البشر، وف جمعيتنا أنا أخترت أصلب القضاء عشان أفدى المجتمع وأحركه لقدام

ثم ينزع "مظلوم" قناع البطل وهو يصيح فيمن حوله بجنون:

– أقتلوه

ليتضح فجأة أن البطل الذي يرتدى القناع هو "براء"، فيصيح "مظلوم" في رجاله الذين يهموا بقتله:

– استنوا!!!!!!

ثم يقبض على شعر "براء" ليرفع وجهه المدفون في صدره قائلا:

– إنت جيت هنا إزاي؟

"براء" ينظر له بضعف دون أن يقوى على الكلام، بينما يعود بذاكرته إلى الخلف على طريقة الفلاش باك

* * *

"براء" يطلب رقما ثم يضع الموبايل على أذنه، وبجواره "مالك" الذي يتابع الموقف بقلق، قبل أن يسمع صوت المقدم "أمل" وهو يرد على المكالمة،

المقدم "أمل":

- آلو

"براء":

– أيوة يا أمل بيه، أنا براء فاروق الصحفى بجورنال المستقبل

المقدم "أمل":

– خير

"براء" يأخذ نفسًا عميقًا قبل أن يقول:

– أنا الشخص المقنع اللي البلد كلها بتدور عليه

المقدم "أمل":

– الظاهر إن اللي حصل أثر على نافوخك، انت ناسى إن إنت

وهو كنتوا واقفين قدامي من كام ساعة؟

"براء":

– ما أنا مش لوحدي يا أمل بيه، أنا كنت واحد من جماعة سرية خدعتنا باسم العدالة، بس اتضح إنها عايزة تدمر البلد ومخططها قدامه ساعات ويتنفذ لو ما لحقناهوش

المقدم "أمل":

– مخطط إيه؟

"براء":

– كل التفاصيل هتوصلك دلوقت حالًا على الـ CD اللي بقى ف إيدى وفكيت شفراته، بس المهم يكون الوقت ف صالحنا

ثم ينهى "براء" المكالمة، ويبدأ في ارتداء زي "مجد" في حين ينظر له "مالك" ويقول مصدومًا:

– ليه عملت كده يا براء؟

فيجيبه "براء" وهو يلف الإيشارب حول وجهه:

– جوّه كل واحد تعرفه إنسان ما تعرفهوش، أنا ظلمت مجد وده الوقت اللي لازم أكفر فيه عن غلطي

* * *

"براء" يفوق من ذكرياته، ليبتسم بشماتة رغم ضعفه الشديد، ويبذل قصارى جهده حتى يستطيع النطق قائلا لـ"مظلوم":

– الـ CD اللي أنت افتكرت إنك انقذته من التسريب، كان فاضل منه نسخة أخيرة مع آسر الهراس واتفكت شفرتها، ودلوقت كل أجهزة الدولة بقت على علم بكل مخططاتك

ومع حروف كلماته الأخيرة يقتحم المقدم "أمل" الأحداث بقفزة رشيقة من فتحة في السقف، وما أن يهبط حتى يتدحرج سريعًا في لحظة إنقضاض المقاتلين الملثمين عليه، لكنه يسبقهم إلى "مظلوم" قبل أن يهب واقفًا ويضع فوهة مسدسه على رقبته، فيتجمد المشهد تمامًا، بينما يقول "أمل" بصرامة:

– انتهت اللعبة يا مظلوم، المكان كله محاصر، والقوات اللي برة مستنية كلمة واحدة عشان تدمرك إنت ورجالتك

ورغم دقة الموقف، يقول "مظلوم" ساخرا:

– أراهنك إنكوا قريتوا الخطة الأصلية وانشغلتوا بتفاصيلها، من غير ما تاخدوا حتى بالكوا إن فيه خطة بديلة

يد "مظلوم" تتسلل في نعومة وخبث إلى مكان خفى في طياته، قبل أن يضغط على زر نسمع صوت أزيزه، فيظلم المكان وتضاء من جديد شاشة البروجكتور لتظهر فيها عدة صور حية لمحاكم مصر، بينما يقول "مظلوم" بشماتة:

– فات المعاد، كل المحاكم اللي بتشغى دلوقت بالقضاة والمستشارين ووكلاء النيابة، مزروع فيها قنابل جاهزة تنسفها بدوسة زرار إيدى محطوطة عليه، والمكان اللي إحنا فيه دلوقت خد أمر منى ينفجر كمان دقيقتين، يا تسيبنى أخرج من هنا وتدى أمر لقواتك بالإنسحاب وتموت انت وأبطالك مقابل أنى ما أفجرش المحاكم، يا تحاول تقتلنى وكل حاجة تنفجر معايا

المقدم "أمل" بشك وريبة:

– حيلة مكشوفة

"مظلوم" يشير للشاشة ويتابع:

– تقدر تجرب بنفسك، وإنت تشوف بعنيك حالًا القضاء المصرى بيتمحى م الوجود

فيصيح "نديم" في "أمل" محذرا:

– ما تصدقهوش يا أمل، كده واللا كده هو قرر إنه يدمر القضاء

إلا أن "أمل" يصمت لثوان كملك شطرنج لا يجد أي حركة تنجيه من الكش، فيحسم أمره ويترك "مظلوم" ثم يلقى بمسدسه في استسلام، قبل يلتقط جهازا من بذلته، ويقربه لفمه قائلًا:

– القوات تنسحب الآن لحين إشعار أخر

ثم يقوم المقاتلين الملثمين بتقييد "أمل"، في حين ينسحب "مظلوم" ورجاله حتى يضغط زرًا خفيًا في الحائط، فيكشف عن ممر سرى، يدخله رجال "مظلوم" وهم يحيطون به لحمايته، بينما يقول بشماتة ساخرة:

– كان حقك تسمع نصيحة صاحبك يا سيادة المقدم، كده واللا كده القضاء فعلا هيتدمر، وزي ما دمرنا نخبة القضاة والمستشارين في المؤتمر الشعبي اللي انفجر من كام يوم، هنقضي النهارده على اللي باقين وبعدها المجتمع هيقوم بدوره ويدمر نفسه بنفسه

ثم يدخل "مظلوم" النفق بصحبة رجاله ليختفـون، قبل أن يعود الحائط لطبيعته

* * *

"مظلوم" ورجاله يسيرون في الممر السرى المؤدى للخارج، قبل أن يجد فجأة أمامه جوادًا عربيًا أصيلًا بلا فارس، وإلى جواره الكلب الـ «بيتبول» الخاص بـ "مجد"، فيعقد حاجبيه في دهشة متساءلًا:

– إيه ده، اللي جاب دول هنا

قبل أن يهوى "مجد" من السقف دون أن يكون مرتديا لزيه الملثم، ليسقط على الحصان قبل أن يجذب "مظلوم" بقوة رهيبة ترفعه في سرعة ومرونة على الحصان ليشل "مجد" حركته وهو يضع مسدس على رقبته في حين يزمجر الكلب بوحشية شديدة في حين يقول "مجد" بصرامة:

– ميزة اللي بيوصل متأخر إنه بيكون عرف الخطة البديلة، وحط خطة مضادة

فيرد عليه "مظلوم" بسرعة وتوتر:

– عمرك ما هتلاقى وقت كفاية، حط إيدك ف إيدى يا مجد وإحنا نرجّع للبلد عدالتها المفقودة ومجدها القديم

فيقول له "مجد" بصرامة:

– عمر الظلم ما يصنع عدالة

"مظلوم" وهو يحاول التملص:

– العدالة ماتبقاش عدالة من غير ظلم، لازم يكون فيه اسود عشان يبقى فيه ابيض، ولازم يكون فيه شر عشان يكون فيه خير، ربنا حرم الظلم لكن ما منعهوش، عشان الكون كله لا يمكن يستمر غير لو كان فيه ظالم ومظلوم

فجأة تسقط قطعة من الصخر من سقف الممر، فيلتفت لها "مجد" فيستغل "مظلوم" الموقف ويقفز من الجواد قائلًا بعيني شيطان رجيم:

– إنت اللي اخترت

ثم يضغط "مظلوم" على زر تفجير القنابل الموجود في طياته، لكن "مجد" يقول بثقة:

– مفيش نظام ف الكون كله مفيهوش ثغرة، وغلطتك إن جدران الممر ما بتوصلش أي إشارات لا سلكية

"مظلوم" تتسع عينيه قبل أن يفر عائدًا إلى حيث ترك "أمل" ليعطى إشارة التفجير من هناك، بينما يصيح في رجاله:

— أقتلوه

"مجد" يصوب مسدسه على "مظلوم" لكن سيفًا بتارًا من مقاتلي المافيا يهوى على المسدس ويطيره من يده، قبل أن يشتعل صراعًا رهيبًا بين "مجد" الذي قفز من على جواده، وبين المقاتلين الملثمين لينضم معه كلبه ماكس إلى الصراع وهو يقفز لينقض على عنق أحدهم، في حين يتراجع 3 من المقاتلين مع "مظلوم" لتأمينه،

"مظلوم" يصل لنهاية الممر، لكنه فجأة يجد أمامه "أمل" مصوبًا مسدسه نحوه وقد تخلص من قيوده وخرج من الوكر، فينقض على "أمل" الثلاثة مقاتلين، ويحدث إشتباك رهيب،

وداخل الوكر الموجود فيه "براء" و"رحمة" و"نديم"، نرى عداد القنبلة يتراجع في سرعة مخيفة، 110،109، 108، بينما على وجوه الجميع الضعف والاستسلام للمصير المحتوم

الآن نرى أحد المقاتلين الثلاثة الذين انقضوا على "أمل" ملقى صريعًا، بينما يغرس "أمل" خنجرًا حادًا في بطن الثاني، لكن سيفًا حادًا يهوى على رأسه من المقاتل الثالث، لكننا نسمع صوت طلقة تصيب المقاتل الثالث، أطلقها "مجد" الذي عاد ليمتطي جواده بعد أن تغلب على المقاتلين الذين اشتبك معهم لينقذ حياة "أمل" في اللحظة الأخيرة، في حين ينظر "أمل" لـ "مجد" وتتلاقى عينيهما،

الآن أصبح "مظلوم" داخل الوكر وما أن يهم بالضغط على زر تفجير قنابل المحاكم، حتى يجد فجأة يد امتدت لتقبض على يده بعنف،

إنها يد "براء" الذي نرى وجهه المتصبب بالعرق، وقد بذل مجهودًا رهيبًا ليقاوم العقار الذي شل حركته، وقد حركت غريزة الخطر كل كمية الأدرينالين المحفز للطاقة داخله، فتتسع عيني "مظلوم" غير مصدق نفسه، بينما يقول "براء" بضعف، وهو يخرج قلمًا من جيبه:

— ما كدبوش لما قالوا إن القلم سلاح الصحفيين

قبل أن يدب "براء" قلمه في عين "مظلوم" بآخر ما تبقى لديه من قوة، فينتفض "مظلوم" صارخًا صرخة رهيبة،

"براء" ينظر لمؤشر الإنفجار فيجده وهو يزحف إلى لحظات النهاية بتراجع مرعب 52،51،50، فيزحف نحو "رحمة" بضعف وتخاذل، حتى يصل إليها هي و"نديم" ليحاول النهوض بصعوبة حتى يفك قيودهما، قبل أن نسمع فجأة صوت طلقة يدوى في المكان، فيندفع "براء" للأمام ويحتضن "رحمة" التي تصرخ بذعر، في حين تنزف الدماء من فمه ليقول وهو يحتضر:

— يمكن هو أولى بيكي، بس أنا بحبك أكتر

وقبل صعود روحه إلى بارئها هتف قلبه: كُل الأماني التي انتهت، كانت في البداية ممكنة، فليت كل شيء ظل كما كان في البدايات

لنرى بعدها "مظلوم" وهو يمسك بالمسدس الذي صوبه على "براء" وقتله به، في حين تتسلل يده إلى زر تفجير القنابل في ملابسه ليضغط عليه، فيلكز "نديم" الحصان الذي كان يركبه "براء" حين اقتحم المكان، ليندفع الحصان نحو "مظلوم" ويصعد فوق جسده ويمنعه من الضغط على الزر، في لحظة دخول "مجد" وهو يمسك بلجام حصانه ومعه كلبه، وإلى جوارهما يدخل "أمل"، فيشاهد "مجد" "مظلوم" وهو يحاول بضعف وتخاذل أن يضغط على الزر مجددا فيطلق عليه النار ويقتله، قبل أن يتقدم "مجد" و"أمل" نحو "رحمة" و"نديم" ومؤشر الإنفجار يتراجع،13،12،11 فيحمل "مجد" "رحمة" المنهارة بشدة، ويضعها على جواده، وكذا يضع جثة "براء"، بينما يحمل "أمل" "نديم" ويضعه على الجواد الأخر،

ثم يتحرك الجميع بالجوادين بسرعة شديدة ومعهما "ماكس" في محاولة يائسة للفرار من الوكر، ومن خلفهما يحدث الإنفجار الشديد الذي يسبب الهلع للجوادين والكلب، فتزداد سرعتهم بشدة والصخور تتساقط على الجميع، ومن خلفهم نرى النيران تندفع نحوهم بسرعة مخيفة، حتى يصل الجميع إلى نهاية الممر في اللحظة الأخيرة لتدفع الموجة التضاغطية الجميع من فوق الجوادين ليطيروا في الهواء ويرتطموا بالأرض الزراعية ويزحفا عليها بعنف شديد، وسط قوات الأمن التي تراجعت مع عنف الإنفجار، وما أن يهدأ الإنفجار، حتى تتجه القوات نحو الجميع لفحصهما، حيث أصيب "نديم" بجرح غائر في رأسه، بينما امتلأ وجه "رحمة" بالكدمات والسحجات، أما جثة "براء" فسالت منها الدماء بغزارة لتغطي وجهه تماما، وبجرعة أقل نزفت الدماء من وجهى "أمل" و"مجد" الذي اقترب منه كلبه ليلعقه بوفاء متناسيا آلامه،

أحد الضباط يقترب منهم وهو يصوب سلاحه نحو "مجد" قائلًا:

– أرفع إيدك لفوق

فيهم الكلب بالإنقضاض عليه إلا أن "مجد" يصيح فيه:

- Stop ماكس

قبل أن يصيح "أمل" بصرامة في الضابط:

– نزّل السلاح، واطلبوا الإسعاف بسرعة للبطل

الضابط في دهشة:

– بس يا فندم،

"أمل" مقاطعًا وهو يشير لجثة "براء":

– ده المدان، ومات خلاص

لكن "مجد" يقول في إصرار:

– لحظة يا أمل،

فيقاطعه "أمل" مجددا:

– ماتكمّلش، أنا عارف كل حاجة، لكن ماينفعش تكون جزاتك العقاب بعد كل اللي عملته

فينظر "مجد" لجثة "براء" في تأثر ويتابع:

– بس ده مش قانونى!

قبل أن يرد عليه "أمل" بحزن:

– لكن عادل، الـ CD اللي بيدين منظمتك مش وقته يظهر للنور خالص وإلا أعداء العدالة هياخدوه سلاح عشان يعلنوا للرأي العام إن قضائنا مش بخير وفيه عناصر فاسدة لازم يتطهر منها، وساعتها ماحدش هيلومهم لما ينادوا بتطهير القضاء وفي الخفا يأخونوه على طريقتهم، ويبقى أبويا وجوز خالتك ماتوا ع الفاضي

يعقد "مجد" حاجبيه في غير اقتناع، فيستطرد "أمل":

– ساعات لازم نداري على الغلط لما يكون الإعلان عنه غلطة أكبر

يتساءل "مجد" وهو ينظر لعينيه مباشرة:

- وقياداتك، هتقول لهم إيه؟

"أمل":

- قياداتي اللي باعوا ضمايرهم براء سلّمني تسجيلات ليهم كشفتهم على حقيقتهم، ولازم يتعمل معاهم صفقة يسكتوا بيها ويخلص الموضوع بهدوء بدل ما تخرب ع الكل

* * *

في قاعة مؤتمر صحفى تعقده وزارة الداخلية لكشف ملابسات القضية، وقف وزير الداخلية على منصة المؤتمر وبجواره "أمل"

وعدد من قيادات الداخلية، بينما يجلس في الصف الأول من القاعة "رحمة"، و"نديم"، و"أبيّ"، و"مالك"، وعدد من الصحفيين والإعلاميين، قبل أن يقول الوزير أمام ميكروفونات الفضائيات وهو يشير إلى شاشة في القاعة عليها صورة "براء":

– ونتيجة لقتل والده وهو في طفولته، وإحساسه بإنه ضحية من ضحايا العدالة، قرر الصحفى الشاب براء فاروق صنع شخصية غامضة شبه شخصيات السينما والروايات، عشان ينفذ بيها العدل على طريقته الخاصة على أرض الواقع

وزير الداخلية يشير إلى الشاشة في لحظة استبدال صورة "براء" بصورة شخص يبدو أنه مختل عقليًا في ملامحه وهيئته ويتابع:

– لكن مختل عقليًا اتأثر بشخصية براء، وقرر إنتحالها في تنفيذ مخطط مجنون، يستهدف رجال القضاء المصرى النزيه، ومن خلال التحريات، توصلنا للشخص المختل في لحظة إغتياله لبراء، وأحبطنا مخططه في قتل عدد من القضاة والمستشارين، ليظل قضائنا في مأمن من المختلين عقليًا، وتظل مصر بلد الأمن والأمان

صوت همهمة يسود في القاعة، في حين تبكى "رحمة" في حرقة، ويحتل الوجوم ملامح وجهى "نديم"، و"أبيّ"، بينما يدارى "أمل" عينيه، ليتحاشى سهام النظرات المصوبة إليه وقد أثقل البيان الكاذب ضميره!

في تلك الأثناء كان هناك ظل شخص ملثم يسير في القاعة بين الناس، لتستدير نحوه الأعناق وسط صيحات الذهول وإتساع العيون المندهشة قبل أن يقف أمام المنصة،

إنه القاضى "مجد الدين مهران" في زيه الملثم، قبل أن يخلع الإيشارب من على وجهه أمام الحضور، فينظر له "أمل" بدهشة، بينما يقول "مجد" بصرامة:

– أنا عندى معلومات مختلفة عن بيان حضراتكم اللي بتملّوه للصحف ووسائل الإعلام

وزير الداخلية محاولًا التعتيم على الموقف:

– أبقى هات معلوماتك بعدين، المؤتمر خلص

فيتحداه "مجد" بنظراته قبل أن يتابع في إصرار:

– لو حضرتك عايز تمشى تقدر تمشى

"مجد" يستدير نحو الجميع ويتابع:

– بس الإعلاميين اللي هنا أعتقد إنهم مهتمين يسمعوا كلامى

العيون كلها تركز على "مجد"، في حين يستطرد بهدوء:

– المعلومات اللي عندى بتقول إن فيه أوضاع كتير لازم تتغير، وإن هيبة الدولة مش هنحافظ عليها بكدبة بنلبسها كل مرة لمختل عقليًا، حتى لو كانت الحقيقة هتعمل بلبلة، وأول حقيقة أنا بعلنها على الملأ ومسئول عنها.. أنا الشخص المقنع الحقيقى، **"تزداد همهمة الحضور في حين يتابع:"** وبعد اللي حصل قررت أعمل بنصيحة الشهيد براء، وأحارب بوش مكشوف، ومستعد للحساب.. بس مش هتحاسب لوحدى

الجميع يصفق بشدة، في حين يزداد إنهمار دموع "رحمة" الحزينة بعد أن ذبح القدر قلبها على ناصية مدينة العدل، بينما يسند "أمل" مرفقه على المنصة ثم يريح جبهته على كفه ليدارى وجهه، ويعقد وزير الداخلية حاجبيه في غضب ممتزج بالحرج، وينظر "أبيّ" و"نديم" و"مالك" لـ "مجد" بذهول، بينما تصفق أياديهم بمزيج من الحزن والتأثر، قبل أن يرفع "أمل" وجهه ويدخل يده في جيب بذلته ليخرج كارت الميموري الذي أخذه من "براء" قبل وفاته، ليتأمل الكارت بحزن وخجل ثم تنزل على وجنتيه دمعة

ساخنة ويصفق هو الأخر قبل أن ينهض قائلا وهو ينظر لـ"مجد":

- أنا شاهد على كل الكلام ده، ومعايا تسجيلات تانية هتكشف كل الأقنعة عن الخونة اللي يستحقوا العقاب

* * *

في مختلف الصحف، نرى العديد من المانشيتات الصحفية:

— آن الأوان للقضاء المصرى أن يترافع عن نفسه

— وسقط حاجز الصمت بين القانون والعدالة

— بين القاضي مجد الدين مهران وشباب البلاك بلوك، هل أصبحنا نعيش في زمن الأقنعة؟

— حقيقة الرمز الغامض في مصر والفرق بينه وبين تنظيم البلاك بلوك ومصادر تمويل الطرفين

— وبدأ العد التنازلي لإنهيار دولة المرشد

— في محاكمة عصر بأكمله، الحُكم بعد المداولة

في حين تجلس "رحمة" على جهاز الكمبيوتر الخاص بها في الجورنال، والمجهز ببرنامج يحول الصوت لكلمات مكتوبة على الشاشة حتى يسهل الكتابة للمكفوفين، في حين تمسك بميكروفون موصل بالجهاز لتتحدث فيه في الوقت الذي تتراص فيه حروف تلك الكلمات على الشاشة وهى تقول:

بعد الحرب العالمية الثانية، سأل الزعيم الفرنسى شارل ديجول صديقه الأديب مارلو عن حال فرنسا وقال له: أعرف أن الوضع في فرنسا سئ، ولكن كيف حال الجامعة والقضاء؟ فأجابه بأنهما لم يطلهما بعد الفساد الذي انتشر في المجتمع، فرد الزعيم ديجول قائلًا: إذن نستطيع بناء فرنسا من جديد.

فمتى سنبنى مصر من جديد؟

ومن الذي يستحق العقاب حقًا، قاضى تمرد على القانون بعد أن وجد فيه ثغرات لا تحقق العدالة الحقيقية، أم نظام قضائي بطيء يسير بخطواتٍ وئيدة، حتى فقد الناس ثقتهم فيه وصاروا يؤمنون بقانون الغاب والعنف والسلاح؟ أم فصيل سياسي حاول المزايدة بتطهير القضاء عن طريق تسييسه والسيطرة عليه ليعمل لصالحه؟

تلك هي الأسئلة التي تحتاجُ لإجابةٍ جماعيةٍ من كلِ أفرادِ المجتمع، ضمن منهجٍ يشاركونَ جميعًا في وضعهِ والإتفاقِ عليه، في محاكمة لمجتمع وعصر بأكمله وعندها سنعرف، من الذي يستحق الثواب والعقاب، حين يصدر الحكم من قضاء شامخ مستقل حقا، بعد المداولة

النهاية

بعد النهاية!

في عالم أخر استقبل "الحسيني" صديقه "براء" ليقول الأول بنبرة صوته المميزة، وبحس لا يخلو من السخرية:

– والله ورديت وصحتك جت ع الموت يا أبو براء

يدور "براء" حول نفسه وهو يتأمل ذلك العالم الجديد المليء بالخضرة والأنهار، قبل أن ينظر لصديقه "الحسيني" الذي تقف إلى جواره خطيبته "فاطمة" و"جيكا" و"كريستي" وعدد من الشهداء قبل أن يقول:

– اتعودنا دايما نقول أنا آسف إني جيت في وقت مش مناسب، لكن ما اتعلمناش نقول أنا آسف إني همشي في وقت مش مناسب، كان نفسي ألحق اعتذر لها قبل ما أمشي واسيبها في عز المعمعة

يضحك "الحسيني" هو والشهداء المحيطين به قبل أن يقول لهم ساخرا:

– معلش يا جماعة أعذروه، أصله ميت جديد

ثم يقترب من "براء" قائلا بجدية مفاجأة:

– هنا مفيش حاجة اسمها إحساس ومشاعر، هنا فيه حاجة اسمها حقيقة مطلقة هتشوفها مجسمة بعنيك من غير ما تملك تغييرها، بس على الأقل هتؤمن مع الوقت إن كل حاجة بتشوفها هي الصح مهما كانت باينة لأهل الدنيا غير كده، هتشوف بنفسك على شاشة ضخمة حياتك اللي فاتت من أول ما اتولدت لحد ما جيت هنا، وكل الاختيارات اللي كانت قدامك، وكل اختيار كان هيوديك لفين، هتتفرج على نهايات كتير أوي لحياتك، ومواقف بديلة كان ممكن تعيشها لو كنت اخترت اختيارات تانية غير اللي اخترتها وإنت عايش، وساعتها مش هيكون قدامك أي إحساس ممكن تحس بيه غير إحساس الندم على كل لحظة اتنرفزت فيها ع القدر ومشيئة ربنا بعد ما تتأكد إن كل اختيارته كانت هي الأحسن، وكل اختياراتك كانت مجرد بلح

ثم يمسك بيديه وهو يصطحبه بنعومة ورفق قائلا:

– تعالى أما أفرجك ع الدنيا من فوق، التليفزيونات هنا فيها أوبشن الفرجة ع الماضي والمستقبل، والعرض مستمر 24 ساعة، بس الساعة بتاعتنا تفرق كتير عن ساعتهم

ومع آخر حروف كلماته، صكت مسامع "براء" أصوات جيتار سريعة الإيقاع امتزجت بطبول الحرب قبل أن يصل مع "الحسيني" لشاشة عرض ضخمة تعرض لهما آخر التطورات،

* * *

شباب حركة "تمرد" يجمعون ملايين الاستمارات من الشعب وقد حملت الأوراق توقيعات وأرقام بطاقات المواطنين المؤيدين لسحب الثقة من الرئيس محمد مرسي

* * *

في مكتب الإرشاد يجلس المرشد بتأهب مع أعضاء المكتب وعلى رأسهم "جودت الناظر" الذي يقول:

– حتى لو كانت الأرقام اللي أعلنتها حملة تمرد صحيحة، برضه الرقم ده أقل من أغلبية الشعب اللي هتبقى معانا يوم ما تحصل في الأمور أمور، إحنا اتعودنا إن صوت المعارضة عالي لكن صوت الصناديق هو اللي بينفذ إرادتنا في الآخر

"المرشد" متوترا:

– بس المرة دي طالبين منا نعمل استفتاء شعبي إذا كان الشعب

عايز الرئيس واللا لأ، لو ماكانوش واثقين إن الصناديق هتبقى معاهم ما كانوش قالوا كده

• "جودت الناظر" بغرور:

– ومين قال إن الناس اللي إدتنا أصواتها في مجلس الشعب والشورى وانتخابات الرياسة وفي التصويت على الدستور هتقبل أصلا باستفتاء شعبي على شرعية رئيس هما اختاروه بالفعل، هو لعب عيال واللا إيه؟ اللي مش عاجبه الرئيس يبقى ينزل يصوت ضده في انتخابات 2016 وعليك خير

– طب ولو لجأوا للعنف؟

– ساعتها يبقى هما اللي اختاروا، ويبقوا يورونا هيعملوا إيه مع شبابنا ومع الجماعات الإسلامية وأنصار أبو إسماعين وغيرهم من الإسلاميين اللي عندهم استعداد يولعوا مصر يوم ما حد يفكر يخلع الرئيس الشرعي المنتخب ويرجّعهم السجون، وما تنساش فضيلتك إن أمريكا عندها استعداد تام للتعاون معانا لو اتأزمت الأمور

* * *

في مبنى جهاز المخابرات العامة، جلس مدير الجهاز مع وزيري الدفاع والداخلية ليقول بجدية شديدة:

– وبناء على آخر المعلومات اللي وصلتنا، نقدر نقول إن المخابرات الأمريكية بدأت تنفيذ مخطط وضع مصر ضمن الدول الداعمة للإرهاب والمأهولة بالصراعات العرقية، عن طريق تمويل بعض الجماعات الإسلامية بالسلاح لاستخدامه ضد المتظاهرين يوم 30 يونيو، لحد ما يقع عدد كبير من القتلى والمصابين مع تفجيرات هنا وهناك لزعزعة الأمن وتخويف الشعب من النزول، وبمجرد ما يتدخّل الجيش وقواته المسلحة، هتكتمل الخطة بالهجوم عليه من عناصر مخرّبة في الداخل والخارج، لغاية ما ينهار الجيش وتغرق مصر في الفوضى، وساعتها يحصل تحالف بين الإخوان والجماعات الإسلامية والجهاديين لحد ما يسيطر الإسلاميين سيطرة تامة على البلد، وينصبوا المشانق لأي صوت معارض

وزير الداخلية:

– أنا كلفت وحدة الأمن المعلوماتي في الوزارة بمراقبة تليفونات وتحركات كل العناصر المحتمل صدور عنف منها عشان نقبض عليهم لو فكروا يتحركوا، ده غير إننا سيطرنا على بريدهم الالكتروني ورصدنا كل المراسلات اللي بتدينهم

وزير الدفاع:

– عظيم، كده القوات المسلحة مش محتاجة تنجر لصراعات داخلية في ظل التحالف بين الشرطة والمخابرات اللي هيسيطروا على الموقف، ويقبضوا على رؤوس الأفاعي لو الأمور اتأزمت، وبكده نبقى أفسدنا المخطط الأمريكي وحمينا المدنيين العزل في نفس الوقت، أعتقد كده مش هيكون ناقص غير تكليف مجموعة من الطيارين برصد ومراقبة الشوارع والميادين لاستكشاف أي مخطط، واستخدام الفيديوهات اللي هنرصدها كدليل حي على الإرادة الشعبية قدام العالم كله

* * *

ملايين المصريين يخرجون من كل فج عميق بمختلف أنحاء الجمهورية، يطالبون بخلع الرئيس محمد مرسي، وحل جماعة الإخوان المسلمين، بينما يحمل بعضهم ضباط الشرطة فوق الأعناق في لحظة تصالح بين الشعب والداخلية التي انحازت للإرادة الشعبية، ورفض ضباطها أن يكونوا أداة في يد النظام، بينما تحلق الطائرات الحربية في السماء المصرية لتصور ما يحدث في حين

يهتف المواطنون من أسفل:

– إنزل يا سيسي، مرسي مش رئيسي

* * *

في منزله، يتابع المرشد شاشة التلفاز التي تعرض حريق مبنى مكتب الإرشاد في المقطم، وتلك الصراعات الدائرة حوله بين شباب الجماعة، وآلاف الثوار الذي سيطروا على الموقف لصالحهم، قبل أن يجري إتصالا تليفونيا يبدو صوته من خلاله مذعورا مرتبكا وهو يقول:

– أيوة يا جودت، إزاي تسيبوهم يقتحموا المبنى ويحرقوه بالسهولة دي؟ فين رجالتنا اللي كانوا في الأسطح والعماير اللي حواليه؟

– فضيلتك إحنا بذلنا أقصى ما في وسعنا، وشبابنا اللي كانوا في المبنى حاربوا بكل قوتهم بس العدد كان رهيب ومستحيل مقاومته، وللأسف الشرطة قبضت على رجالتنا اللي فوق الأسطح وكشفوا شخصيات الفلسطينيين رغم إننا كنا مسلمينهم بطاقات رقم قومي

– وفين باقي رجالتنا اللي ع الحدود وباقي المحافظات؟

– المخابرات الحربية بدأت الحرب على الجماعات الإسلامية في رفح وسينا، وعربيات كتير كانت متحملة بالسلاح والعتاد واتمسكت وهي في طريقها للقاهرة والسويس والإسكندرية، مفيش حل قدامنا دلوقت غير إننا نلحق نستخبى في اعتصام رابعة العدوية، كل القيادات متحصنة هناك

* * *

وزير الدفاع يسير بخطوات متأهبة داخل أروقة القصر الجمهوري وخلفه عدد من الضباط التي تتباين على أكتافهم الرتب، وتتنوع النجوم والنسور والسيوف، في حين أخذ يتلقى التحية من قوات الحرس الجمهوري داخل القصر بمهابة واحترام، قبل أن يصل إلى مكتب الرئيس ويلتفت إلى القوات المصاحبة له قائلا:

– استنوني هنا، الحوار اللي جوه لازم يكون بيني وبينه على انفراد

قالها ويديه تطرق الباب بصرامة، ثم تثني مقبض الباب ليدخل على الرئيس بعيني نمر متحفز، في حين بادره الرئيس بالحديث قائلا:

- الجيش موقفه إيه من اللي بيحصل؟ هيفضل كدا يتفرج؟ مش المفروض يحمى الشرعية واللا إيه؟

وزير الدفاع:

– شرعية إيه؟ الجيش كله مع إرادة الشعب، وأغلبية الشعب حسب تقارير موثقة مش عايزينك

رئيس الجمهورية:

– أنا أنصارى كتير ومش هيسكتوا

وزير الدفاع:

– الجيش مش هيسمح لأي حد يخرّب البلد مهما حصل

رئيس الجمهورية:

– طيب، لو أنا مش عايز أمشي؟

وزير الدفاع:

– الموضوع منتهى وما عادش بمزاجك، ويا ريت تطلب من أنصارك يرجعوا بيوتهم وحاول تمشى بكرامتك بدل ما تهدد شعبك، ده لو لسه بتعتبره شعبك

رئيس الجمهورية:

— بس كده يبقى انقلاب عسكرى وأمريكا مش هتسيبكم

وزير الدفاع:

— إحنا يهمنا الشعب مش أمريكا، وطالما إنت بتتكلم كده أنا هكلمك ع المكشوف، إحنا معانا أدلة بتدينك وتدين عدد كبير من قيادات حكومتك، وبتثبت إنكم حاولتم الإضرار بالأمن القومى المصري، والقضاء هيقول كلمته فيها، وهتتحاكموا قدام الشعب كله

رئيس الجمهورية:

— طيب ممكن تسمحوا لي أعمل شوية اتصالات وبعد كدا أقرر هعمل إيه؟

وزير الدفاع:

- مش مسموح لك، بس ممكن نخليك تطمئن على أهلك وبس

رئيس الجمهورية:

— هو أنا محبوس واللا إيه؟

وزير الدفاع:

— إنت تحت الإقامة الجبرية من دلوقتى

رئيس الجمهورية:

— ما تفتكرش إن الإخوان هيسكتوا لو أنا سيبت الحكم، دول هيولّعوا الدنيا

وزير الدفاع:

— خليهم بس يعملوا حاجة وهتشوف رد فعل الجيش، اللي عايز يعيش فيهم باحترام أهلًا وسهلًا، غير كده مش هنسيبهم، وإحنا مش هنُقصى حد، والإخوان من الشعب المصرى ومتحاولش تخليهم وقود في حربكم القذرة، لو بتحبهم بجد اتنحى عن الحكم وخليهم يروّحوا بيوتهم

رئيس الجمهورية:

— عموما أنا مش همشى والناس برة مصر كلها معايا وأنصارى مش هيمشوا.

وزير الدفاع:

— عمومًا أنا نصحتك

رئيس الجمهورية:

— طيب خد بالك، أنا اللي عينتك وزير وممكن أشيلك

وزير الدفاع:

— أنا مسكت وزير دفاع برغبة الجيش كله مش بمزاجك، وإنت عارف كده كويس، وبعدين إنت ما تقدرش تشيلني، أنت خلاص ما عادش ليك أي شرعية

رئيس الجمهورية:

— طيب لو وافقت أتنحى، ممكن تسيبونى أسافر برة وتوعدنى أنكم مش هتسجنونى؟

وزير الدفاع:

— مقدرش أوعدك بأي حاجة، العدالة هي اللي هتقول كلمتها

رئيس الجمهورية:

— طيب طالما كده بقى أنا هعملها حرب ونشوف مين اللي هينتصر في الآخر

وزير الدفاع:

— الشعب طبعًا اللي هينتصر، إنت من دلوقتى محبوس

* * *

في رد فعل لا يختلف كثيرا عن أهل الدنيا، لم يتمالك "براء" نفسه عند هذا المشهد ليرتمي في حضن "الحسيني" ويغمره بالقبلات مرددا:

– ألف حمد وشكر ليك يا رب، دمنا ما ضاعش هدر يا حسيني، جه من بعدنا اللي خد حقنا وكمل المسيرة

إلا أن "الحسيني" تسمر في مكانه، واستطرد ساخرا وهو ينظر لباقي الشهداء:

– مش قولت لكم ميت جديد؟

قبل أن يشير للشاشة وهو يقول لـ"براء":

– أينعم كابوس الإخوان إنزاح، بس كل الفاسدين خدوا براءة

ينظر "براء" للشاشة بعينين متسعتين وهو يشاهد أبرز رموز عهد مبارك وهم يغادرون السجن، قبل أن يردد ساخرا:

– الظاهر إن التاريخ هيكتب إن القضاء المصري الشامخ ما اعترفش من يناير 2011 ليونيو 2013 غير بـ3 جرايم بس، إهانة القضاء، وإهانة الجيش، وإهانة إلهام شاهين

"الحسيني" و"فاطمة" وباقي الشهداء يضحكون، قبل أن ينظر "الحسيني" للشاشة ويشير لصورة "مجد" في زيه الملثم قائلا:

– وعشان كده لسه قدام صاحبك معركة تانية أهم بكتير

"براء" ينظر للشاشة بلهفة قائلا:

– هو إنت عرفت إيه اللي هيحصل له هو ورحمة؟

– عيب عليك، ما رضتش أبيعك وقولت أستناك تشرفني عشان نتفرج مع بعض

ثم يخرج "الحسيني" قطعة شيكولاتة ويمد بها يده نحو "براء" قائلا:

– اتفضل يا معلم

إلا أن "براء" يبتسم دون أن يمد يده قائلا:

– شكرا يا حبيبي، ما بحبهاش

ثم ينظر للشاشة السماوية التي تعرض ما يحدث في الحياة الدنيا لتصعقه المفاجآت ويهم بالغضب والضيق، قبل أن يكتشف أنه لا يملك خيار الغل والضغينة في عالمه الجديد، فيبتسم رغما عنه ويبدأ المشاهدة بنفس راضية مطمئنة وقد علم أن دوره قد انتهى عند هذا الحد، وجاء الوقت على غيره لاستكمال مسيرة العدالة الغائبة، ويا لها من معركة.

لكن لهذا حديث أخر.

تمت بحمد الله

كلمة أخيرة

عزيزي القاريء، هذه الرواية ليست تأليفي وحدي، بل بها تجميع لجمل وكلمات عبقرية، قيلت على ألسنة المصريين خلال عام عصيب من حكم الإخوان.

عام كامل رصدت من خلاله مأساة فترة زمنية قاحلة من تاريخ مصر، عانيت فيها نفس معاناتك في بلد شعرنا أنها لم تعد بلادنا، وسخرت فيها في الواقع وعبر شبكات التواصل الاجتماعي من نفس الأمور التي كنت تسخر منها بدورك أنت الأخر.

ووقعت عيناي كراصد وكاتب على العديد من النكات والإفيهات المضحكة التي صاغها مصريون ربما كنت أنت واحدا منهم، فكانت مهمتي هي تجميع ما حدث في تاريخ مصر عبر تلك السنة، وما دار خلالها على الألسن، وعبر مواقع الإنترنت، وفي صفحات الجرائد، ووضعها ضمن أحداث تحمل هدفا أخطر وأعمق بكثير من محاربة حكم الإخوان الفاشي المستبد، ألا وهو المطالبة بإصلاح القضاء على يد رجاله الشرفاء المخلصين الذين لا غبار على سمعتهم وتاريخهم، والتصدي لثغرات القانون وتأثيرها الخطير على تحقيق العدالة.

فالشكر كل الشكر لكل مجهول أطلق إفيه أو حكمة في الفضاء الالكتروني ليتناقلها الملايين من بعده دون أن يعرفوه معرفة شخصية، أو ينسبوا إليه الفضل فيما كتب وقال.

وشكر خاص لكل من ساندني بالنصيحة، والمشورة، والدعم، ولكل من اقتبست منه مقولة أو حكمة أو جزء من مقال حتى يرى هذا العمل النور، وعلى رأسهم المستشار أشرف العشماوي، والمحامي الراحل هشام الشافعي -رحمة الله عليه- والمحامي علاء الدين كامل، والأم الجميلة والكاتبة المصرية الأصيلة نشوى الحوفي، والمؤلف والمخرج عمرو سلامة، والكاتب والمفكر محمد

الدويك، والأصدقاء محمود زينهم، ومحمد مصطفى، ومحمد عثمان، وسارة أحمد، وسارة شاهين، وحسام عادل، ووليد عبد المنعم و"دون ماندو".

أبَابِيلُ

مُنذ مذبحة القضاة في عهد جمال عبد الناصر، ولا يزال اللغط مُستمرًا حول "نزاهة القضاء"، إلى أن حقق "مجد الدين مهران" حلمه وأصبح قاضيًا مرموقًا يحكم بين الناس بالعدل، قبل أن يكتشف كوارث وخطايا ارتكبها قضاة ومستشارون تلاعبوا بمصائر البشر، متخذين من القانون سلاحًا يقهرون به خصومهم، ودرعًا يحمون به أنفسهم من المُساءلة. حينها شعر أن الأقدار قد انتخبته ليقول لهذا العبث "كفى".

شريف عبد الهادي

كاتب صحفيّ، وناقد فنيّ، عمل بموقع "بص وطل" الإلكتروني، وجريدة "روز اليوسف"، وموقع وإذاعة "حُريتنا"، وجريدة "اضحك للدنيا"، وجريدة "صوت الأمة"، ومجلة "إحنا"، وغيرها. كذلك عمل بإعداد البرامج التلفزيونية والإذاعية في قنوات "التحرير"، و"النهار"، و"نايل دراما"، والقناة الأولى المصرية، وإذاعة "نجوم F.M"، و"راديو مصر"، و"الشرق الأوسط"، وغيرها.

الربيع العربي للنشر والتوزيع